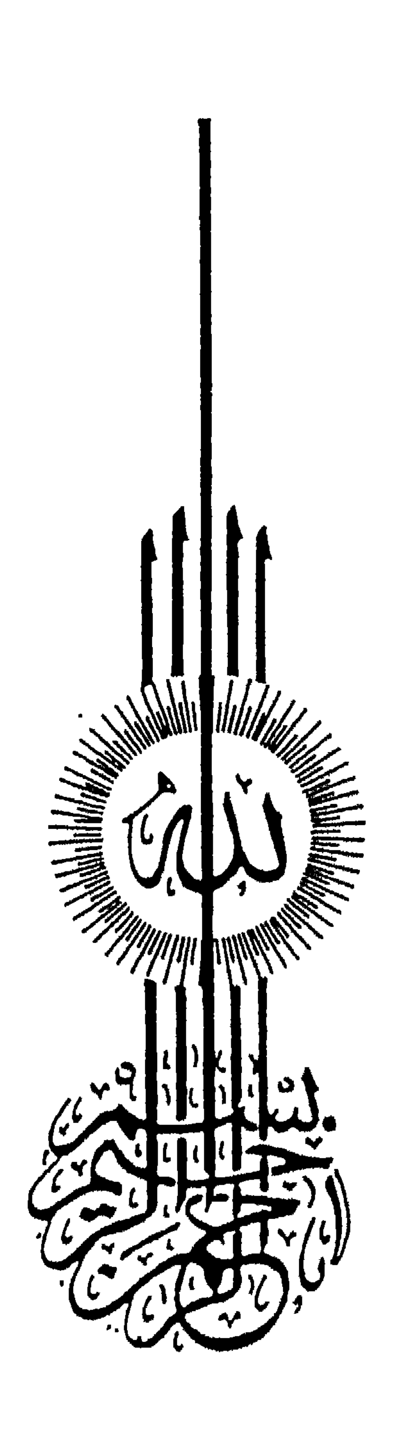


مطبوعات جامعة الامارات العربية المتحدة

(٥١)

دروس السيرة النبوية وعبرها
فقه السيرة

الدكتور/ أحمد محمد العليمي


الله
بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة :

إن الحمدلله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلٌ له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ .

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾(١).

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبثَّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً﴾(٢).

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً، يُصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يُطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً﴾(٣).

اللهم إياك نعبد، ولك نصلي ونسجد، وعليك توكلنا، وإليك أنبنا وإليك المصير، اللهم إنا نبرأ من حولنا وقوتنا ونلوذ بحولك وقوتك، فإنه لا حول ولا قوة إلا بك، ونصلي ونسلم على صفوتك من خلقك، وخاتم رسلك سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه، ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين.

أما بعد:-

فإن السيرة النبوية درسُ التاريخ والواقع والمستقبل، لأنها تمثل الوجود الحقيقي للمسلم أينما وجد وحيث كان. قال تعالى ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً﴾(٤).

لذا فالسيرة هي مصدر التطبيق لشخصية المسلم القويمة ضمن مبادىء وأحداث التكوين التي تمت لهذه الأمة من خلال صناعتها على يد محمد ﷺ. بهدايتها إلى صراط الله المستقيم، وبما شرعه من الدين.

---

(١) سورة آل عمران آية ١٠٢.
(٢) سورة النساء آية ١.
(٣) سورة الأحزاب آيات ٧٠ – ٧١.
(٤) سورة الأحزاب آية ٢١.

ومما لابد أن يُنتبه له في هذا الموضوع ما يلي:-

الأول: إن وجود الأمة ذات الكيان الواحد المتوحد الفاعل إنما بدا نزل الوحي على محمد ﷺ فكان النور الهادي والتبشير بفجر أغر للإنه في هذا الوجود، استطاع الإنسان من خلال معرفته بالوحي أن يصنع الـ وأن يصيغ حياته في الوجود ضمن متطلب التوافق بينه وبين ما حوله في الوجود.

الثاني: إن تاريخ الأمة قبل الإسلام قد مُليء بتحقير العقل، وهـ الممارسة على رغم بعض الصفات الطيبة التي تواجدت منفكة عن بعـ البعض هنا وهناك، إلاّ أنها لم تنتظم في إبداع يصنع الإنسان أو يُ الحضارة، أو يحترم القيم، أو يرفع من شأن العقل البشري أو يحقق إنسـ الإنسان. بل كانت الجاهلية الجهلاء في صور متناقضة ومبادىء هابطـ تليق بالعقل البشري ولا تحترمه.

الثالث: إن السيرة النبوية لا ينبغي أن تبقى في حياة المسلمـ وخاصة في هذا العصر الذي تُحاول الجاهلية المعاصرة أن تجتث الهـ الإسلامية من الناس – قصة تُتلى في المناسبات، أو تُردد في اللقـا والجلسات والاحتفالات فقط، بل ينبغي أن تكون نبراساً وهداية واضحة لا الذي أدته إبان إيجاد الأمة في أول نشأتها ووجودها، ليقتدي الخلف بالسـ في التطبيق.

الرابع: أطلق بعض كتاب السيرة لفظ (فقه السيرة) على دروس و عبّروا عنها حسب فهمهم لذلك.

فهذا يذكر الدروس والعبر الفقهية التي تُعنى باستنباط الأحكام الشر من الأدلة التفصيلية كما فعل ابن القيم رحمه الله في زاد المعاد.

وهذا يذكر الدروس والعبر الدعوية التي يصنفها في دلالات فقه الد المعاصرة لحاجة الناس في رأيه لذلك الآن.

وهذا يذكر الدروس والعبر التي ألمحت إليها النصوص في مـحـ للتأمل، أو العيش في الظلال الوارفة للسيرة النبوية.

وهذا يذكر الدروس والعبر الجهادية والعسكرية والقيادية ضمن قدراته في الاستنباط والتحليل أو خلفيته العملية أو الفكرية، وهذا كله خير ونعمة علمية وفضل من الله للمسلمين.

ومما أكرم الله به هذه الأمة ضمانتين:

الأولى: ضمانة حفظ التصور

التصور الإسلامي مستمد من كتاب الله وسنة رسوله محمد ﷺ

قال تعالى ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾[(1)].

والمقصود القرآن والسنة لأنها تابعة له فلا يمكن أن يُفهم إلاّ بها.

قال تعالى ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتُبين للناس ما نُزل إليهم ولعلهم يتفكرون﴾[(2)].

الثانية: ضمانة البقاء والإستمرار

وهي ضمانة الوجود لهذه الأمة حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول (من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، ولا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله)[(3)].

وأردت بهذا البحث أن أحقق أمرين من هذا الجهد:

أولاً: تلبية حاجتنا التي تصنع وجودنا، وتحافظ على كياننا، وقد يكثر الاستنباط الدعوي المتعلق بالهوية على غيره، ذلك لأن الحاجة اليوم إليه أشد من حاجتنا إلى الماء والهواء.

الثاني: أن الدراسات كثرت وكبرت فأردت الاختصار، وخاصة لطلاب استعجل عليهم الزمن فلم يجدوا فيه متسعاً، أو لدعاة كثرت عليهم المهام فهم مثقلون بأعباء الدعوة ومتطلباتها فكان هذا الجهد المختصر - والذي أرجو أن يكون مفيداً - نتيجة معايشة وممارسة امتدت في الزمن طولاً، فكانت ثمرة

(1) سورة الحجر آية ٩.

(2) سورة النحل آية ٤٤.

(3) أخرجه البخاري، كتاب العلم، باب من يرد الله به خيراً ٣٩/١ (ح/٧١) ومسلم، كتاب الإمارة باب لاتزال طائفة من أمتي ١٥٢٤/٣ (ح/١٠٣٧).

جهد دعوي ميداني تعليمي.

منهجي في البحث

١ - اعتمدت على القرآن أولاً، ثم الروايات الصحيحة إذا توفرت في كل ح
وخرّجت ذلك، فإذا وجدته في الصحيحين أو أحدهما اكتفيت بذلك،
ذكرت غيرهما.

٢ - رجعت إلى كتب السيرة النبوية لذكر بعض الأحداث المكملة للقصة،
ذكر حكم سندها في أغلب الأحوال، وما لم يرد صحيحاً أو حسناً ذك
مصدره.

٣ - أوردت أحداث السيرة في نقاط محددة في كل موضوع تسهيلاً للقا
وتقريباً للمعلومة إليه ليسهل عليه الفهم والإدراك.

٤ - استخرجت الدروس والعبر من كل حدث، وصغت تلك الدروس بطري
توجيهية للقارئ، وقد استفدت من مجموعة من الدراسات والكتب المؤ
في الموضوع[1].

أسأل الله قبول هذا الجهد وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، فما كان ا
من صواب فمن الله، له الفضل والكرم والمنة، وما كان فيه من خطأ فمني و
الشيطان، ورحم الله من أهدى إلينا عيوبنا، والله المستعان ولا حول ولا قوة
بالله العلي العظيم.

أبو عماد الد

---

(١) موارد الاستفادة.

- فقه السيرة: للغزالي رحمه الله.
- فقه السيرة: للبوطي.
- السيرة النبوية دروس وعبر: للسباعي رحمه الله.
- تأملات في حياة النبي ﷺ : د. محمد الوكيل.
- محمد رسول الله ﷺ : د. محمد الصادق العرجون وغيرها.

العرب قبل الإسلام

العرب قبل الإسلام

* حال العرب قبل مجيء الإسلام – في الجزيرة العربية – اتسم سمات يحسن إجمالها باختصار فيما يأتي:–

* الحالة الدينية

* كان العرب يدينون ببقايا دين إبراهيم عليه السلام في مكة، يت الناس بها، حتى جاءهم عمرو بن لحي الخزاعي بصنم من الحيرة فعـ الأصنام. وحلل لهم وحرم لهم. لذا قال فيه النبي ﷺ (لقد رأيته في يجر قُصبه)[1]، فهو أول من غيّر دين إسماعيل[2]. وكان من مظاهر ذلك

– أن اتخذت كل قبيلة منهم صنماً كبيراً يعبدونه، واتخذ كل واحدٍ منهم صـ لنفسه يعبده خاصاً به.

– وكان الواحد منهم يتخذ صنماً من حجر فإذا وجد حجراً أجمل مما ؛ قذف بما معه، وأخذ الأخرى واتخذها من دون الله آلهة.

– بل إن بعضهم اتخذ صنماً من تمر، يقول أحدهم عن نفسه «كنت إذا جـ أكلته، وإذا شبعت عبدته»(٣).

– إلاّ أن عبادتهم للأصنام لم تقم على إنكار الله وجحوده والإلحاد به، بل . أن الأصنام شريكة مع الله وشفيعة عنده.

قال تعالى ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والـ لَيَقُولُنَّ الله فأنى يؤفكون، الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويَقْدِرُ له الله بكل شيء عليم، ولئن سألتهم من نَزَّل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ليقولن الله قُلِ الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون ﴾[4].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الجنة، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضـ (٢١٩١/٤) (ح/٢٨٥٦). وقصبه: أي الأمعاء، أو ما كان أسفل البطن منها. انظر النـ ٧٦/٤.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١٢١/١ بإسناد حسن.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٢٨٩/١ – ٢٩٣ – بإسناد حسن.

(٤) سورة العنكبوت آيات ٦١ – ٦٢ – ٦٣.

وقوله تعالى ﴿ويعبدون من دون الله ما لا يَضُرُّهُمْ ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتُنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون﴾(١).

– وإذا اعترى إيمانهم ذلك الضلال، فمن باب أولى أن يفقدوا التشريع الرباني الذي تسير به حياتهم، ويُنظم شؤونهم.

قال تعالى ﴿أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾(٢).

بل أنكر الله عليهم إعطاءهم لأنفسهم حق التحليل والتحريم.

قال تعالى ﴿ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون﴾(٣).

ويصوّر جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه حالهم في الجاهلية في قوله بمجلس النجاشي في الحبشة: (أيها الملك كنا قوماً على الشرك، نعبد الأوثان ونأكل الميتة، ونسيء الجوار، ونستحل المحارم، لا نحل شيئاً ولا نحرمه ......الخ)(٤).

– وكان لهذا الانحراف الديني والشرك بالله ردة فعل عند بعضهم. جعلتهم ينطلقون للبحث عن دين يصلهم بالله، وجعلت البعض الآخر يتأمل ويتفكر في الكون وفي خالقه.

ومن هؤلاء:–

*** زيد بن عمرو بن نفيل**

روى البخاري رحمه الله عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن زيد بن عمرو ابن نفيل خرج إلى الشام يسأل عن دين صحيح يتبعه، فلقي عالماً من اليهود فسأله عن دينهم، لعلّه يتبعه، فقال له اليهودي: «إنك لا تكون على ديننا حتى

---

(١) سورة يونس آية ١٨.

(٢) سورة المائدة آية ٥٠.

(٣) سورة النحل آية ١١٦.

(٤) انظر القصة بتوسع في فصل (الإبعاد عن ميدان الصراع – الهجرة إلى الحبشة).

تأخذ نصيبك من غضب الله».

قال زيد: وما أفرُّ إلا من غضب الله، ولا أحمل من غضب الله شيئاً ولا أستطيع. فهل تدلني على غيره؟

قال: « وما أعلمه إلا أن تكون حنيفاً ».

قال زيد: وما الحنيف؟

قال: « دين إبراهيم عليه السلام لم يكن يهودياً ولا نصرانياً، ولا يعبد إلا الله ».

فخرج زيد، فلقي عالماً نصرانياً، فدار بينهما مثل ما دار بينه وبين اليهودي، فلما رأى زيد قولهم في إبراهيم، خرج، فلما برز رفع يديه فقال:

« اللهم إني أشهدك أني على دين إبراهيم »[١].

وقد لقي زيد النبي ﷺ إلا أنه مات قبل أن يبعث الرسول ﷺ[٢].

وورد أن النبي ﷺ قال عنه « دخلت الجنة فرأيت لزيد بن عمرو دوحتين »[٣].

* ورقة بن نوفل

رُوي أنه خرج مع زيد بن عمرو بن نفيل يبحث عن دين صحيح يتبعه وبعد البحث تنصَّر ورقة، ولم يرتض زيد سوى دين إبراهيم عليه السلام[٤].

وهو ابن عم خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها الذي سيأتي ذكره في قصة نزول الوحي عندما استشارته فيما رآه النبي ﷺ في غار حراء.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب حديث زيد بن عمرو بن نفيل ١٣٩١/٣ (ح/٣٦١٤ – ٣٦١٥).

(٢) أخرجه البخاري بموضعه ١٣٩١/٣ (ح/٣٦١٤).

(٣) أورده ابن كثير في البداية ٢٦٣/١٢ من رواية الباغندي، وقال ابن كثير – وهذا إسناد جيد – والدوحة: الشجرة العظيمة. انظر النهاية ١٣٨/١.

(٤) أوردها الطيالسي – ترتيب البناء ١٦١/٢ – بإسناد ضعيف لأن في سندها نفيل بن هاشم وهو مجهول، ولم يوثقه سوى ابن حبان – وله شواهد مما ورد في قصة زيد بن عمرو إلى الشام وهي صحيحة – فلعله يرتفع إلى درجة الحسن لغيره.

* امية بن أبي الصلت

دخل في النصرانية، وهو من فحول الشعراء، قال فيه النبي ﷺ (كاد امية بن أبي الصلت أن يسلم)[1] وفي رواية (فلقد كاد أن يسلم في شعره)[2].

عاش إلى زمان البعثة ولم يؤمن تكبراً عن أن يكون تابعاً للرسول ﷺ[3].

* لبيد بن ربيعة العامري

كان من فحول شعراء الجاهلية، ومن شعراء المعلقات قال الرسول ﷺ عنه (أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد، الا كل شيء ما خلا الله باطل)[4].

* الحالة الاقتصادية

– لم يكن للعرب مصادر ثروات كبيرة في بلادهم، بل كان الفقر منتشراً في تلك الديار ، فأكثرهم يعيش في البادية على رعي الأغنام والإبل. واشتغل بعضهم بالزراعة في المناطق التي توفرت فيها فرصة ذلك من مياه وأرض صالحة.

واشتغل آخرون بالتجارة – كأهل مكة –.

قال تعالى ﴿ لإيلاف قريش، إلافهمْ رحلة الشتاء والصيف، فليعبدوا رب هذا البيت، الذي أطعمهم من جوع وءامنهم من خوف ﴾[5].

– وكانت رحلة الشتاء إلى اليمن والحبشة، ورحلة الصيف إلى الشام مصدر رزق يوفر لهم بعض المال والمتطلبات من خلال تلك القوافل التي سيّروها بين المنطقتين[6].

– وكان الحج يوفر لهم بعض المال:

– قال الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نَجَسٌ فلا

---

(١) اخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب ايام الجاهلية ١٣٩٥/٣ (ح/٣٦٢٨). واخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الشعر ١٧٦٨/٤ (٢٢٥٥).

(٢) اخرجه مسلم ١٧٦٨/٤/ ٢٢٥٥. بموضعه قبله.

(٣) انظر فتح الباري ١٥٣/٧.

(٤) اخرجه البخاري كتاب فضائل الصحابة باب ايام الجاهلية ١٣٩٥/٣ (ح/٣٦٢٨). ومسلم كتاب الشعر ١٧٦٨/٤ – (ح/ ٢٢٥٦).

(٥) سورة قريش.

(٦) تفسير التحرير والتنوير ٥٥٨/٣٠.

يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وإن خِفْتُمْ عَيْلَةً فسوف يُغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم ﴾[1].

قال ابن كثير رحمه الله[2]

قال محمد بن إسحاق: وذلك أن الناس قالوا لتقطعن عنا الأسواق ولتهلكن التجارة، وليذهبن عنا ما كنا نصيب فيها من المرافق، فأنزل الله (وإن خفتم عيلة..) الآية.

فقد كان الحج في الجاهلية مصدراً من مصادر أرزاقهم، لذا خافوا بعد ذلك من انقطاعه فطمأنهم الله بأن الله هو الغني الذي يُغني من يشاء من عباده.

* الحالة السياسية

* الواقع السياسي الذي عاشه العرب في الجزيرة، يرد في النقاط التالية:

- فقدان الدولة.
- الغلبة للأقوى.
- حياة قتل وقتال.
- اجتياح أبرهة الأشرم والي اليمن الحبشي لأرضهم.
- تبعية للفرس والروم في أطراف الجزيرة.
- الولاء للقبيلة.

* وإليك نبذاً مختصرة عن كل نقطة من هذه النقاط.

* فقدان الدولة

عاش العرب في إطار القبيلة وأعرافها وتقاليدها بعيداً عن مدلول الدولة - وخاصة في وسط الجزيرة العربية، مكة وما حولها - حيث لم تتوفر لهم الدولة بأي معنى من معانيها المعروفة.

---

(١) سورة التوبة آية ٢٨.

(٢) تفسير القرآن لابن كثير ٣٤٦/٢.

– وفي أطراف جزيرتهم الشمالية وجدت دولة الغساسنة والمناذرة إلا أن ما يمكن أن يقال عن ذلك إنه ترتيب من الدول الكبرى يومئذ لأحوال جيرانهم من أجل توفير الأمن لتلك الدول الكبرى، كما ورد في حديث رستم قائد جيش الفرس للمغيرة رضي الله عنه قبيل القادسية بقوله «قد كنا نوكل بكم أمراء الأطراف فيكفونا أمركم»(١).

وفي جنوب الجزيرة في اليمن عرف الناس الدولة إلا أن غزوات الفرس والأحباش كانت مسيطرة على ذلك الطرف القصي من جزيرة العرب.

ولا يمكن أن نجد غير المحاولة التي جرت في المدينة قبيل هجرة النبي ﷺ إليها في تمليك عبدالله بن أبي بن سلول وجعله ملكاً على يثرب، وخاصة بعد القتال الذي حدث بين الأوس والخزرج في يوم بُعاث(٢).

*** الغلبة للأقوى**

– إن الميزان الذي كان يتعامل به العرب هو ميزان القوة والقدرة على الصراع وإنزال الأذى بالخصم. يعبر أحد شعرائهم فيقول:

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه   يهدّم ومن لا يظلم الناس يُظلم

لذا كانوا يطلبون الولد يتكثرون به في قتال بعضهم، وغزو بعضهم للبعض. ويعيرون من لا ولد له كما حدث لعبد المطلب بن هاشم عندما أراد أن يحفر بئر زمزم فمنعته قريش بسبب ذلك. فنذر لله إذا أعطاه عشرة من الولد الذكور أن يذبح أحدهم عند الكعبة(٣).

فلما ولد له استقسم بالأزلام فخرج القسم على عبدالله بن عبدالمطلب والد النبي ﷺ وكرر ذلك مرات وتكرر ذلك. حتى فداه بمائة من الإبل فكانت الدية بسبب ذلك مائة من الإبل في أعراف العرب وأقرها الإسلام.

وفي المقابل كانوا يكرهون مجيء الإناث، قال تعالى: ﴿ **وإذا بُشّرَ أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم، يتوارى من القوم من سوء ما بُشر**

---

(١) البداية والنهاية ٤١/٧ – ٤٢.

(٢) السيرة النبوية في ضوء مصادرها الأصلية/٦٥ والتاريخ – للطبري – ٢٣٩/٢ – ٢٤٠ وانظر السيرة الذهبية ٢٦١/١.

(٣) السيرة النبوية – ابن هشام – ١٣١/١ – ١٣٤، والسيرة النبوية الصحيحة ٩٢/١ – ٩٣.

به أيُمسِكُهُ على هُونٍ أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون ﴾[1].

«وانحرافهم عن العقيدة الصحيحة سوّل لهم وأد البنات أو الإبقاء عليهن في الذل والهوان من المعاملة السيئة والنظرة الوضيعة، ذلك أنهم كانوا يخشون العار والفقر مع ولادة البنات. إذ البنات لا يقاتلن، ولا يكسبن، وقد يقعن في السبي عند الغارات فيجلبن العار، أو يعشن كلاً على أهليهن فيجلبن الفقر.

والعقيدة الصحيحة عصمة من هذا كله. إذ الرزق بيد الله يرزق الجميع ولا يصيب أحداً إلا ما كتب له، ثم إن الإنسان بجنسيه كريم على الله، والأنثى – من حيث إنسانيتها – صنو الرجل وشطر نفسه كما يقرر الإسلام.

ويرسم السياق صورة منكرة لعادات الجاهلية: «وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم» مسوداً من الهم والحزن والضيق، وهو كظيم يكظم غيظه وغمه، كأنها بلية، والأنثى هبة الله له كالذكر، وما يملك أن يصور في الرحم أنثى ولا ذكراً، وما يملك أن ينفخ فيه حياة، وما يملك أن يجعل من النطفة السانجة إنساناً سوياً، وإن مجرد تصور الحياة نامية متطورة من نطفة إلى بشر – بإذن الله – ليكفي لاستقبال المولود – أياً كان جنسه – بالفرح والترحيب وحسن الاستقبال، لمعجزة الله التي تتكرر، فلا يبلي جدتها التكرار! فكيف يغتم من يبشر بالأنثى ويتوارى من القوم من سوء ما بشر به وهو لم يخلق ولم يصور، إنما كان أداة القدرة في حدوث المعجزة الباهرة؟

وحكمة الله، وقاعدة الحياة، اقتضت أن تنشأ الحياة من زوجين ذكر وأنثى، فالأنثى أصيلة في نظام الحياة أصالة الذكر، بل ربما كانت أشد أصالة لأنها المستقر، فكيف يغتم من يبشر بالأنثى، وكيف يتوارى من القوم من سوء ما بشر به، ونظام الحياة لا يقوم إلا على وجود الزوجين دائماً؟.

إنه انحراف العقيدة ينشيء آثاره في انحراف المجتمع وتصوراته وتقاليده... «ألا ساء ما يحكمون» وما أسوأه من حكم وتقصير»[2].

---

(١) سورة النحل آيات ٥٨ – ٥٩.

(٢) في ظلال القرآن ٤/٢١٧٨.

* حياة قتل وقتال

يتقاتلون لأتفه الأسباب، بل تستمر المعارك السنوات الطوال من أجل سبب تافه مثل ناقة كليب في حرب داحس والغبراء.

- بل اعتمدوا حركة الغزو في كسب أرزاقهم وتحصيل قوتهم، بل قد يعتدي القريب على قريبه إذا لم يجد عدواً يفتك به.

وأحياناً على بكر أخينا إذا ما لم نجد إلا أخانا

وقطع الطريق، وأخذ الأموال، والاعتداء لمجرد الاعتداء، صفات اتصف بها سكان البادية في الجزيرة العربية، ومارسوها، واشتهروا بها.

* الاعتداء عليهم

وكان ذلك في أبرز صورة من خلال حادثة الفيل: قصة الفيل:(١)

وهي قصة مشهورة أرّخ بها العرب لدلالتها على مزيد عناية الله تعالى ببيته، ذلك أن أبرهة الحبشي لما غلب على بلاد اليمن، ورأى الناس يقصدون زرافات، ووحداناً، ورجالاً وركباناً الكعبة البيت الحرام قال: إلامَ يقصدون؟ قالوا له: إلى الكعبة بمكة يحجون، قال: وما هو؟ قالوا له: بيت من الحجارة قال: وماكسوته؟ قالوا: ما يأتي من ههنا من الوصائل(٢)، قال: لأبنينّ خيراً منه.

فبنى لهم كنيسة بصنعاء تفنّن في بنائها، وتزيينها، وسماها «القُلَّيْس»(٣) قاصداً صَرْف العرب عن الكعبة، ولكن أعرابياً عمد إليها فتغوّط فيها، فلما علم أبرهة استشاط غضباً، وعزم على هدم الكعبة، وسار في جيش لَجب لا قِبَل لأهل مكة والعرب به، وقد تعرض له في الطريق بعض قبائل العرب، ولكنه تغلب عليهم، وعند مشارف مكة وجدوا إبلاً لعبدالمطلب بن هاشم، فاستاقوها فذهب عبدالمطلب إليهم، وكان وسيماً جميلاً تعلوه المهابة والوقار، فاستعظمه أبرهة، وأكرمه، فلما كلمه في الإبل عجب وقال له: أتكلمني في الإبل، ولا

---

(١) تفسير الطبري ٢٩٧/٣٠ - ٢٩٩، السيرة النبوية في ضوء الكتاب والسنة. أ.د. محمد أبوشهبة ١٦٧/١ - ١٦٨. والسيرة النبوية الصحيحة ٩٧/١.

(٢) الوصائل هي ثياب مخططة يمانية، كانت تكسى بها الكعبة.

(٣) بضم القاف وفتح اللام المشددة، وسكون الياء، وقيل: بفتح القاف وكسر اللام.

تكلمني في بيت فيه عزك، وشرفك، وشرف آبائك؟ فقال عبدالمطلب هذه الكلمة التي سارت مسير الأمثال: «أنا رب الإبل، وللبيت رب يحميه»[1]!!

ثم رجع عبدالمطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة ومعه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده، فقال:

لا هُمَّ [2] إن المرء يمنـع	رحلـه فامنـع رحـالك
وانصر على آل الصـليب	وعـابديه اليـوم آلك
لا يغـلبن صـليبهم	ومحـالهم أبداً محـالك
إن كنـت تاركهم وقبلتنـا	فـأمر مـا بـدا لك

ثم أرسل حلقة البيت وانطلق هو ومن معه من قريش إلى الجبال ينظرون ما أبرهة فاعل بالبيت، وكان في جيش أبرهة فيل عظيم، فصار كلما وجَّهوه إلى الطريق المؤدي إلى مكة أبَى وبرك، وإذا وجَّهوه إلى غير طريق مكة سار وجرى، ومع هذه الآية أصر أبرهة وجيشه على هدم الكعبة، فما كان إلا أن أرسل الله عليهم طيراً أبابيل، في مناقيرها وأرجلها حجارة صغار، فصارت ترميهم بهذه الحجارة، وليس كلهم أصابت، فكان من صادفه حجر تمزق جسمه ومات، وخرجوا هاربين يتساقطون بكل طريق، ويهلكون بكل مهلك ونكَّل الله بأبرهة وجيشه شر تنكيل، وقد ذكر الله سبحانه هذه القصة في سورة الفيل قال تعالى: ﴿**ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل، ألم يجعل كيدهم في تضليل، وأرسل عليهم طيراً أبابيل، ترميهم بحجارة من سجيل، فجعلهم كعصف مأكول**﴾[3].

وقال رسول الله ﷺ «إن الله حبس عن مكة الفيل، وسلط عليها رسوله والمؤمنين»[4].

---

(١) رب الإبل: صاحبها ومالكها.

(٢) أصلها اللهم، حذفت الألف واللام منها، واكتفى بالباقي.

(٣) جمع إبيل أو إبول أي جماعات جماعات، وقيل: لا واحد له من لفظه.

وسجيل: الطين المحروق بالنار قيل: إنه فارسي معرب.

والعصف المأكول: هشيم الزرع بعد ما يؤخذ منه الحب كالقمح مثلاً.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب تحريم مكة ٩٨٨/٢ (ح/١٣٥٥).

فهي لمّا أراد بها أبرهة وجنده سوءاً أهلكهم الله، ولمّا أراد رسول الله ﷺ وأصحابه بفتحها خيراً أعينوا ونُصروا، وقد كانت هذه الآية إرهاصاً بين يدي ميلاد نبينا محمد ﷺ ودلالة على يُمْنه، وخيره، وبركته.

* الولاء للقبيلة

- كان ولاؤهم للقبيلة عظيماً، فلا ينفذون إلا ماتراه، ولا يفعلون إلا ما يؤمرون به من سادتهم وزعمائهم.

- ألغوا عقولهم وفقدوا معايير إنسانيتهم، فالحق ما أمرت به القبيلة أو اتفقت عليه، والباطل ما أقرت به القبيلة أو اتفقت عليه أنه باطل.

وهل أنا إلا من غُزية إن غـوت   غويـت وإن ترشـد غزيـة أرشـد

- لا يسألون عن الحق، بل يستجيبون لكل صارخ

لا يسألون أخاهم حين يندبهم   في النائبـات على ما قال برهـاناً

فهم أصحاب ولاء في إطار وضعهم القبلي يحافظون على أنفسهم من خلاله، ويدينون بولائهم له.

* الحالة الاجتماعية

إن الحياة الاجتماعية في أي مجتمع من المجتمعات لا تكاد تنفصل عن الحياة الدينية والاقتصادية. ولأن الوثنية التي سادت بين العرب كانت ضد الفطرة والمنطق فقد نتج عن ذلك مظاهر اجتماعية ضد الفطرة والمنطق.

ومن بين تلك المظاهر: الانحطاط الأخلاقي الذي تمثل في ممارسة كثير من الرذائل مثل شرب الخمر ولعب الميسر، والزواج بأي عدد، وقتل بعضهم الإناث بالذات خوف العار، وإثارة الحروب لاتفه الأسباب، وأخذ الثأر، وقد حكى الله عنهم كل هذه الرذائل في القرآن الكريم وعلى لسان رسوله ﷺ وعابها عليهم، وظل الرسول ﷺ يحاربها طوال حياته كما هو معروف.

مثال ذلك: ما قاله ابن عباس: «إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما

فوق الثلاثين ومائة من سورة الأنعام» وقوله تعالى ﴿وإذا الموؤدة سئلت، بأي ذنب قتلت﴾[1] وقوله تعالى: ﴿وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوداً وهو كظيم﴾[2]، وقوله تعالى ﴿وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب؟ ألا ساء ما يحكمون﴾[3]. وقوله ﴿إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون﴾[4] وقوله: ﴿ولا تقتلوا أولادكم من إملاق... ﴾[5] وقوله ﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق﴾[6].

وسادت في بعض أوساط غير الأشراف أنواع من الأنكحة الفاسدة المنكرة.

فقد أخرج البخاري بسنده إلى عروة بن الزبير: أن عائشة زوج النبي ﷺ رضي الله عنها أخبرته: أن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء فنكاح منها نكاح الناس اليوم: يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو ابنته فيصدقها ثم ينكحها.

ونكاح آخر: كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها: أرسلي إلى فلان فاستبضعي منه، ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبداً، حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد، فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع. ونكاح آخر: يجتمع الرهط ما دون العشرة، فيدخلوا على المرأة، كلهم يصيبها فإذا حملت ووضعت، ومرٌ عليها ليالٍ بعد أن تضع حملها، أرسلت إليهم، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع، حتى يجتمعوا عندها، تقول لهم: قد عرفتم الذي

---

(١) سورة التكوير آيات ٨ – ٩.
(٢) سورة الزخرف آية ١٧.
(٣) سورة النحل آيات ٥٨ – ٥٩.
(٤) سورة المائدة آية ٩٠.
(٥) سورة الأنعام آية ١٥١.
(٦) سورة الإسراء آية ٣١.

كان من أمركم وقد ولدت، فهو ابنك يا فلان، تسمي من أحبت باسمه فيلحق به ولدها، لا يستطيع أن يمتنع منه الرجل.

ونكاح رابع: يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة، لا تمتنع ممن جاءها، وهنّ البغايا، كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علماً، فمن أرادهن دخل عليهن. فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها جمعوا لها، ودعوا لهم القافة، ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون فالتاط به، ودعي ابنه، لا يمتنع من ذلك فلما بعث محمد ﷺ بالحق، هدم نكاح الجاهلية كله إلا نكاح الناس اليوم[1].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان عتبة بن أبي وقاص، عهد إلى أخيه سعد بن أبي وقاص: أن ابن وليدة زمعة مني فاقبضه، قالت: فلما كان عام الفتح أخذه سعد بن أبي وقاص وقال: ابن أخي، قد عهد إليّ فيه، فقام عبد بن زمعة فقال: أخي وابن وليدة أبي، ولد على فراشه، فتساوقا إلي النبي ﷺ فقال سعد: يارسول الله، ابن أخي، كان قد عهد إليّ فيه، فقال عبد بن زمعة: أخي وابن وليدة أبي، ولد على فراشه، فقال رسول الله ﷺ (هو لك يا عبد بن زمعة). ثم قال النبي ﷺ (الولد للفراش وللعاهر الحجر)[2].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب من قال – لا نكاح إلا بولي – ٥/١٩٧٠ (ح/٣٨٣٤).
و(أنحاء) أنواع. (وليته) من في ولايته. (فيصدقها) يجعل لها مهراً معيناً. (طمثها) حيضها. (فاستبضعي منه) اطلبي منه المباضعة وهي المجامعة، مشتقة من البضع وهو الفرج. (يمسها) يجامعها. (نجابة الولد) أي ليكون نفيساً في نوعه. وكانوا يطلبون ذلك من أشرافهم ورؤسائهم وأكابرهم، جهلاً منهم وضلالاً. (الرهط) ما دون العشرة من الرجال. (يصيبها) يجامعها. (القافة) جمع قائف وهو الذي ينظر في الملامح ويلحق الولد بمن يرى أنه والده (فالتاط به) فالتحق به والتصق (هدم) أبطل.أ.هـ./ تعليق.د. مصطفى البغا.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الرضاع، باب: الولد للفراش وتوقي الشبهات، ٢/١٠٨٠ (ح/١٤٥٧).
(ابن وليدة زمعة) الوليدة الجارية والأمة وإن كانت كبيرة، والولد المتنازع فيه هو عبدالرحمن ابن زمعة، وزمعة بن قيس والد سودة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ (ولد على فراشه) أي من امرأة كانت موطوءة له. (فتساوقا) ذهبا إليه يسوق كل منهما الآخر ليترافعا عنده، (الولد للفراش) الولد تابع لصاحب الفراش، وهو من كانت المرأة موطوءة له حين الولادة. (للعاهر الحجر) للزاني الخيبة والحرمان ولا حق له في الولد. والعرب تكني عن حرمان الشخص بقولها: له الحجر وله التراب. أ.هـ.د. مصطفى البغا.

وكانوا يجمعون بين الأختين، ويتزوجون بزوجات آبائهم إذا طلقت أو ماتوا عنهن، وفي ذلك يقول الله تعالى ﴿وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف﴾[1] ﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء...﴾[2].

ولم يكن للطلاق عدد معين[3]، فحدده الإسلام باثنتين، كما في قوله تعالى: ﴿الطلاق مرتان﴾[4].

---

(١) سورة النساء آية ٢٣.

(٢) سورة النساء آية ٢٢.

(٣) سنن أبي داود ٢/٦٤٤ - ٦٤٥ (ح/٢١٩٥) عن ابن عباس مرسلا، وقال الترمذي: المرسل أصح، أنظر عون المعبود ٦/٢٦٥.

(٤) سورة البقرة آية ٢٢٩.

الخصائص
للسيرة والشخصية

خصائص السيرة النبوية

اختصت السيرة النبوية عن غيرها من السير بمجموعة من الخصائص والسمات تظهر في النقاط التالية[1]:

الأولى: صحة السيرة النبوية

وذلك لأسباب عديدة

* إن القرآن العظيم قد اشتمل على مجموعة كبيرة من الآيات المشتملة على ذكر بعض الأحداث، ومن ذلك:

- الحديث عن النبي ﷺ وذاته.
- الحديث عن طبيعة رسالته التى أنزلها الله عليه، ودعوته للناس.
- موقف الناس من تلك الدعوة، سواء من آمن بها، أو صدّ عنها.
- صراع النبي ﷺ مع أعداء الرسالة الخاتمة. من المشركين أو المنافقين أو أهل الكتاب.
- ذكر بعض مفاصل الصراع بين المسلمين وأعدائهم بالتفصيل. كذكر بعض الغزوات والمعارك.

وسيأتي ما يدلل على هذا عند ذكر أحداث هذه السيرة.

* اشتمال كتب السنة النبوية التي ألفها علماء الحديث لحفظ السنة النبوية على أبواب السيرة والغزوات والجهاد حتى أصبحت تلك الأبواب جزءاً من السنة النبوية محفوظة كحفظها، مسندة بالرجال إلى ناقليها من الصحابة رضوان الله عليهم.

* أفرد بعض العلماء السيرة النبوية بتأليف مستقلة أو ردوا فيها تلك الأحداث بالأسانيد إلى رواتها وقائليها، ومن المؤلفين الأوائل الذين أفردوا السيرة بالتأليف:

- موسى بن عقبة (ت/ ١٤٠هـ) وهو محدث ثقة، قال يحيى بن معين «كتاب

---

(١) السيرة النبوية دروس وعبر - للدكتور مصطفى السباعي بتصرف وإضافة.

موسى بن عقبة من أصح الكتب»[1].

- محمد بن إسحاق (ت/١٥١هـ) إمام في المغازي.

قال الذهبي «والذي يظهر لي أن ابن إسحاق حسن الحديث صالح الحال صدوق، وما تفرد به ففيه نكارة فإن في حفظه شيئاً، وقد احتج به الأئمة»[2].

وغيرهم كثر.

* بذل العلماء جهوداً عظيمة في دراسة السيرة النبوية ومعرفة أحداثها بل إن كتب السيرة النبوية كثيرة، والدراسات المؤلفة فيها عديدة.

وقد اتجهت هذه الجهود اتجاهات:

- الدراسات المتعلقة بسرد الحوادث التاريخية.

- الدراسات المتعلقة بصحة السند ومعرفة درجته، ومدى قبوله من عدمه.

- الدراسات المتعلقة بشرح الحدث وبيانه.

- الدراسات المتعلقة بتحليل الأحداث واستخراج الدروس، أو ما سماه كاتبوه بدراسات (فقه السيرة النبوية).

* اشتمال الشعر العربي في عهد النبوة وعهد الصحابة رضوان الله عليهم على بعض الأحداث وتسجيله للوقائع ومن ذلك:

- شعر حسان بن ثابت (ت - ٤٠ أو ٥٠هـ) رضي الله عنه.

- شعر كعب بن مالك (مات - في خلافة معاوية) رضي الله عنه.

- شعر عبدالله بن رواحة (استشهد في مؤتة) رضي الله عنه، وغيرهم.

* الثانية: وضوح السيرة النبوية

لقد ولد محمد ﷺ في النور، وهذه ميزة لهذه الشخصية لا يشاركه فيها أحد. إذ أن الجهد الذي توفر لنقل سيرته ﷺ ومعرفة تفاصيل حياته، لم ينله غيره، ولم يدرك لسواه من الناس. وذلك:

---

(١) سير أعلام النبلاء ١١٧/٦.

(٢) ميزان الاعتدال ٤٧٥/٣.

* من خلال السيرة الذاتية لمحمد ﷺ فهو معروف النسب والأصل والقبيلة والأب والأم، والموطن.

* ومن خلال سيرته الاجتماعية:

- في إطار العلاقات الاجتماعية الخاصة والعامة التي عاش في ظلالها.
- في إطار الدعوة والرسالة التي أكرمه الله بها. فجعله نبياً ورسولاً إلى الناس جميعاً، وجعل رسالته الخاتمة لكل الرسالات.

* **الثالثة: الإنسانية والبشرية في سيرته ﷺ**

محمد ﷺ من البشر، أنزل الله عليه الوحي والرسالة ليبلغها للناس في إطار بشريته وعبوديته لله سبحانه وتعالى.

قال تعالى ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ أنما إلهكم إله واحد ... الآية ﴾[1].

وذلك يتضح من خلال النقاط التالية:

- ممارسة النبي ﷺ حياته من خلال إمكانات البشر وقدراتهم، ومتطلبات وجودهم. فهو يأكل وينام، ويرضى ويغضب، ويصوم ويفطر، ويتزوج النساء ويصيبه الجوع ... الخ.
- موقعه بين الناس موقع النبي المرسل دون تقديس، حيث حذّر من ذلك، ولعن من مارس من الأمم التقديس العبادي لأنبيائهم.

وقد أوجد عند أصحابه رضوان الله عليهم وأتباعه الجرأة على التعامل معه ضمن إطار بشريته، فيقولون له نعم ولا، في تعاملهم اليومي معه من خلال تبادل المصالح الحياتية بينهم وبينه في أدب جم واحترام متبادل.

* **الرابعة: السيرة الشاملة**

كانت سيرته ﷺ متعددة الجوانب تشمل الدنيا والآخرة.

وذلك لما يأتي:

---

(١) سورة الكهف آية ١١٠.

- التوازن الدقيق في ممارسته الحياة ضمن متطلبات عالم الشهادة وعالم الغيب. إن الدنيا حلوة خضرة، وهي العالم المشاهد المحسوس الذي يتعامل معه الإنسان فيفرض عليه نوعاً من الممارسة التي تحتاج إلى ضوابط وكوابح.

والآخرة هي العالم غير المشاهد، ولكنه الموعود من الله، وقد يتجاوز الحسي المشاهد غيره فيطغى عليه فيلغيه أو يحّجمه في إطار ضيق محدود.

والنجاح عند المؤمن يتم عندما تتم عملية التوازن بين المشاهد المحسوس وبين الموعود المتخيل «المُغيَّب» فلا يطغى جانب على جانب، ولا يُلغي أحدهما الآخر.

- اكتمال الجوانب الذاتية والاجتماعية في شخصية النبي ﷺ (فهو الأب والزوج والجد والداعية والقائد العسكري وإمام الصلاة والمربي والمعلم ... الخ) مما يؤدي إلى أن تكون القدوة به في تمامها وكمالها، قد شملت جوانب الحياة التي عاشها ويعيشها الإنسان المسلم في كل زمن وحين.

* الخامسة: سيرته دليل صدقه

إن مفتاح قبول الإسلام هو الإقرار بصدق محمد ﷺ وأنه لا يقول إلا حقاً، لأنه الواسطة بين الناس وبين ربهم جل وعلا.

لذا استخدم النبي ﷺ هذه المسألة عندما أخبر الناس بأنه مرسل من عند الله تعالى بالرسالة.

فقال وهو على جبل الصفا في مكة عندما أُمر بتبليغ الدعوة: (يا معشر قريش لو أخبرتكم أن وراء هذا الجبل خيلاً تريد الإغارة عليكم أكنتم مصدقيّ؟ قالوا: ما جربنا عليك كذباً)(1).

ويظهر صدق النبي ﷺ من خلال سيرته بأمرين:

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله - وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب - بلفظ آخر ١٩٠٢/٤ (ح/٤٦٨٨).
وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه كتاب الإيمان، باب في قوله تعالى (وأنذر عشيرتك الأقربين) ١٩٩٢/١ (ح/٣٥٥) وغيرهما.

أحدهما: التوافق بين قوله وعمله فلم يكن القول مخالفاً للعمل مما أبعد عنه أي مطعن في صدقه.

ثانيهما: دلائل صدقة في الشهادات التي شهد بها أتباعه وخصومه وهي كثيرة متعددة.

* شهادة الخصوم[1]

وشهادة خصوم النبي ﷺ وهم متنوعون مشركون ويهود ونصارى تدلك على مبلغ الثقة التي كان يتمتع بها عند الجميع.

قال تعالى ﴿قد نعلم إنه ليَحْزُنُكَ الذي يقولون فإنهم لا يُكذبونك ولكنَّ الظالمين بآيات الله يجحدون﴾[2].

قال أبو جهل للنبي ﷺ إنا لا نكذبك ولكن نكذب ما جئت به. فنزلت الآية[3].

- وفي قصة هرقل مع أبي سفيان:

قال له: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا.

قال هرقل بعد ذلك: «... وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فزعمت أن لا. فعرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس، ثم يذهب فيكذب على الله»[4].

ولو علم أحد من أعدائه أنه كاذب لتحدثوا بذلك، وكان حجة لهم عليه وعلى عدم صدقة في رسالته.

---

(١) كتاب الرسول - سعيد حوّى - /٢١ وما بعدها.

(٢) سورة الأنعام آية / ٣٣.

(٣) أخرجه الترمذي في جامعه، كتاب التفسير، باب ومن سورة الأنعام ٢٦١/٥ (ح/٣٠٦٤). وهو صحيح. وأخرجه الحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين، تحفة الأحوذي ٤٣٨/٨.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه في أكثر من مكان. انظر كتاب التفسير، باب قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء ١٦٥٧/٤ (ح/٤٢٧٨). وأخرجه مسلم في صحيحه كتاب الجهاد، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل ١٣٩٣/٣ (ح/١٧٧٣).

* شهادة الأصحاب

اتصف أصحاب محمد ﷺ في تعاملهم معه بصفات في هذا الجانب منها:

- أنهم كانوا دائمي الخلطة بالرسول ﷺ، ليلاً ونهاراً، سفراً وحضراً، أمناً وخوفاً.

- أنهم كانوا أذكياء راجحي العقول غير مغفلين، لا يمكن استغفالهم أو الضحك عليهم.

فإذا ما اجتمعت هاتان الصفتان في الأتباع فإن أمر الكاذب يفتضح لهم وأمر الصادق يتضح، وقد شهدوا جميعاً له بالصدق وآمنوا به.

الدروس والعبر

أولاً:- بيان إكرام الله تعالى لهذه الأمة بحفظه للقرآن الكريم، والسنة النبوية إذ يجب على المسلمين الرجوع إليهما والإحتكام إلى نصوصهما، فلا نجاح ولا سعادة في الدنيا والآخرة إلاّ بالسير على طريقهما والإلتزام بهديهما.

ثانياً:- بيان جهد هذه الأمة في حفظ دينها وكتابها، ونقل سيرة نبيها ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم، فقد اعتنى المسلمون بذلك أيّما عناية وبذلوا فيه الجهد والوقت والمال.

ثالثاً:- يتضح الإبداع العلمي الذي وفق الله أئمة المسلمين وأعلامهم في حفظ التصور، ونقل الروايات، ووضع القواعد المتعلقة بضوابط القبول والرد لما يرد من روايات، أو يُروى من أحداث. ووضع قوالب الفهم لما صحّ سنده ضمن قواعد علم أصول الفقه، وإدراك دلالات ذلك فيما سمي بعلم الدراية في تاريخنا العلمي. ويبرز من خلال ذلك إبداع علماء السيرة رحمهم الله واضحاً بيناً ناصعاً.

رابعاً:- استخدام المواهب والملكات في تسجيل أحداث وجود الإسلام وصراعه مع أعدائه، فإذا الشعراء والخطباء يُشاركون فقد كان للنبي ﷺ شاعر وخطيب.

خامساً:- يلتزم المسلم بالإقتداء بالنبي ﷺ لأن الاقتداء به سهل وميّسر لوضوح طرائقه من خلال سنته وسيرته.

سادساً:- يعلم المؤمن أن محمداً ﷺ بشر رسول، فلا يقدسه فوق مستوى بشريته، ولا يعبده، بل يُحبه ويكرمه ويصلي عليه إذا ورد ذكره.

قال رسول الله ﷺ (البخيل الذي من ذكرت عنده فلم يُصلِّ عليَّ)(١).

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه، كتاب الدعوات، باب قول النبي ﷺ رغم انف الرجل ٥/٥٥١ (ح/٣٥٤٦) وقال حسن صحيح غريب.

سابعاً:– يُمارس المؤمن الحياة ضمن توازن في كل جانب من جوانبها، فهو مستقيم. معتدل لا يميل إلى التعقيد، ولا يتجاوز إلى التفريط.

ثامناً:– يصدق المؤمن في قوله، ويمارس الصدق في حياته مع ربه ومع نفسه ومع الناس، فالصدق صفة أساسية في حياته لا يتخلى عنها ولا يميل إلى سواها.

خصائص شخصية الرسول ﷺ

لقد تميز ﷺ بمجموعة من الخصائص والصفات الكثيرة المتعددة، اذكر بعضاً منها[1]:

* **أولاً:-** ولد في أشرف بيت من بيوت العرب نسباً، قال ﷺ (إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم)[2].

- فهو محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبدمناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة ابن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

- وقد تميزت قريش على العرب بالشرف والسؤدد، وحماية البيت، وتميز بنو هاشم بتقدمهم على قريش، فهل عرف الناس بمكة غير عبدالمطلب بن هاشم لذا فإن عشيرة الرسول ﷺ كانت تتبوأ مكانة اجتماعية خاصة في مكة عند ظهور الإسلام.

* **ثانياً:-** ولد ﷺ يتيماً

واليتيم هو من مات أبوه «بل هو ابلغ اليتم وأعلى مراتبه[3]».

- وقد مات أبوه عبدالله وهو في بطن أمه، وما لبث إلا سنوات قليلة حتى ماتت أمه وعمره ست سنوات، قضى جزءاً منها بين يدي مرضعته حليمة السعدية في ديار بني سعد بعيداً عن أمه.

* **ثالثاً:-** نشأ النشأة الأولى في البادية والصحراء

- لقد كان أهل مكة يُرسلون ابناءهم إلى البادية للرضاعة في السن المبكرة الأولى، طلباً لصفاء البادية، وتعود أهلها على القوة والخشونة.

وقد قَدِمت حليمة السعدية إلى مكة، فأخذت محمداً بن عبدالله لترضعه

---

(١) أنظر السيرة النبوية – دروس وعبر – السباعي – بتصرف وإضافة –.

(٢) اخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي ﷺ ١٧٨٢/٤ (ح/٢٧٧٦).

(٣)السيرة النبوية لابن كثير ٢٦٠/١.

فمكث عندها أربع سنوات ثم أعادته إلى أهله.

* رابعاً:- مارس ﷺ رعاية الغنم

فكان يأخذ أغنام الناس بمكة وينطلق بها يطلب مواضع الرعي ومنابت الشجر حول مكة سهلاً وجبلاً. قال ﷺ عن ذلك: (ما من نبي إلا وقد رعى الغنم، ولقد رعيت الغنم على قراريط لأهل مكة)(١).

* خامساً:- كان راجح الراي نجيباً

إن النبوغ والذكاء هما مؤهلات المستقبل القيادي والنجاح لصاحبهما ولقد ظهرت تلك العلامات على محمد ﷺ مبكرة فحين اختلفت قريش عند تجديد بناء الكعبة من الذي يرفع الحجر الأسود مكانه ؟ فاتفقوا أن يحكّموا أول من يدخل من باب بني شيبة فدخل محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب - فقالوا أتاكم الأمين - فأمر بثوب فأخذ الحجر ووضعه في وسطه، ثم أمرهم برفعه جميعاً، ثم أخذه فوضعه مكانه من البناء(٢).

ورضو جميعاً بحكمه، وعلموا قدر عقله ونجابته.

* سادساً: كان ﷺ نزيهاً غير اثم

ونزاهته في عدم مشاركته في آثام الجاهلية من عبادة للأصنام أو شرب للخمر أو ممارسة التعري.. الخ.

ومن ذلك:

عندما أرادت قريش تجديد بناء الكعبة اشترك مع عمه العباس في نقل الحجارة، فاقترح عليه العباس أن يرفع إزاره ويجعله على رقبته ليقيه أثر الحجارة مادام بعيداً عن الناس، فلما فعل، سقط مغشياً عليه، فلما أفاق طلب أن يشدوا عليه إزاره، فما رؤى بعد ذلك عرياناً ﷺ(٣).

---

(١) اخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإجارة، باب رعي الغنم على قراريط ٧٨٩/٢ (ح/٢١٤٣) وغيره.

(٢) مسند احمد ٤٢٥/٣ قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٢٢٩/٨ رواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح، وقال في ٢٩١/٣ - ٢٩٢ رواه احمد ورجاله رجال الصحيح غير هلال بن خباب وهو ثقة، وفيه كلام.

(٣) اخرجه البخاري في صحيحه كتاب الصلاة، باب كراهية التعري في الصلاة وغيرها ١٤٣/١ (ح/٣٥٧).

سابعاً: الصادق الأمين

لقد أطلق الناس عليه بمكة هذين الوصفين، – وقد تقدم الحديث عن صدقه باعتبار سيرته دليل على تحلّيه بالصدق – ولأن النبوة مستلزمة لصفة الصدق إذ لا يتصور أن يكون النبي كاذباً.

وأما الأمانة فلا أمين بمكة سواه، وذلك يتجلى أنه رغم الصراع الذي حدث بينه وبين قريش، ورغم الكيد الذي دبرته قريش له ولأصحابه إلا أنه هو الأمين الذي يتعامل الناس معه على هذا الأساس. ويظهر ذلك جلياً في أمرين:

الأول: كانت مكة تضع ودائعها وما تحتاج إلى أن تحرسه يد أمينة عند محمد ﷺ في بيته رغم اختلافها معه.

الثاني: إعادته ﷺ لتلك الأمانات إليهم، حيث خلّف علياً رضي الله عنه في يوم الهجرة ليرد ودائع الناس، وكان ذلك في الوقت الذي حرصت قريش على إيذائه والفتك به.

قال تعالى:– ﴿ **وإذ يَمْكُرُ بك الذين كفروا ليُثبتوك أو يَقتلوك أو يُخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين** ﴾[1].

* **ثامناً**:– سفره إلى خارج الحجاز

سافر إلى خارج الحجاز مرتين:

الأولى: مع عمه أبي طالب إلى الشام وهو صغير (عمره اثنا عشر عاماً).

الثانية: في تجارة خديجة قبل الزواج منها وقبل البعثة.

* **تاسعاً**: حُببت إليه الخلوة:

وقد حبب إليه العزلة والتعبد، فكان يعتزل الناس، ويذهب إلى غار حراء والغار في جبل حراء المطل على مكة والكعبة.

وقيل إن الخلوة هذه هي من بقايا الإبراهيمية التي كان الناس عليها قبل الشرك والوثنية[2].

---

(١) سورة الانفال آية/٣٠.

(٢) السيرة النبوية ابن هشام ٢٥٢/١.

فكان يمكث في الغار الليالي ذوات العدد، قبل أن يرجع إلى أهله ويتزود طعاماً وماءً لخلوة أخرى.

اما صفاته الخَلقية[1]

كان رسول الله ﷺ من أحسن الناس وجهاً، أبيض اللون بياضاً مزهراً مستدير الوجه، مليحة، واسع الفم، طويل شق العينين، رَجِلَ الشعر - بين الجعودة والسبط - يصل إلى شحمة أذنيه، وأحياناً بين أذنيه وعاتقه، وقد يمتد حتى منكبيه أحياناً أخرى، ولم يشب شعره الأسود إلا اليسير منه، حيث قدر شيبه في أواخر عمره بعشرين شعرة موزعة في الرأس وتحت الفم والصدغين، ويميل اللون إلى الحمرة في بعض شعره من أثر الطيب.

وكان متوسط القامة، متوسط الوزن، ليس بالنحيف ولا الجسيم، عريض الصدر ضخم اليدين والقدمين، مبسوط الكفين، كفاه لينتان، قليل لحم العقبين[2]. اقنى الأنف[3].

---

(١) يعلم المسلم صفات النبي ﷺ الخَلقية، حتى لو رآه في المنام يعرفه بصفاته، ولا يلبس عليه الشيطان فيدعي انه النبي ﷺ، حيث اخبرنا النبي ﷺ ان الشيطان لا يتمثل على صورته.

(٢) السيرة النبوية ٨٨/١.

(٣) البداية والنهاية ١٨/٦، القناء: طول الأنف، ودقة أرنبته - طرفه - واحد يداب وسطه.

الدروس والعبـر

أولاً : يقوم التصور الإسلامي في التعامل مع الإنسان على قاعدة إنسانية تليق بمكانة الإنسان وتكريم الله تعالى له، وهي عدم التمييز بين البشر من حيث إنسانيتهم المتعلقة بالخلق أو اللون أو الوطن أو المال. فالناس سواسية كأسنان المشط، والتفاضل إنما يجري بينهم بقدر طاعتهم لله وتقواهم له. وتحقيق العبودية له في حياتهم، ولذا جعل الله التفاضل بأمر يقدر الجميع على تحقيقه، حيث يقدرون على تغيير تصوراتهم، ولا يقدرون على تغيير ألوانهم أو بلدانهم أو جنسهم.

قال تعالى ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾[1].

وفي إطار هذا التصور تأتي العبرة بأن القيمة الأساسية التي يتم عليها التفاضل هي القيمة المكتسبة من الإنسان بإيمانه بالله وطاعته له، وهي التي توفر للإنسان موقعاً ينال به الشرف والتقدم على الناس.

وبقدر توفر ذلك يكون لصاحبها التأثير في عطائه في الحياة، وفي استجابة الناس لمقتضيات ذلك العطاء وتقبلهم له.

وشرف النسب إنما هو إشارة إلى توفر صفات تليق بالإنسان من خلال تربيته والأجواء المحيطة به، وليس تقديساً للعنصر الذي جاء منه أو اللون أو البلد. بل للصفات التي تحلّى بها، وأعظمها وأجلها الإيمان والتقوى.

ثانياً: يحتاج الإنسان في حياته إلى رعاية وعطف، وخاصة في مراحل النمو الأولى – الطفولة – وإذا فقد الإنسان أباه أو أمه فإنه قد فقد جزءاً من تلك الرعاية ومن ذلك العطف، فتنمو لديه رقة القلب وتحسس المشاعر، ويكون من أقدر الناس على إدراك المعاناة، ومعالجتها بعواطف نبيلة رحيمة كريمة.

---

(١) سورة الحجرات آية ١٣.

قال الله تعالى ﴿ الم يجدك يتيماً فآوى ﴾[1].

وقال: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾[2].

ثالثاً: يظهر أثر الحياة الفطرية غير المعقدة في تناول الأحداث ومعالجتها في حياة النبي ﷺ فالجو الفطري الذي عاشه في ديار بني سعد أكسبه صفاءً في ذهنه، وقوة في عقله وجسمه.

رابعاً: يعتمد المسلم على جهده وعمله في تحصيل أسباب رزقه ومعيشته فالاعتماد على النفس فضيلة، فهو متوكل على الله يعلم أن الأرزاق بيده قال تعالى ﴿ وفي السماء رزقكم وما توعدون ﴾[3] وهو في نفس الوقت يبذل الأسباب ويقلّب الوسائل للوصول إلى تلك الأرزاق.

خامساً: لا ينقاد الناس إلا للأذكياء النجباء، فهم الذين بصفاتهم تتهيأ لهم استجابة الجمهور ورضاهم بهم. ولا يقود الدعوات ويتصدر المحافل إلا ذكيٌ نجيب أمين على مبادئه وأهدافه، أما الضعفاء ومحدودو الذكاء فمحلهم في الصفوف الخلفية لا الأمامية.

سادساً:- يتنزه المؤمن ويتزكى عن المعصية والوقوع فيها، والداعية الناجح هو: صاحب العفة المبتعد عن الإثم، حيث يرضى الله عنه، ويُرضى عنه الناس. ثم إن السابقة النظيفة تدفع الإرادة المواجهة للباطل والشر إلى الصمود والبقاء، حيث لا يخاف صاحبها من تقليب صفحات الماضي لأنها ناصعة بيضاء نظيفة.

سابعاً: تجُبُّ التوبة ما قبلها كما يجبُّ الإسلام ما قبله. قال تعالى ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم ﴾[4].

ويقول ﷺ (كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون)[5].

---

(1) سورة الضحى آية ٦. (2) سورة التوبة آية ١٢٨.

(3) سورة الذرايات آية ٢٢. (4) سورة الزمر آية ٥٣.

(5) أخرجه الترمذي في جامعه، كتاب صفة القيامة ٤/٦٥٩ (ح/٢٤٩٩) وقال الترمذي هذا حديث غريب لا نعرفه إلاّ من حديث علي بن مسعدة عن قتادة، وأخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب ذكر التوبة ٢/١٤٢٠ (ح/ ٤٢٥١).

ويجفل جافل من رؤية الدرس الماضي، فلابد له من تطمين بقبول توبته إذا تاب فتهدأ النفس التى تابت من ذنب مارسته، فتنطلق في تحقيق هدف الإسلام وهي تحس بندم الماضي، لكنها قد تجاوزته بالتوبة والإقبال على الله.

ثامناً: يتميز المسلم بمنهج أخلاقي متكامل يتعامل به مع الناس فالإسلام إنما جاء ليتممَّ مكارم الأخلاق، وصفات الأخلاق عند المسلم يتحدد من خلالها موقعه ومدى تأثيره فيما يحيط به من أحداث وأشخاص. لذا كانت صفة الصدق والأمانة بارزتان بروزاً أدهش عقول أعدائه، وأحدث لديهم تردداً عجيباً في مقاومته، حتى قال عتبة بن ربيعة.

يا معشر قريش، أبعد أن رأيتم الشيب في لحية محمد قلتم ساحر كاهن، وهو الصادق الأمين.

تاسعاً: مخالطة الناس:

يحتاج الداعية المسلم إلى معرفة أحوال الناس وطرائق معيشتهم وأساليب تفكيرهم، وما هى المؤثرات المحيطة بهم؟.

ومن ذلك سعة مداركه في هذا الجانب حتى لا يضيق أفقه، ويتحجم تفكيره عن إتخاذ الوسائل المناسبة للتعامل معهم.

ومن أهم عوامل هذا الإدراك السفر والانتقال، فإن فيه:-

إطلالة على النفس

فتعرف من خلاله قدراتها في الصبر والتحمل، وفي الإيثار والأخلاق الأخرى. بل إنها وهي تواجه الصعاب تتمرن من خلال تجربتها على المواجهة واتخاذ القرار المناسب للحال الذي تواجهه، وفي الوقت المناسب والمكافىء.

إطلالة على الأرض

بمعرفة ما أوجده الله فيها من إبداع في كل صقع فيها، وعلى أي حال كانت فيه.

قال تعالى ﴿ أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾[1].

إطلالة على الناس

بمعرفة عاداتهم وتقاليدهم، وطرائق ممارستهم للحياة، وكيفية معيشتهم وتعاملهم مع الآخرين، ومدى تقبلهم للمبادىء، وتطبيقها في حياتهم.

(١) سورة الحج آية ٤٦.

الوحي

البداية في غار حــراء

وفي غار حراء بدأت الحياة الحضارية والوجود الحقيقى لهذه الأمة. إذ نزل الوحى على محمد ﷺ وعمره أربعون سنة، في رمضان، حيث نزل عليه جبريل الأمين، عليه السلام(١).

قال تعالى ﴿ شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان.... الآية ﴾(٢).

والوحي اصطفاء من الله سبحانه وتعالى

قال تعالى ﴿ الله اعلم حيث يجعل رسالته ﴾(٣).

وإكرام منه وتفضل

قال تعالى ﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده... ﴾(٤).

تعريف الوحي

في اللغة: الإعلام الخفي السريع الخاص بمن يوجه إليه بحيث يخفى على غيره.

وفي الشرع: كلام الله تعالى المنزل على نبي من أنبيائه(٥).

والوحي إلى الرسل نوعان:

١ – بدون واسطة.

٢ – بواسطة.

أما الأول: بدون واسطة، فهو نوعان:–

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب مبعث النبي ﷺ ١٣٩٨/٣ (ح/٣٦٣٨). وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل باب في صفة النبي ﷺ ١٨٢٤/٤ – ١٨٢٧ (ح/٢٣٤٧).

(٢) سورة البقرة آية ١٨٥.

(٣) سورة الأنعام آية ١٢٤.

(٤) سورة النساء آية ١٦٣.

(٥) مباحث في علوم القران ٣٢ – ٣٣.

(أ) الرؤيا الصالحة في المنام

عن عائشة رضي الله عنها قالت: (أول ما بُدِئَ به رسولُ الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح)[1].

ومما يدل على أن الرؤيا الصالحة للأنبياء في المنام وحي يجب اتباعه ما جاء في قصة إبراهيم من رؤيا ذبحه لولده إسماعيل عليهما السلام.

قال تعالى ﴿فبشرناه بغلام حليم، فلما بلغ معه السعي قال يا بُنَي إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين، فلما أسلما وتلَّهُ للجبين، وناديناه أن يا إبراهيم، قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين، إن هذا لهو البلؤا المبين، وفديناه بذبح عظيم، وتركنا عليه في الآخرين، سلام على إبراهيم، كذلك نجزي المحسنين، إنه من عبادنا المؤمنين، وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين﴾[2].

ولو لم تكن هذه الرؤيا وحياً يجب اتباعه لما أقدم إبراهيم عليه السلام على ذبح ولده لولا أن منَّ الله عليه بالفداء من عنده.

(ب) ومنه الكلام الإلهي من وراء حجاب بدون واسطة يقظة لا مناما وهو ثابت لموسى عليه السلام.

قال تعالى ﴿ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك﴾[3].

وقال تعالى ﴿وكلم الله موسى تكليماً﴾[4].

كما ثبت التكلم على الأصح لرسولنا محمد ﷺ ليلة الإسراء والمعراج وهذا النوع هو القسم الثاني المذكور في الآية ﴿أو من وراء حجاب﴾[5].

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب كيف كان بدء الوحي ٤/١ (ح/٣). وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي ١٣٩/١ (ح/١٦٠).

(٢) سورة الصافات آيات ١٠١ - ١١٢.

(٣) سورة الأعراف آية ١٤٣.

(٤) سورة النساء آية ١٦٤.

(٥) سورة الشورى آية ٥١.

وأما الثاني: بواسطة جبريل ملك الوحي.

ويأتي على حالتين:-[1]

الأولى:- أن يأتي مثل صلصلة الجرس، وقد يكون الصوت صوت الملك وقد يكون صوت حفيف أجنحة الملائكة كما ورد (إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كالسلسلة على صفوان)[2].

الثانية:- أن يأتي بصورة رجل

وقد وردت الحالتان في حديث عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، كيف يأتيك الوحي؟

فقال رسول الله ﷺ (أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده علي، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول)[3].

قال تعالى: ﴿وما كان لبشر أن يُكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء إنه عليٌّ حكيم﴾[4].

* مجيء الوحي[5]

عن عائشة رضي الله عنها قالت

«..... فجاءه الملك فقال: اقرأ.

فقال له النبي: ما أنا بقارىء، فقال النبى فأخذني فغطني[6]، حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني.

---

(١) مباحث في علوم القرآن - القطان - ٣٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله (إلا من استرق السمع) ٤/١٧٣٦ - ١٧٣٧ (ح/٤٤٢٤) وغيره.

(٣) أخرجه البخاري في بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي ١/٤ (ح/٢)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب عرق النبي ﷺ في البرد وحين يأتيه الوحي ٤/١٨١٦ - ١٨١٧ (ح/٢٣٣٣).

(٤) سورة الشورى آية ٥١.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، في بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي ١/٤ (ح/٣).

(٦) غطني: أي ضمني.

فقال: اقرأ.

فقلت ما أنا بقاري».

فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد.

ثم أرسلني.

فقال ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق....﴾ حتى بلغ ﴿... مالم يعلم﴾[1].

* العودة فزعاً إلى البيت

فرجع بها ترجف بوادره حتى دخل على خديجة فقال:

زملّوني زملّوني، فزملوه حتى ذهب عنه الروع.

* موقف النظرة الصائبة من خديجة رضي الله عنها

«فقال: يا خديجة مالي؟ وأخبرها الخبر.

قال: قد خشيت على نفسي.

فقالت له:

كلا أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتَصْدُق الحديث وتحمل الكلّ وتَقري الضيف، وتُعين على نوائب الحق..

* طلب المعرفة من مصدرها يومئذ

ثم انطلقت به خديجة رضي الله عنها حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسعد بن عبدالعزى بن قصي – وهو ابن عم خديجة أخو أبيها – الذي سبق ذكره – وكان امرءاً تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب بالعبرانية من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي.

فقالت له خديجة: اسمع من ابن أخيك.

فقال ورقة: ابن أخي ماذا ترى؟

فأخبره النبي ﷺ ما رأى.

---

(١) سورة العلق آيات ١ – ٥.

فقال ورقة: هذا الناموس الذي أنزل على موسى.

* كلفة طريق الإيمان يُوضّحها ورقة

ثم قال ورقة:

يا ليتني فيها جذعاً، أكون حياً حين يخرجك قومك.

فقال رسول الله ﷺ أو مخرجيّ هم؟

قال ورقة: نعم.

لم يأت رجل قط بما جئت به إلا عُودي. وإن يدركني يومك، أنصرك نصراً مؤزراً[1].

---

(١) معانى المفردات

بوادره: جمع بادرة وهي لحمة بين المنكب والكتف.. زملوني: غطوني ولفوني بثوب.
الكلّ: الضعيف الذي لا يستقل بامره. تقري: اى تقدم له الطعام. نوائب: احداث الزمان ونوازله.
تنصر: أي دخل دين النصارى وتدين به. الناموس: الوحى. جذعاً: شاباً قوياً.
مؤزراً: قوياً صادقاً. والروع: الخوف.

الدروس والعبـر

أولاً: يعلم المؤمن أن الله هو الذي يختار رسله فيرسلهم إلى الناس فضلاً منه تعالى وكرماً، وأن جهد البشر لا دخل له في تحصيل الرسالة أو نزول الوحي.

قال تعالى **﴿وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسياً﴾**[1].

ثانياً: يخلو المؤمن مرة ومرة ليراجع من خلال تلك الخلوة متطلبات إيمانه ومستلزمات طريقه إلى ربه، لأن الخلوة ابتعاد عن متطلبات اللذة الجسدية، وفرصة للقلب عما يشغله عن الحق من أمور الدنيا ومتطلبات الحياة.

ثالثاً: تستقيم الحياة بالعلم والقراءة، فالعلم هو مفتاح الإصلاح الشامل للدنيا والآخرة.

إذ لا يصلح التصور العقدي لله تعالى وللكون والإنسان إلا بعلم راسخ، وإدراك تام.

ولا تصلح الحياة وتستقيم نظمها وأحوال الناس فيها إلا بعلم وفير وإبداع عظيم.

لذا كانت البداءة (باقراء) رغم أن مكة في وقتها تعج بالجاهلية الوثنية في التصور والممارسة اليومية للحياة (الشرك، الربا، الزنا، الظلم .... الخ) فكانت البداية تلك هي العلاج الناجع للإصلاح في كل جانب من جوانب تلك الحياة الجاهلية.

رابعاً: يحرص عقلاء الناس ونبلاؤهم على ممارسة الأخلاق الفاضلة المناسبة لإنسانية الإنسان التي تليق به، فالتمسك بتلك الأخلاق دليل كرامة ونبل يناله المتخلق بها، فلا يخيب مسعاه، ولا يضل طريقه، فهو في عز وفضل ما التزم بمحاسن السلوك ومارسها.

---

(١) سورة مريم آية ٦٤.

خامساً: تأتي النظرة المبصرة العاقلة في الرأي لتضع صاحبها في موقع متقدم على أقرانه. فهذه خديجة رضي الله عنها تُعطى النموذج القدوة لذلك. في رأي سديد، ونظرة متأنية لما المَّ بزوجها دون هلع أو خوف أو صراخ.

وهي قدوة لكل امرأة مؤمنة على طول التاريخ البشري كله.

سادساً: طريق الدعوات والرسالات هو طريق الجهاد والمعاناة والابتلاء والعقبات. ليحقق الله من خلاله الأجر الجزيل والمثوبة العظمى لسالكي تلك الطريق، فبجهد البشر يتحقق النصر لهذا الدين. إيماناً به، وتربية عليه، ووقوفاً في وجه أعدائه.

فالصراع بين الحق وأهله من جهة، وبين الباطل وأهله من الجهة الأخرى، مستمر باق، ولابد من التضحية بالوطن والأهل والمال والنفس في سبيل إقامة الحق ورفع راية لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ.

الدعوة السرية في مكة

بداية التبليغ

وبعد نزول قوله تعالى ﴿يا أيها المدثر قم فانذر، وربك فكبر....... الآيات﴾[1].

قام رسول الله ﷺ يدعو إلى الله وإلى الإسلام سراً، وكان طبيعياً أن يبدأ بأهل بيته، وأصدقائه، وألصق الناس به.

* إسلام السيدة خديجة رضي الله عنها

وكان أول من آمن به من النساء، بل أول من آمن به على الإطلاق زوجه السيدة خديجة رضي الله عنها ومن تأمل في حديث بدء الوحي لا يشك في هذا.

وكانت وزيرة صدق للنبي ﷺ، ومسرية عنه ما يجده من قومه، لا يسمع شيئاً يكرهه من رد عليه، وتكذيب له، فيحزنه ذلك إلا فرج الله عنه بها، إذا رجع إليها تثبته، وتخفف عنه وتصدقه، وتهون عليه أمر الناس[2].

* إسلام أبي بكر رضي الله عنه

وأول من آمن من الرجال الأحرار الأشراف صديقه الحميم أبوبكر عبدالله بن عثمان – المعروف بأبي قحافة التيمي – من بني تيم بن مرة. الوزير الأول لرسول الله ﷺ والذي واساه بنفسه وماله، وأفضل الأمة الإسلامية بعد رسولها محمد ﷺ.

وفيه قال رسول الله ﷺ: (إن الله بعثني إليكم فقلتم كذبت، وقال أبوبكر صدق، وواساني بنفسه وماله)[3].

* إسلام علي رضي الله عنه

وأول من آمن به من الصبيان ابن عمه، والمتربي في حجره علي بن أبي

---

(١) سورة المدثر آية ١ – وما بعدها.
(٢) الإصابة ٢٨١/٤.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ لو كنت متخذاً خليلاً ١٣٣٩/٣ (ح/٣٤٦٠).

طالب رضي الله عنه وكانت سنه إذ ذاك عشر سنين على أرجح الأقوال. وهو قول الطبري وابن إسحاق وقد صار فيما بعد ختن رسول الله ﷺ على ابنته السيدة فاطمة الزهراء، وهو أبوالحسن والحسين رضي الله عنهم.

* إسلام زيد بن حارثة رضي الله عنه

وأول من آمن به من الموالي حبه ومولاه، ومتبناه زيد بن حارثة الكلبي الذي آثر رسول الله ﷺ على والده وأهله(١).

* إسلام بلال رضي الله عنه

وأول من آمن به من العبيد بلال بن رباح الحبشي مولى الطاغية أمية بن خلف، والذي صار فيما بعد مؤذن رسول الله ﷺ.

* إسلام سعد رضي الله عنه

أسلم سعد بن أبي وقاص على يد أبي بكر رضي الله عنه، وكان يقول مكثت سبعة أيام وإني لثلث الإسلام(٢).

* بنات النبي ﷺ

وكذلك سارع إلى الإسلام بنات النبي ﷺ، لأنه لاشك في تمسكهن قبل البعثة بما كان عليه أبوهن من الاستقامة وحسن السيرة، والتنزه عما كان يفعله أهل الجاهلية، من عبادة الأصنام، والوقوع في الآثام، وفي اقتدائهن بأمهن في المسارعة إلى الإيمان روى ابن إسحاق عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما أكرم الله نبيه بالنبوة أسلمت خديجة، وبناته.

* أول من أسلم

وقد اختلف في أول من أسلم اختلافاً كثيراً فقيل: خديجة، وقيل أبوبكر وقيل: علي، وقيل غير ذلك. وذهب إلى كل قول فريق من العلماء.

---

(١) المصنف ٣٢٥/٥ من مرسل الزهري، وانظر تاريخ الطبري ٣١٦/٢ وقال في السيرة الذهبية ٣١٦/١ إسناده صحيح.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة باب مناقب سعد ١٣٦٤/٣ (ح/٣٥٢٠).

وفى الجمع بين الأقوال يرد قول الإمام أبي حنيفة النعمان رحمه الله وهو الذي عليه بعض المحققين كابن الصلاح، والنووي حيث قال: (والأورع أن يقال: أول من أسلم من الرجال الأحرار أبوبكر، ومن الصبيان علي، ومن النساء خديجة، ومن الموالي زيد، ومن العبيد بلال)[1].

وقد يكون السبب في عدم تحديد الأولوية المطلقة لمن أسلم أولاً كما يقول ابن كثير رحمه الله هو: أن المرحلة كانت سرية إذ يخفى عليهم من سبقهم إلى الإسلام فكل واحد يتكلم عن نفسه فقط ولا يعلم عن الآخرين جميعاً[2].

السابقون الأولون

* من أسلم من الصحابة بدعوة أبى بكر

وكان أبوبكر رضي الله عنه رجلا مألفاً[3] لقومه، محبباً سهلاً، وكان أنسب قريش لقريش وأعلم قريش بها، وبما كان فيها من خير وشر، وكان رجلاً تاجراً ميسوراً ذا خلق كريم، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لهذه المعاني والصفات وغيرها.

ولم يكتف بالمسارعة إلى الإيمان والتصديق بالنبي ﷺ بل قام بالدعوة إلى الإسلام سراً، وكان له فضل كبير في إسلام كثير من أشراف قريش وكبرائها فأسلم بدعوته جماعة منهم:

- عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي.
- الزبير بن العوام بن خويلد، بن أسد، بن عبد العزى، بن قصى بن كلاب ابن عمة النبي ﷺ صفية بنت عبدالمطلب.
- عبدالرحمن بن عوف بن عبدالحارث بن زهرة بن كلاب.
- سعد بن أبى وقاص واسمه: مالك بن أهيب، بن عبد مناف، بن زهرة بن كلاب.

---

(١) مقدمة ابن الصلاح بشرحها للعراقي/ ٢٦٦ – ٢٦٨؛ تدريب الراوي شرح التقريب/ ٢٠٨– ٢٠٩.
(٢) السيرة النبوية – لابن كثير – ٤٤٣/١.
(٣) يألفه الناس.

- طلحة بن عبيد الله بن عثمان، بن عمرو بن كعب، بن سعد، بن تيم، بن مرة.

فجاء بهم أبوبكر إلى رسول الله ﷺ حين استجابوا له، فأسلموا وأصبحوا من جنود الإسلام المخلصين لدعوته.

ولما أسلم الصديق وطلحة أخذهما نوفل بن خويلد بن العدوية - وكان يدعى أسد قريش فشدهما في وثاق واحد، ولم يمنعهما بنو تيم، فلذلك كان يقال لأبي بكر وطلحة القرينان.

وقد تتابع الدخول إلى دين الله من السابقين الأولين ممن يرد ذكر أسمائهم في المطولات من الكتب.

* دار الأرقم بن ابى الأرقم رضي الله عنه

جبروت الطاغوت في مكة، وطغيان الانحراف العقدي والسلوكي أجبر صاحبَ الدعوةِ محمداً ﷺ ومن آمن معه أن يمروا بمرحلة الدعوة السرية والنصيحة الفردية، والتربية الهادئة في دار انزوت بعيداً عن أعين المراقبة وبعدت عن طريق السالكين في جذع جبل الصفا مما يلي جبل ابى قبيس الكبير.

وكان اختيار الدار لميزة الموقع، ولميزة صاحبها، مكانة في قومه، وصغراً في سنه إذ يستبعد في أذهان الناس أن يأوي إلى داره من آوى من المسلمين.

لقد كانت هذه الدار - دار الأرقم بن أبى الأرقم - محضن تربية، ومعهد علم، ومجتمع تدريب، تربت فيه العصابة الأولى من المؤمنين، وترسخت فيه ثوابت القاعدة الصلبة التي تميزت على طول تاريخ الدعوة بسمات الإيمان والتضحية والفداء والفهم في كل موقع من مواقع العطاء.

حيث وجدت فرصة البناء التربوي، والأثر الدعوى بارزاً واضحاً في الاقتداء والتربية على يد محمد ﷺ فكان لها هذا الدور البارز في التاريخ الإسلامي الذى قام به عظماء التاريخ من المسلمين.

ولئن كانت المرحلة اقتضت الابتعاد عن صخب الصراع والمدافعة مع الباطل، إلا أنها كانت مرحلة البناء للإنسان وإعادة صياغته بعد أن بلغت به

الجاهلية من خلال ممارسته لها مبلغاً قلما يعود إلى الله من سلكه من البشر.

فنعم الدار دار التربية، ونعم القدوة محمد ﷺ لكل من يتولى تربية الناس وتعليمهم. ونعم المتعلم الذي تلقى فنفذ فكان خير حامل للمبدأ والهوية.

وقد مكث المسلمون مستخفين في دار الأرقم حتى أسلم عمر رضي الله عنه فخرجوا إلى المسجد الحرام في صفين معلنين بإسلامهم مظهرين له.

وكان ذلك الإعلان بناءً على طلب الصديق أبي بكر من رسول الله ﷺ وقد وصل عدد المسلمين حوالي ثمانية وثلاثين رجلاً - أن يظهروا ويستعلنوا فقال له: (يا أبا بكر إنا قليل) ولم يزل الصديق برسول الله ﷺ حتى أذن لهم في الخروج إلى المسجد الحرام، وتفرق المسلمون فيه كل رجل في عشيرته وقام أبوبكر في الناس خطيباً ورسول الله ﷺ جالس، فكان أول خطيب دعا إلى الله وإلى رسول الله ﷺ، وثار المشركون على أبي بكر والمسلمين فضربوا في نواحي المسجد ضرباً شديداً، ووطىء أبوبكر، وضرب ضرباً مبرحاً، وجعل عتبة بن ربيعة يضربه بنعلين ويحرفهما لوجهه حتى فقد وعيه فحمله بنو تيم إلى منزله، وقالوا لئن مات أبوبكر لنقتلن عتبة بن ربيعة، وجعل أبوقحافة والد الصديق وقومه يكلمونه حتى أفاق، وأجاب آخر النهار.

لقد كان أول ما قال: ما فعل رسول الله؟ فمسوه بألسنتهم وعذلوه فلما خلت به أمه قال لها: ما فعل رسول الله؟ فقالت: والله ما لي علم بصاحبك فقال: اذهبى إلى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه - وكانت تخفى إسلامها - فذهبت إليها وقالت: إن أبا بكر يسألك عن صاحبه محمد بن عبدالله؟

فقالت: ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبدالله!! وإن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك فعلت. قالت: نعم، فمضت معها حتى وجدت أبا بكر صريعاً دنفاً، فدنت منه أم جميل وصاحت قائلة: والله إن قوماً نالوا منك هذا لأهل فسق وكفر، وإني لأرجو أن ينتقم الله لك منهم، قال: فما فعل رسول الله؟ قالت: هذه أمك تسمع. قال: فلا شيء عليك منها، قالت: سالم صالح! قال: أين هو؟ قالت: في دار الأرقم. قال: فإن لله عليٍّ أن لا أذوق طعاماً، ولا شراباً، أو

اتي رسول الله ﷺ.

فامهلتاه حتى إذا هدأت الرجل[1] وسكن الناس خرجتا به يتكىء عليهما حتى أدخلتاه على رسول الله، فأكبَّ عليه رسول الله ﷺ فقبله، وقبله المسلمون، ورقَّ له رسول الله ﷺ رقة شديدة. فقال: بأبي أنت وأمي ليس بي بأس إلا ما نال الفاسق من وجهي، وهذه أمي برة بولدها، وأنت مبارك، فادعها إلى الله، وادع لها عسى الله أن يستنقذها بك من النار. فدعا لها رسول الله ودعاها إلى الله، فأسلمت[2].

(١) اي قل السائرون في الطريق.

(٢) البداية والنهاية ٣/٣٠.

الدروس والعبر

أولاً: يتحقق الخير لمن اقبل على هذا الدين وآمن بالله ورسوله محمد ﷺ فالدين للناس جميعا بفئاتهم وأنواعهم كافةً، وهذه هي ميزة الإنسانية في الإسلام فلا فرق بين الناس في قضية الإيمان والارتقاء في معارج التقوى وطاعة الله «إن أكرمكم عند الله أتقاكم».

ثانياً: يستدعى التخلى عن الجاهلية وموروثاتها شجاعة وعدم خوف من سلطانها وإيذائها لمن ترك طريقها واختار طريق المواجهة لها في تصوراتها وعاداتها وتقاليدها. حيث لا يتصور أن تسكت عن الحق وأهله.

ثالثاً: يستجيب للدعوة من كانت فطرته سليمة، وعقله مستقيم، ويبتعد عنها من عقم ذهنه، واختل عقله، وفسدت فطرته. لذا كانت ظاهرة الاستجابة في هذا النوع من أصحاب الصفاء الفطري أكبر وأعظم.

رابعاً: تبدأ الدعوات دائماً بالعدد القليل، وبالمستضعفين من الناس، ثم تكبر وترشد حتى يتحقق وعد الله بالنصر على العدو، والتمكين في الأرض.

الدعوة العلنية في مكة

التحدي والمواجهة لجاهلية مكة

* الجهر بالدعوة من على جبل الصفا

نزل قول الله عز وجل على رسوله الكريم محمد ﷺ
﴿وانذر عشيرتك الأقربين﴾[1].

فخرج حتى صعد الصفا فهتف

يا صباحاه، فاجتمعت إليه قريش.

فقال: «يا بني فلان، يا بني عبد مناف، يا بني عبدالمطلب، أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقي؟».

قالوا ما جربنا عليك كذباً.

قال: (فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد)[2].

- إعلان الدعوة اقتضى من رسول الله ﷺ وممن آمن معه أن يواجهوا المشركين، وكان ذلك بداية لتعرية الباطل وكشف مساوىء الجاهلية وتصوراتها عن الله وعن الكون والحياة.

وكانت الدعوة تتم في اتجاهات ثلاثة:-

الأول: بيان معنى الشرك بالله، وأن عبادة غير الله لا تفيد صاحبها. وتجعله من الخاسرين في الدنيا والآخرة، ومن أصحاب النار.

الثاني: بيان أن هناك يوماً آخر يُبعث فيه الناس بعد موتهم عالم الغيب، ليتم الجزاء إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

الثالث: محاربة السلوكيات الخاطئة، وبيان حكم الله في تعاملهم بها، فقد كانوا يمارسون أبشع الفواحش، كالظلم، والزنا، وشرب الخمر، وأكل الربا، وقتل الأنفس.

---

(١) سورة الشعراء آية ٢١٤.

(٢) تقدم تخريجه عند الحديث أن - سيرته دليل صدقة - وهو متفق عليه. البخارى (ح/٤٦٨٨) ومسلم (ح/٣٥٥).

* كانت ردة الفعل من مجتمع الجاهلية قوية وعنيفة، أنزلوا بسبب ذلك الأذى بالنبي ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم.

واتخذ الأذى صوراً شتى، أقصر الحديث على نماذج منها:

* إيذاء الرسول صلى الله عليه وسلم

ومن ذلك: - إيذاؤه نفسياً.

- إيذاؤه جسدياً.

أما الإيذاء النفسي فإليك بعض نماذجه:

(١) قال عمه أبولهب بعد أن استمع لقول النبي ﷺ من على جبل الصفا.

قال: تباً لك، أما جمعتنا إلاّ لهذا[١].

وظلم ذوي القربى أشدُّ غضاضة   على النفس من وقع الحسام المهند

(٢) وكان المشركون يسبون القرآن ومن أنزله إذا سمعوا النبي ﷺ يتلوه فأنزل الله ﴿ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا﴾[٢].

(٣) واجتمعوا ليقولوا فيه قولاً واحداً

قال ابن إسحاق:

«إن الوليد بن المغيرة اجتمع هو ونفر من قريش ليجمعوا على رأي ليواجهوا به أهل الموسم فقد قرب.

فقالوا: كاهن.

فقال لهم: ما هو بزمزمة الكهان.

فقالوا: نقول مجنون.

فقال: ما هو بمجنون، ولقد رأينا الجنون وعرفناه.

---

(١) تقدم - قبله - وهو متفق عليه. البخاري (ح/٤٦٨٨) ومسلم (ح/٣٥٥).

(٢) سورة الإسراء آية ١١٠.

والقصة أخرجها البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب ولا تجهر بصلاتك ١٧٤٩/٤ - ١٧٥٠ (ح/٤٤٤٥)، وأخرجها مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب التوسط في القراءة ٣٢٩/١ (ح/٤٤٦).

فقالوا: شاعر، فقال: ما هو بشاعر.

فقالوا: ساحر.

فقال: ما هو بساحر.

قالوا: فما تقول فيه يا أبا عبد شمس.

فقال: (فوالله ما منكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه ولا بقصيده مني، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، والله إن لقوله الذي يقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله وإنه ليعلو ولا يُعلى، وإنه ليحطم ما تحته).

ثم غلبت عليه شقوته فقال:

إن أقرب القول: أن نقول إنه ساحر[1].

فأنزل الله تعالى فيه:

﴿ذرني ومن خلقت وحيداً، وجعلت له مالاً ممدوداً، وبنين شهوداً، ومهدت له تمهيداً، ثم يطمع أن أزيد، كلا إنه كان لآياتنا عنيداً، سأرهقه صَعُوداً، إنه فكر وقدر، فقتل كيف قدر، ثم قتل كيف قدر، ثم نظر، ثم عبس وبسر، ثم أدبر واستكبر، فقال إن هذا إلا سحر يؤثر، إن هذا إلا قول البشر، سأصليه سَقَرَ وما أدراك ما سقر، لا تُبقي ولا تذر، لواحة للبشر، عليها تسعة عشر﴾[2].

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٥٠٧/٢، وقال صحيح على شرط البخاري ووافقه الذهبي.

(٢) سورة المدثر آيات ١١ – ٣٠. والمفردات من السيرة النبوية في ضوء الكتاب والسنة ٣١٠/١.

(وحيداً) كان الوليد يسمى وحيد قريش لشرفه ورياسته وغناه فهو تهكم به، وقيل: وحيداً بلا مال ولا ولد، فأنعمت عليه بهما ففيه تبكيت له.

(ممدوداً:) كثيراً ممتداً من الزروع والضروع.

(شهوداً:) يحضرون معه المشاهد والمحافل، قيل: كانوا عشرة وقيل: ثلاثة عشر أسلم بعضهم.

(ومهدت له تمهيداً): أي بسطت له الجاه العريض، والرئاسة في قومه.

(كلا:) كلمة زجر وردع وقطع لرجائه وطمعه.

(صعوداً:) عذاباً شاقاً.

(فقتل كيف قدر): تعجيب من تقديره الفاسد، ومقالته الشنعاء، وهو تهكم بهم وبإعجابهم بتقديره، واستعظامهم لقوله، تقول العرب: قاتله الله ما أشجعه، وأخزاه ما أشعره، وغرضهم الإشعار بأنه قد بلغ المبلغ الذي هو حقيق بأن يحسد، ويدعو عليه حاسده بذلك.

(عبس:) قطّب وجهه.

(بسر:) أي زاد وجهه عبوساً وتقطيباً.

(لواحة للبشر:) تلفح الجلد لفحاً شديداً فتدعه أسود من السواد.

(عليها تسعة عشر:) يعني من الملائكة الأشداء، يجوز أن يراد حقيقة العدد، وأن يراد التكثير.

(٤) وكانوا يسمونه مذمماً بدل محمداً احتقاراً له.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ

(الا تعجبون كيف يصرف الله عني شتم قريش ولعنهم، يشتمون مذمماً ويلعنون مذمماً، وأنا محمد)[1].

واما الإيذاء الجسدي

(١) سأل عروة بن الزبير عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما فقال:

أخبرني بأشد ما صنع المشركون برسول الله ﷺ.

قال: بينما رسول الله ﷺ يصلي بفناء الكعبة إذ اقبل عقبة بن أبي مُعيط فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ ولوى ثوبه في عنقه، فخنقه خنقاً شديداً، فاقبل أبوبكر فأخذ بمنكبه ودفع عن رسول الله ﷺ وهو يتلو قول الله تعالى: ﴿ اتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم ﴾[2].

(٢) وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال:

(بينما رسول الله ﷺ قائم يُصلى عند الكعبة، وجمع من قريش في مجالسهم، إذ قال قائل منهم. ألا تنظرون إلى هذا المرائي؟

ايكم يقوم إلى جزور آل فلان، فيعمد إلى فرثها ودمها وسلاها، فيجيء به، ثم يمهله حتى إذا سجد وضعه بين كتفيه؟

فانبعث أشقاهم

فلما سجد رسول الله ﷺ وضعه بين كتفيه، وثبت النبي ﷺ ساجداً.

فضحكوا حتى مال بعضهم إلى بعض من الضحك.

فانطلق منطلق إلى فاطمة رضي الله عنها - وهي جويرية - فاقبلت

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب ما جاء في أسماء النبي ﷺ ٣/١٢٩٩ - ١٣٠٠ (ح/٣٣٤٠).

(٢) سورة غافر آية ٢٨. والقصة أخرجها البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب ما لقي النبي ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم من المشركين ٣/١٤٠٠ (ح/٣٦٤٣).

تسعى، وثبت النبي ﷺ حتى ألقته عنه، وأقبلت عليهم تسبهم.

فلما قضى رسول الله ﷺ الصلاة. قال: اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش[1].

وقد حاولوا قتله وما قدروا.

(٣) قال أبوجهل مرة لقريش:

هل يعفّر[2] محمد وجهه بين أظهركم؟

فقيل: نعم.

فقال: واللات والعزى، لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته، أو لأعفرنَّ وجهه في التراب.

فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي، زعم ليطأ على رقبته. قال فما فجئهم[3] منه إلا وهو ينكص[4] على عقبيه ويتقي بيديه.

قال فقيل له: مالك؟!

فقال لهم: إن بيني وبينه لخندقاً من نار وهولاً وأجنحة.

فقال رسول الله ﷺ لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً[5].

(٤) وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال:

إن الملأ من قريش اجتمعوا في الحجر، فتعاهدوا باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى.

لو قد رأينا محمداً قمنا إليه قيام واحدٍ، فلم نفارقه حتى نقتله.

(١) ورد عند البخاري ومسلم انه (عقبة بن ابي معيط)، انظر صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب ما لقي النبي ﷺ من اذى المشركين ١٣٩٩/٣ (ح/٣٦٤١)، واخرجه مسلم في صحيحه كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من اذى المشركين والمنافقين ١٤١٨/٣ (ح/١٧٩٤).

(٢) اي يسجد ويلصق وجهه بالعفر وهو التراب.

(٣) بغتهم.

(٤) اي رجع يمشي على ورائه.

(٥) اخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفات المنافقين واحكامهم باب قوله (إن الإنسان ليطغى) ٢١٥٤/٤ (ح/٢٧٩٧).

فاقبلت فاطمة تبكي حتى دخلت على ابيها.

فقالت: هؤلاء الملأ من قومك في الحجر قد تعاهدوا أن لو قد رأوك قاموا إليك فقتلوك، فليس منهم رجل إلا قد عرف نصيبه من دمك.

قال: يا بنية أدني وضوءاً، فتوضأ، ثم دخل عليهم المسجد، فلما رأوه قالوا هذا هو، فخفضوا أبصارهم، وعَقِروا في مجالسهم فلم يرفعوا إليه أبصارهم، ولم يقم منهم رجل، فأقبل رسول الله ﷺ حتى قام على رؤوسهم فأخذ قبضة من تراب فحصبهم بها، وقال: شاهت الوجوه. قال: فما أصابت رجلاً منهم حصاة إلا قد قتل يوم بدر كافراً[1].

لقد أجمل النبي ﷺ ما لقيه من أذى قريش بقوله:

(لقد أُخفت في الله عز وجل وما يُخاف أحد، ولقد أوذيت في الله وما يؤذى أحد، ولقد أتت عليَّ ثلاثون من بين يوم وليلة ومالي ولا لبلال طعام يأكله ذو كبد إلا شيء يواريه إبط بلال)[2].

* إيذاء أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم

ويتنوع ذلك ويتعدد على مدى الزمن وطول الطريق فلعلَّ نماذج من ذلك تُبين المراد وتحقق المقصود. فمن ذلك:-

* الإيذاء الجسدي

- وكان من ذلك ما حدث لبلال رضي الله عنه فعندما علم أمية بن خلف بإسلامه عذبه وآذاه. ولم يستسلم بلال رضي الله عنه وهانت عليه نفسه في الله، فكانوا يخرجونه ويطوفون به شعاب مكة على حرِّ الصحراء، ويضعون الصخر على صدره، وهو يردد: أحد، أحد، أحد[3]. ثم اشتراه أبوبكر رضي الله عنه وأعتقه[4].

(١) أخرجه أحمد في المسند ١/٣٠٣ - والمستدرك ٣/١٥٧. وقال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه أحمد ٣/٢٨٦ - والترمذي ٤/٦٤٥ (ح/٢٤٧٢) وقال هذا حديث حسن غريب.

(٣) أخرجه أحمد في المسند ١/٤٠٤ - بإسناد حسن.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب بلال ٣/١٣٧١ (ح/٣٥٤٤).

- وما حدث لزنيرة رضي الله عنها فقد ذهب بصرها وهي تأبى إلا الإسلام فقال المشركون: ما أصاب بصرها إلا اللات والعزى، فقالت: كذا؟ والله ما هو كذلك، فردّ الله عليها بصرها[1].

* **القتل والتصفية**

- وهذه الأسرة الياسرية: عمار بن ياسر، وأبوه ياسر، وأمه سمية بنت خباط مولاة أبي حذيفة بن المغيرة، وكان ياسر حليفاً له فزوجه سمية، فولدت له عماراً، فأعتقه، وكان بنومخزوم يخرجون بهم إذا حميت الظهيرة يعذبونهم برمضاء مكة، ويلبسونهم دروع الحديد المحماة بالنار، فما وهنوا ولا استكانوا، وكان يمر بهم رسول الله ﷺ وهم يعذبون، فما يملك لهم إلا أن يحثهم على الثبات والصبر، فيقول: (صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة)[2].

ولما اشتكى له عمار قائلاً: يا رسول الله بلغ منا العذاب كل مبلغ، فقال له: (اصبر أبا اليقظان، اللهم لا تعذب من آل ياسر أحداً بالنار). ومرّ أبوجهل اللعين بسمية، وهي تعذب في الله، فطعنها بحربة في ملمس العفة منها فماتت، فكانت أول شهيدة في الإسلام![3] ثم لم يلبث أبوه أن توفي تحت وطأة العذاب!!.

ويطول العذاب بعمار حتى كان لا يدري ما يقول، فيظهر كلمة الكفر على لسانه وقلبه مطمئن بالإيمان، ويجيء عمار - وهو يبكي - إلى رسول الله ﷺ فقال له (ما وراءك)؟ قال: شرٌ يا رسول الله: نلتُ منك، وذكرت آلهتهم بخير قال: (كيف وجدت قلبك)؟ قال: (مطمئناً بالإيمان)، فجعل النبي ﷺ يمسح عينيه بيده، ويقول له: (إن عادوا لك فعُدْ لهم بما قلت)!!

ولهج بعض الناس بأن عماراً كفر، ولكن رسول الله ﷺ الذي لا ينطق

---

(١) السير والمغازي لابن إسحاق ١٩١ من مرسل عروة.
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ٣٨٨/٣ وقال صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.
(٣) أخرجه أحمد في المسند ٤٠٤/١ من مرسل مجاهد، وانظر الاصابة ٣٣٤/٤.

عن الهوى صدع بالحق فقال: (كلا إن عماراً مُلىء إيماناً من مفرق راسه إلى أخمص قدمه، واختلط الإيمان بلحمه ودمه)!!.(1)

ثم ينزل الوحي بشهادة السماء على صدق إيمان عمار.

قال تعالى: ﴿ من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكْرِهَ وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم ﴾(2).

فكانت الآية إعذاراً لهؤلاء المعذبين في الله بأن لا حرج عليهم إن جاروا الكفار بطرف اللسان، ما دام القلب عامراً بالإيمان، ورخصة يترخص بها من خاف على نفسه الهلاك.

- ومن المعذبين فى الله عامر بن فُهَيْرة(3) اسلم قديماً، وصحب النبي ﷺ والصديق فى الهجرة يخدمهما، وشهد بدراً وأحداً، وقتل يوم بئر معونة شهيداً.

* اخذ المال ومصادرته

- ولما اراد صهيب رضي الله عنه أن يهاجر قال له كفار قريش: أتيتنا صعلوكاً حقيراً فكثر مالك، وبلغت الذي بلغت، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك، والله لا يكون ذلك، فقال لهم: ارأيتم إن جعلت لكم مالي اتخلُّون سبيلي؟ قالوا: نعم، قال: فإني جعلت لكم مالي، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: (ربح صهيب، ربح صهيب)(4).

وروى الإمام البيهقي بسنده قصة هجرة صهيب على نحو آخر قال: قال صهيب: خرج رسول الله ﷺ وخرج معه أبوبكر، وكنت قد هممت معه بالخروج، فصدني فتيان من قريش، فجعلت ليلتي تلك اقوم لا اقعد، فقالوا: قد

---

(1) زاد المعاد ٤/٤٩٥، وانظر تعليق الألباني على فقه السيرة للغزالي ص/١٠٨.
(2) سورة النحل آية ١٠٦.
(3) بضم الفاء وفتح الهاء وإسكان الياء، وهي امه. انظر الإصابة ٢/٢٥٦.
(4) الإصابة ٢/١٩٥.

شغله الله عنكم ببطنه – ولم أكن شاكياً –(1)، فناموا فخرجت منهم يعني متسللاً، فلحقني أناس بعدما سرت يريدون ليردوني، فقلت لهم: إن أعطيتكم أواقيٌ من ذهب تخلوا سبيلي وتوفون لي؟ ففعلوا، فتبعتهم إلى مكة فقلت: احفروا تحت أسكفة(2) الباب، فإن بها أواقي، واذهبوا إلى فلانة فخذوا الحلتين، وخرجت حتى قدمت على رسول الله ﷺ بقباء قبل أن يتحول عنها فلما رآني قال: (يا أبا يحيى ربح البيع)، فقلت يا رسول اله ما سبقني إليك أحد، وما أخبرك إلا جبريل عليه السلام(3).

– وما حدث لخباب رضي الله عنه فقد كان يعمل حداداً، فعمل للعاص بن وائل سيفاً، فاجتمع له عنده مال، فذهب يتقاضاه.

فقال العاص: لا أقضيك حتى تكفر بمحمد.

فردّ عليه خباب: حتى تموت ثم تبعث.

فقال العاص ساخراً بأنه سيقضيه يوم القيامة من ماله(4). فنزلت الآية ﴿ أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالاً وولداً ﴾(5).

* تفريق شمل الأسرة الواحدة

وكان ذلك ما حدث لآل أبي سلمة رضوان الله عليهم

قالت أم سلمة رضي الله عنها «لما أجمع أبوسلمة الخروج إلى المدينة رحّل لي بعيره، ثم حملني عليه، وحمل معي ابني سلمة بن أبي سلمة في حجري، ثم خرج بي يقود بعيره، فلما رأته رجال بني المغيرة بن عبدالله بن عمرو بن مخزوم قاموا إليه فقالوا: هذه نفسك غلبتنا عليها، أرأيت صاحبتنا هذه علام نتركك تسير بها في البلاد؟

---

(1) يعني أنه تعمد ذلك، ولم يكن به مرض كي يفلت منهم.

(2) عتبة الباب.

(3) أخرجه الحاكم في المستدرك ٣/٤٠٠ وصححه، وأقره الذهبي.

(4) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الإجارة، باب هل يؤاجر الرجل نفسه من مشرك ٢/٧٩٥ (ح/٢١٥٥) وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفات المنافقين، باب سؤال اليهود عن الروح ٤/٢١٥٣ (ح/٢٧٩٥).

(5) سورة مريم آية (٧٧).

قالت: فنزعوا خطام البعير من يده فأخذوني منه.

قالت: وغضب عند ذلك بنو عبدالأسد رهط أبي سلمة، قالوا: لا والله لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا.

قالت: فتجاذبوا ابني سلمة بينهم حتى خلعوا يده، وانطلق به بنو عبدالأسد، وحبسني بنو المغيرة عندهم، وانطلق زوجي أبوسلمة إلى المدينة.

قالت: ففرق بيني وبين زوجي وبين ابني.

قالت: فكنت أخرج كل غداة فأجلس بالأبطح، فما أزال أبكي حتى أمسي سنة أو قريباً منها. حتى مرّ بي رجل من بني عمي - أحد بني المغيرة - فرأى ما بي، فرحمني، فقال لبني المغيرة: ألا تخرجون هذه المسكينة فرقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها؟

قالت: فقالوا: الحقي بزوجك إن شئت.

قالت: وردّ بنو عبد الأسد إليّ عند ذلك ابني.

قالت: فارتحلت بعيري، ثم أخذت ابني فوضعته في حجري، ثم خرجت أريد المدينة.. القصة»(١).

* عروض مغرية وأساليب احتواء

وقد بذلت الجاهلية عروضاً مغرية، ومارست أساليب احتواء لرسالة محمد ﷺ. والمتأمل لتلك العروض يرى أنها بدأت بمحاولة التخلص من صاحب الرسالة، وانتهت بمحاولة احتوائه. ومن ذلك:-

* عرض قريش على أبي طالب المبادلة بعمارة بن الوليد

إن قريشا حين عرفوا أن أبا طالب قد أبى خذلان رسول الله ﷺ وتسليمه لأحد، وإجماعه لفراقهم في ذلك، وعداوتهم، مشوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة، فقالوا له: يا أبا طالب، هذا عمارة بن الوليد، أنهد[٢] فتى في قريش، وأجمله، فخذه فلك عقله ونصره، واتخذه ولداً فهو لك، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا، الذي قد خالف دينك، ودين آبائك، وفرق جماعة قومك، وسفه

---

(١) السيرة النبوية ابن هشام ٤٦٩/١ - ٤٧٠. وسنده صحيح.

(٢) أشد وأقوى.

أحلامهم، فنقتله!!

فقال أبوطالب: والله لبئس ما تسوموننى!! أتعطوني ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابني تقتلونه؟! هذا والله لن يكون أبداً.

فقال المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف بن قصي: والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك، وجهدوا على التخلص مما تكرهه، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئا!!

فقال أبو طالب للمطعم: والله ما أنصفوني، ولكنك قد أجمعت خذلاني ومظاهرة الناس عليَّ، فاصنع ما بدا لك[1].

وكانوا قبل عرضهم هذا الأحمق عليه قد جاؤوا إليه وكلموه عن محمد ﷺ.

* وقد لجأت قريش إلى مفاوضة أبي طالب عم الرسول ﷺ ليكفه عن دعوته.

قال عقيل بن أبي طالب وهو شاهد عيان مشارك في الحدث «جاءت قريش إلى أبي طالب، فقالوا: إن ابن أخيك هذا قد آذانا في نادينا ومسجدنا فانهه عنا. فقال: يا عقيل، انطلق فائتني بمحمد ﷺ فانطلقت إليه فاستخرجته من كبسي – بيت صغير – فجاء به في الظهيرة في شدة الحر، فجعل يطلب الفيء يمشي فيه من شدة الحر، فلما أتاهم قال أبوطالب: إن بني عمك هؤلاء قد زعموا أنك تؤذيهم في ناديهم ومسجدهم فانته عن أذاهم. فحلّق رسول الله ﷺ ببصره إلى السماء فقال: (أترون هذه الشمس؟) قالوا: نعم. قال: (فما أنا بأقدر على أن أدع ذلك منكم على أن تستشعلوا منها شعلة).

فقال أبوطالب: والله ما كذبنا ابن أخي فارجعوا[2].

وقد اشتد الضغط على الرسول ﷺ واتباعه بعد فشل هذه المفاوضات.

ثم قام أبوطالب حين رأى قريشاً يصنعون ما يصنعون بالمسلمين، في بني هاشم وبني المطلب، فدعاهم إلى ما هو عليه من منع رسول الله ﷺ

(١) السيرة النبوية ٢٦٦/١ – ٢٦٧.
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ٥٧٧/٣، وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة ١٤٧/١ وحسنه.

والقيام دونه، فاجتمعوا إليه، وقاموا معه، وأجابوه إلى ما دعاهم إليه، إلا ما كان من أبي لهب عم النبي ﷺ[1].

* الإغراء بدل الإيذاء

ورأت قريش وقد عزَّ عليها أن لا يكف النبي ﷺ عما يقول بالإيذاء والفتنة والسعي إلى عمه أبي طالب، بل والإيذان بالحرب والمنابذة - أن تلجأ إلى سياسة الملاينة، والإغراء بالمال، أو الجاه، أو الملك والسلطان ظناً منهم أنه ربما يغريه بريق هذه العروض.

روى ابن إسحاق في سيرته عن محمد بن كعب القرظي قال: حدثت أن عتبة بن ربيعة - وكان سيداً حليماً - قال ذات يوم، وهو جالس في نادي قريش ورسول الله ﷺ جالس وحده في المسجد الحرام: يا معشر قريش الا أقوم إلى هذا فأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها، ويكف عنا؟

قالوا: بلى يا أبا الوليد.

فقام عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ

فقال: يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من البسطة[2] في العشيرة والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم وسفَّهت به أحلامهم، وعبتَ به آلهتهم ودينهم، وكفَّرت من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها.

فقال رسول الله ﷺ (قل يا أبا الوليد اسمع).

قال: يا ابن أخي إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً[3] تراه لا تستطيع ردَّه عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢٧٢/١ - ٢٨٠، البداية والنهاية ٥٣/٣ - ٥٧، وانظر السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة (٣٠٢/١ - ٣٠٦).

(٢) الخيار والوسط.

(٣) الرَّئيّ كغني التابع من الجن.

حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه.

حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه.

قال: (أقد فرغت يا أبا الوليد؟).

قال: نعم.

قال: (فاسمع مني).

قال: أفعل.

فقال: ﴿ حم، تنزيل من الرحمن الرحيم، كتاب فصلت آياته قرءاناً عربياً لقوم يعلمون، بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون، وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقرٌ ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون، قل إنما أنا بشرٌ مثلكم يوحى إليَّ أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين....... الآيات ﴾[1].

ومضى رسول الله ﷺ يقرؤها، فلما سمعها عتبة أنصت إليها، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع منه، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد، ثم قال: (قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك)!!

وفي رواية للبيهقي، أن رسول الله ﷺ لما بلغ قوله تعالى:
﴿ فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عادٍ وثمود... ﴾.

أمسك عتبة بفيه، وناشده الله والرحم أن يكف عنه!!

ولا عجب فقد استولى على نفس عتبة ما سمعه من هذا الكلام الفصيح البليغ، حتى استند على يديه واستغرق في التأمل، وهو العربي الأصيل، وحتى خيل إليه حين يسمع هذا الإنذار أن العذاب واقع به وبهم. كيف لا والذي ينطق به محمد الصادق الأمين ﷺ.

* ما أشار به عتبة على قريش

وعندما سمع عتبة ما سمع قام ورجع إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض

(١) سورة فصلت آيات ١ – ١٣.

نحلف بالله لقد جاءكم أبوالوليد بغير الوجه الذي ذهب به[1]، فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني سمعت قولاً - والله - ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش أطيعوني، واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ، فإن تصبه العرب فقد كُفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزّه عزكم، وكنتم أسعد الناس به، قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه!! قال: هذا رأيي، فاصنعوا ما بدا لكم.

وقد ظلنوا إثماً وزوراً، فما كان رسول الله صلوات الله وسلامه عليه طالب ملك، ولا راغباً في مال، ولا ناشداً جاهاً ولا سلطاناً، وإنما هو نبي يُوحى إليه من ربه، ومبلغ رسالة، ومنشىء أمة، ومنقذ البشرية من التردي في هوة سحيقة، وصانع تاريخ، ومؤصل حضارة، إنها لشهادة حقة، لأنها من عدو لم يؤمن بالقرآن، وإنما آمن بسلطان اللغة والبيان[2].

* حصار قريش لمحمد ﷺ ومن والاه[3]

ورد بأسانيد مختلفة عن موسى بن عقبة، وعن ابن إسحاق، وعن غيرهما أن كفار قريش أجمعوا أمرهم على قتل رسول الله ﷺ، وكلموا في ذلك بني هاشم وبني المطلب، ولكنهم أبوا تسليمه ﷺ إليهم.

فلما عجزت قريش عن قتله ﷺ اجمعوا على منابذته ومنابذة من معه من المسلمين ومن يحميه من بني هاشم وبني المطلب، فكتبوا بذلك كتاباً تعاقدوا فيه على ألا يناكحوهم، ولا يبايعوهم، ولا يدعوا سبباً من أسباب الرزق يصل إليهم، ولا يقبلوا منهم صلحاً ، ولا تأخذهم بهم رأفة، حتى يُسَلِّمَ بنو المطلب رسول الله ﷺ إليهم للقتل، وعلقوا الكتاب في جوف الكعبة.

---

(١) هذا من بديع الكلام الدال على علم بالنفس البشرية، وظهور ما يكون بالنفس على قسمات الوجه. السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة ٣٠٦/١.

(٢) تفسير ابن كثير ٨٢/٤، ودلائل النبوة للبيهقي ٢٠٢/٢ - ٢٠٤ والسيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة ٣٠٦/١.

(٣) مغازي عروة/١١٤ - ١١٦ بتحقيق الأعظمي، وهو موقوف على عروة.

فجهد النبي ﷺ والمسلمون جهداً شديداً في هذه الأعوام الثلاثة واشتد عليهم البلاء، وفي الصحيح أنهم جهدوا حتى كانوا يأكلون الخبط وورق الشجر، وذكر السهيلي أنهم كانوا إذا قدمت العير مكة، يأتي أحد أصحاب رسول الله ﷺ إلى السوق ليشتري شيئاً من الطعام يقتاته لأهله، فيقوم أبولهب فيقول: يا معشر التجار غالوا على أصحاب محمد حتى لا يدركوا شيئاً معكم، فيزيدون عليهم في السلعة قيمتها أضعافاً، حتى يرجع إلى أطفاله وهم يتضاغون من الجوع وليس في يده شيء يعللهم به.

فلما كان على رأس ثلاث سنين من بدء هذا الحصار، تلاوم قوم من بني قصي، فأجمعوا أمرهم على نقض ما تعاهدوا عليه، وأرسل الله على صحيفتهم التي كتب فيها نص المعاهدة الأرضة، فأتت على معظم ما فيها من ميثاق وعهد، ولم يسلم من ذلك إلا الكلمات التي فيها ذكر الله عزوجل.

وقد أخبر بذلك رسول الله ﷺ عمه أبا طالب، فقال له أبوطالب: أربك أخبرك بذلك؟ قال: نعم، فمضى في عصابة من قومه إلى قريش، فطلب منهم أن يؤتوه بالصحيفة موهماً إياهم أنه نازل عند شروطهم فجاءوا بها وهي مطوية، فقال أبوطالب: إن ابن أخي قد أخبرني، ولم يكذبني قط، أن الله تعالى قد سلط على صحيفتكم التي كتبتم الأرضة فأتت على كل ما كان فيها من جور وقطيعة رحم، فإن كان الحديث كما يقول فأفيقوا وارجعوا عن سوء رأيكم، فوالله لا نسلمه حتى نموت من عند آخرنا، وإن كان الذي يقول باطلاً دفعنا إليكم صاحبنا ففعلتم به ما تشاؤون، فقالوا: قد رضينا بالذي تقول. ففتحوا الصحيفة فوجدوا الأمر كما أخبر الصادق المصدوق ﷺ فقالوا: هذا سحر ابن أخيك!.. وزادهم ذلك بغياً وعدواناً.

ثم إن خمسة من رؤساء المشركين من قريش، مشوا في نقض الصحيفة وإنهاء هذا الحصار وهم: هشام بن عمرو بن الحارث، وزهير بن أمية، والمطعم ابن عدي، وأبوالبختري بن هشام، وزمعة بن الأسود.

وكان أول من سعى إلى نقضها بصريح الدعوة زهير بن أمية، أقبل على الناس عند الكعبة فقال: يا أهل مكة، أنأكل الطعام، ونلبس الثياب وبنو هاشم

والمطلب هلكى لا يباعون ولا يبتاع منهم؟... والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة.

ثم قال بقية الخمسة نحواً من هذا الكلام. ثم قام المطعم بن عدي إلى الصحيفة فمزقها، ثم انطلق هؤلاء الخمسة، ومعهم جماعة، إلى بني هاشم وبني المطلب ومن معهم من المسلمين فأمروهم بالخروج إلى مساكنهم.

* عام الحزن

فقدان الحماية الخارجية للنبي ﷺ

وذلك بموت أبي طالب عمه الذي كان يحميه ويرد عنه كيد قريش، وذلك في السنة العاشرة من بعثة النبي ﷺ[1].

روى البخاري أن أبا طالب لما حضرته الوفاة دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبوجهل.

فقال: (أي عم، قل لا إله إلا الله كلمة أحاجُّ لك بها عند الله).

وفي رواية (أشهد لك بها عند الله).

فقال أبوجهل وعبدالله بن أمية: يا أبا طالب ترغب عن ملة عبدالمطلب، فلم يزالا يكلمانه حتى قال آخر شيء كلمهم به هو على ملة عبدالمطلب.

فقال النبي ﷺ (لأستغفرنَّ لك ما لم أنْهَ عنك).

فأنزل الله: ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء﴾[2].

* فقدان المعونة والرعاية الداخلية

لقد ماتت في نفس العام خديجة بنت خويلد رضي الله عنها أم المؤمنين زوج النبي ﷺ أم أولاده، ومعينته في طريقه، ومخففة آلامه[3].

---

(١) أخرجه مسلم ٥٤/١ (ح/٢٤) وانظر فتح الباري ١٩٤/٧.

(٢) سورة القصص آية ٥٦، أما القصة فأخرجها البخاري في صحيحه كتاب مناقب الأنصار، باب قصة أبي طالب ١٤٠٩/٣ (ح/٣٦٧١) ومسلم ٥٤/١ (ح/٢٤).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب تزويج النبي ﷺ عائشة ١٤١٥/٣ (ح/٣٦٨٣).

قالت له خولة بنت حكيم رضي الله عنها يا رسول الله كأني أراك قد دخلتك خَلّة[1]، قال: (أجل، كانت أم العيال ، وربة البيت)[2].

وكانت إقامتها معه خمساً وعشرين سنة على الصحيح، وقد أفنى زهرة الشباب معها.

«وقد يظن بعض الناس ويحسبون أن سبب تسمية الرسول ﷺ لهذا العام عام الحزن إنما هو مجرد فقده ﷺ لعمه أبي طالب وزوجته خديجة بنت خويلد، وربما استساغوا إقامة علائم الحزن والحداد على موتاهم مدة طويلة من الزمن مستدلين بهذا. والواقع أن هذا خطأ في الفهم والتقدير.

فالنبي ﷺ لم يحزن على فراق عمه وفراق زوجه ذلك الحزن الشديد، ولم يطلق على تلك السنة، عام الحزن، لمجرد أنه فقد بعض أقاربه فاستوحش لفقدهم. بل بسبب ذلك ما أعقب وفاتهما من انغلاق معظم أبواب الدعوة الإسلامية في وجهه، فقد كانت حماية عمه له تترك مجالات كثيرة للدعوة وسبلاً مختلفة للتوجيه والإرشاد والتعليم.. وكان يرى في ذلك بعض النجاح في العمل الذي أمره به ربه.

أما بعد وفاته، فقد سُدّت في وجهه تلك المجالات. فمهما حاول وجد صداً وعدواناً. وحيثما ذهب وجد السبل مغلقة في وجهه. فيعود بدعوته كما ذهب بها، لم يسمعها أحد ولم يؤمن بها أحد. بل الكل ما بين مستهزئ ومعتد، ومتهكم به. فيحزنه أن يعود وهو لم يأت من الوظيفة التي كلفه الله بها بنتيجة، فمن أجله سمي ذلك العام عام الحزن.

بل لقد كان حزنه على أن لا يؤمن الناس بالحق الذي جاء به، شيئاً غالباً على نفسه، في أكثر الأحيان، ومن أجل تخفيف هذا الحزن عليه كانت تنزل الآيات مواسية له ومسلية، ومذكّرة إياه بأنه ليس مكلفاً بأكثر من التبليغ، فلا داعي إلى أن يذهب نفسه عليهم حسرات إذا لم يستجيبوا ولم يؤمنوا. استمع

---

(١) حاجة وحزن بسبب الفراغ الذي تركته خديجة رضي الله عنها بموتها.

(٢) قال ابن حجر رحمه الله في فتح الباري ٧/٢٢٥ بلفظ فيه عرض خولة رضي الله عنها على النبي ﷺ أن يتزوج، وقال أخرجه أحمد والطبراني بإسناد صحيح.

مثلاً إلى هذه الآيات:

﴿قد نعلم إنه ليَحزُنُكَ الذي يقولون، فإنهم لا يكذّبونك، ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون، ولقد كُذِّبتْ رسل من قبلك فصبروا على ما كُذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين، وإن كان كَبُرَ عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغي نفقاً في الأرض أو سلّماً في السماء فتأتيهم بآية، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين﴾[1]، [2].

(١) سورة الأنعام آية ٣٣ – ٣٥.
(٢) فقه السيرة د. البوطي ١٣٥ – ١٣٦.

الدروس والعبر

أولاً : يستخدم الداعية الوسائل والأساليب ذات الكفاءة لتوصيل كلمة الحق إلى أكبر عدد من الناس، حتى يتمكن من جمعهم، وإيصال كلمته إليهم فتكون عملية التبليغ في تمامها وكمالها.

ثانياً: يُدرك المؤمن أن الإسلام هو دين الوحدانية - لا إله إلا الله - في كل شأن، وأن رسالته بعيدة عن كل إطار قومي أو شعوبي أو عنصري، بل هي رسالة التوحيد والتوجه إلى الله وحده لا شريك له في ربوبيته أو ألوهيته أو أسمائه وصفاته.

ثالثاً: يمارس المسلم تعرية الباطل والكفر بفضح أفكاره، وبيان فساد معتقداته، وكشف أساليبه وطرائقه ليحذرها الناس ويرشدوا إلى الهداية، ويعودوا إلى الإسلام، دين الفطرة الذي خُلق الناس عليه.

رابعاً: يربي المؤمن الداعية من استجاب لدعوته على الإيمان، وحب الله تعالى ورسوله ﷺ والتضحية في سبيل الإسلام بالغالي والرخيص في هذه الحياة.

خامساً: يعلم المؤمن أن طبيعة الحياة هو الصراع بين الحق والباطل إذ يقف الباطل وأهله أمام الحق وأهله بما أوتي من قوة وما حصّل من وسائل ومدد، يحاول هزيمة الحق والقضاء على أهله، وهي سنة الله والعاقبة للمتقين.

سادساً: يظهر من ثبات المؤمنين على عقيدتهم ودينهم وقد نزل الأذى بهم أنهم صادقون، قد سمت أرواحهم في معارج القرب من الله، وعلت نفوسهم عن الدنيا وأهوائها وشهواتها.

سابعاً: تمارس الجاهلية حصار أهل الحق وأهله والتضييق عليهم في أرزاقهم وعدم إتاحة الفرصة لهم في الحياة الكريمة.

ثامناً: يستفيد الداعية من الظروف المحيطة به لحمايته وحماية الدعوة التي

يحملها، ويحاول أن يسخر كل إمكاناته الذاتية والمحيطة به في سبيل إيصال دعوته إلى الناس، فقد يحمي الدعوة من لا يؤمن بها.

تاسعاً: يُرغم المؤمن سلطان البطن والجوع لسلطان العقيدة والإيمان.

فقد حاولت الجاهلية استخدام سلطان الجوع على المسلمين ومؤيديهم، ولكنهم صبروا وتحملوا واجتازوا اقسى انواع الفتنة بثبات وإيمان.

عاشراً: تبذل الجاهلية وسائل الإغراء والاحتواء وتتنازل عن بعض دنياها وحطامها في محاولة إغواء أصحاب الدعوات وحملة المبادىء كي يتنازلوا عن هويتهم، ويتساهلوا في مقاومتها، فلعلَّ تصميمهم يضعف، أو مبادئهم تُقهر أمام إغرائها.

الإبعاد عن ميدان الصراع

* الابعاد عن ميدان الصراع، والبحث عن موقع آخر

لقد ضاقت مكة على من فيها من المؤمنين فكان لابد من بحث عن مكان يأوي إليه المؤمنون ويبتعدون عن ميدان الصراع بعد أن نزل بهم ما نزل من الأذى.

فكان اختيار النبي ﷺ الحبشة مكاناً لهجرتهم.

* الهجرة الأولى إلى الحبشة

قالت أم سلمة رضي الله عنها «لما ضاقت علينا مكة وأوذي أصحاب رسول الله ﷺ وفتنوا ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة في دينهم، وأن رسول الله ﷺ لا يستطيع دفع ذلك عنهم.

وكان رسول الله ﷺ في منعة من قومه وعمه، لا يصل إليه شيء مما يكره مما ينال أصحابه رضوان الله عليهم فقال لهم رسول الله ﷺ (إن بأرض الحبشة ملكاً لا يظلم عنده أحد، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه).

فخرجنا إليها أرسالاً حتى اجتمعنا بها، فنزلنا بخير دار إلى خير جار أمنا على ديننا، ولم نخش منه ظلماً»(1).

* الهجرة الثانية إلى الحبشة

بلغ من كان بالحبشة من المسلمين أن أهل مكة قد أسلموا، فقدم بعضهم وعاد إلى مكة بناء على هذا الخبر، إلا أنهم لم يجدوا الخبر صحيحاً، فرجعوا إلى الحبشة، وخرج معهم غيرهم، ولعلّ عودتهم شجعت غيرهم على الهجرة معهم حيث أن البلاء قد اشتد، والفتنة قد عظمت، وتواثبت القبائل على من أسلم فيهم فآذوهم.

* فخرج في رجب من السنة الخامسة من البعثة النبوية اثنان وثمانون رجلاً، وثمانية عشرة امرأة(2).

---

(1) السيرة النبوية – ابن هشام ٣١٤/١ وسنده حسن، وانظر فتح الباري ١٨٩/٧.
(2) فتح الباري ١٨٩/٨ – ١٩٠.

* موقف قريش العدائي

لقد اهتز المجتمع المكي بخروج هذا العدد منه، ورأوا أن عملية الإبعاد عن ميدان الصراع هو تثبيت لما يدعو إليه محمد ﷺ وأن سلامة أصحابه في الحبشة وامتلاكهم لحريتهم سيمكنهم مستقبلاً من بناء ذواتهم، ونشر رسالتهم، حيث أن خطرهم سيعظم، والتعاطف معهم سيكبر، فكان لابد من إعادتهم تحت السيطرة، فلعلهم يرتدعون ويتركون دين محمد ﷺ ..

لقد أرسلت قريش عمرو بن العاص وعبدالله بن ربيعة يحملان الهدايا إلى النجاشي وبطارقته، فقابلا النجاشي فقالا له: أيها الملك، إن فتية منا سفهاء فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، جاؤوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد لجأوا إلى بلادك، وقد بعثنا إليك فيهم عشائرهم، آباؤهم وأعمامهم، وقومهم لتردهم عليهم، فإنهم أعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه.

فقال بطارقته - وقد تسلّموا الهدايا مسبقاً وأثرّت فيهم - صدقا أيها الملك، قومهم أعلم بهم، فأسلمهم إليهما.

فغضب النجاشي ثم قال: لا، لعَمْر الله، لا أردهم حتى أدعوهم فأكلمهم فأنظر في أمرهم! قوم لجأوا إلى بلادي، واختاروا جواري على جوار غيري فإن كانوا كما يقولون أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما، وأحسنت جوارهم ماجاوروني.

* المسلمون في مجلس النجاشي

ثم أرسل النجاشي إلى أصحاب رسول الله ﷺ فلما جاءهم رسوله قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟

قالوا: نقول والله ما علمنا، وما أمرنا به نبينا ﷺ كائناً في ذلك ما هو كائن.

واتفقوا أن يكون المتحدث عنهم جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه فلما جاؤوا وقد استدعى النجاشي أساقفته، فنشروا كتبهم حوله. سألهم:

ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا به في ديني ولا في دين أحد من هذه الملل؟

فقام جعفر رضي الله عنه فقال:

أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف. لا نحل شيئاً ولا نحرمه.

فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة، والزكاة، وعدَّد أمور الإسلام، فصدقناه، وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئاً، وحرّمنا ما حرّم علينا، وأحللنا ما أحلَّ لنا، فاعتدى علينا قومنا، فعذبونا، وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث.

فلما قهرونا وظلمونا، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك.

فقال النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله شيء؟

قال له جعفر: نعم.

فقال له النجاشي: فاقرأه عليَّ.

فقرأ عليه صدراً من سورة مريم.

فبكى النجاشي حتى اخضلت[1] لحيته، وبكى أساقفته حتى أخضلوا لحاهم حين سمعوا ما تلا عليهم.

---

(١) ابتلت بالدموع من كثرتها.

ثم قال النجاشي: إنَّ هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة[1] واحدة. انطلقا، فوالله لا أسلمهم إليكما، ولا يُكادون[2].

* محاولة الإيقاع بين المسلمين والنجاشي

فلما خرج عمرو بن العاص وعبدالله بن ربيعة. قال عمرو بن العاص والله لآتينه غداً عنهم بما استأصل به خضراءهم[3].

فقال له عبدالله بن ربيعة: لا تفعل فإن لهم أرحاماً وإن كانوا خالفونا.

قال عمرو: والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد.

ثم غدا عليه من الغد، فقال: أيها الملك إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً.

فأرسل إليهم ليسألهم عما يقولون فيه.

فلما جاء رسول النجاشي إليهم، قال بعضهم لبعض، ماذا تقولون في عيسى بن مريم إذا سألكم عنه؟

قالوا: نقول – والله – ما قال الله، وما جاء نـا به نبينا ﷺ كائناً في ذلك ما هو كائن!!.

فلما دخلوا عليه، قال لهم: ماذا تقولون في عيسى بن مريم ؟.

فقال جعفر: نقول فيه الذي جاء نـا به نبينا ﷺ هو عبدالله ورسوله وروحه كلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول.

فضرب النجاشي بيده إلى الأرض، فأخذ منهم عوداً، ثم قال: والله ما عدا[4] عيسى بن مريم ما قلت هذا العود.

فتناخرت[5] بطارقته حوله حين قال ما قال.

فقال: وإن نخرتم والله.

---

(١) المشكاة الكوة غير النافذة، وهي محل المصابيح غالباً، والمعنى أن القرآن والإنجيل من مصدر واحد وهو الوحي.

(٢) أي لا يكيدهم أحد ولا يعتدي عليهم.

(٣) شجرتهم التي تفرعوا عنها، أي آتي بأمر يهلكهم.

(٤) ما جاوز.

(٥) أظهروا عدم الرضا.

ثم قال: اذهبوا فأنتم سيوم[1] بأرضي، من سبكم غرم - ثلاثاً - .

ما أحب أن لي دبراً[2] من ذهب وأني آذيت رجلاً منكم، ردُّوا عليهما هداياهما فلا حاجة لي بها. فخرجا من عنده مقهورين، مذمومين مدحورين[3].

(١) السيوم: الآمنون، وهي كلمة حبشية، وروي بفتح السين. النهاية ٢/٤٣٤.

(٢) الدبر بلسان الحبشة: الجبل.

(٣) انظر السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة ١/٣٧٧ - ٣٨٠ والسيرة النبوية ابن هشام ١/٢٨٩ -٢٩٣، وروى القصة بإسناد حسن إلى أم سلمة رضي الله عنها.
وقد ورد أن قراءة سورة مريم تمت في اللقاء الثاني، وهو الأنسب.

الدروس والعبر

أولاً : يبتعد المؤمنون عن أماكن ومواقع الفتنة إذا لمْ يقدروا على مواجهتها إلى غيرها من الأرض، فإن أرض الله واسعة. يجد فيها المؤمن السعة والفرج.

ثانياً: يُشير الداعية على إخوانه بالإنتقال إلى موقع أفضل يحفظ عليهم معتقدهم، ويصون حياتهم إذا رأى أن الصراع قد يقضي عليهم وعلى دعوتهم.

ثالثاً: يطلب المؤمن العدل، ويبحث عن الحرية حيث تتوفر تكافؤ الفرص من خلالها. فهى مطلب إنساني يتفق مع إنسانية الإنسان، وتتحقق الذاتية للفرد والجماعة فى ظلالها فيسعد الإنسان بها وتستقيم حياته.

رابعاً: يجب فضح الجاهلية، وبيان سوءتها، وكشف مخططاتها في هدم الأديان والأخلاق، مع بيان الهبوط الأخلاقي والسلوكي والاعتقادي في ظلالها.

خامساً: يبين المؤمن تصوره الاعتقادي ويفخر بذلك ويعتز به، لأن مصدره من الله، فهو الحق الذى يجب الإيمان به والرجوع إليه، ولا ينهزم أو يتخفى فهو لا يخشى أحداً إلا الله.

سادساً: تفرض الفطرة السليمة موقفاً سليماً فقد يتعاطف أصحاب هذه الفطر – وإن كانوا كفاراً – مع الحق، فيندفعون إلى فعل خير أو اتخاذ موقف يُفيد الدعاة والدعوة.

* خروج النبي ﷺ إلى الطائف

خرج ﷺ إلى الطائف بعد اشتداد الأذى به، وفقدانه النصرة والحماية بعد موت عمه أبي طالب[1].

عن عائشة رضي الله عنها أنها سألت النبي ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟

فقال: (لقد لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة - أي عقبة الطائف - إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت. فانطلقت وأنا مهموم على وجهي)[2].

وتفاصيل ذلك رواه أصحاب السير[3] فقالوا:

خرج ﷺ إلى الطائف في شوال من السنة العاشرة من البعثة النبوية ومعه مولاه زيد بن حارثة رضي الله عنه فقدم على ثلاثة من أشراف القوم وهم: عبد ياليل، ومسعود، وحبيب بنو عمرو بن عمير، وكانوا سادة ثقيف فجلس إليهم، وكلمهم بما جاء له من نصرته على الإسلام، والقيام معه على من خالفه من قومه.

- فقال أحدهم - هو يمرط[4] ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك.
- وقال الثاني: أما وجد الله أحداً غيرك يرسله.
- وأما الثالث: وكان أعقل منهما، فقال: والله لا أكلمك أبداً، لئن كنت رسول الله لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك، ولئن كنت تكذب على الله، ما ينبغي أن أكلمك.

فقام رسول الله ﷺ من عندهم، وقد يئس من مناصرتهم له.

وقال لهم (إذا فعلتم ما فعلتم فاكتموا عني) كراهة أن يبلغ قومه عنه مجيئه لهم، فيزدادوا إيذاءً له ولأصحابه.

(١) أخرجه أحمد في المسند بإسناد جيد، انظر الفتح الرباني ٢٤٣/٢٠.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم آمين ١١٨٠/٣ (ح/٣٠٥٩) وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين ١٤٢٠/٣ (ح/١٧٩٥).
(٣) السيرة النبوية - ابن هشام - ٤١٩/١ - ٤٢٢ بإسناد صحيح مرسل.
(٤) أي يسرق، وكانوا يستعظمون الاعتداء على الكعبة.

وكان القوم لئاماً فلم يفعلوا، بل أغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويرمون رجليه بالحجارة، حتى دُميت عقباه.[1] أ.هـ.

وهام على وجهه، فلم يستفق إلا بقرن الثعالب[2].

قال ﷺ (فرفعت رأسي فإذا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني، فقال: إن الله عزوجل قد سمع قول قومك لك، وماردوا عليك وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم.

قال: فناداني ملك الجبال وسلمّ عليّ، ثم قال: يا محمد إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال قد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك، فما شئت إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين[3].

فقال له رسول الله ﷺ : بل أرجو أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً)[4].

وقد ورد أنهم بعد رميهم له بالحجارة ألجأوه إلى حائط لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وهما من زعماء مكة لهما ذلك الحائط في الطائف[5].

وجلس في ظل شجرة عنب، وابنا ربيعة ينظران إليه ويريان ما لقي من سفهاء الطائف. فلما اطمأن في جلوسه، قال: (اللهم إليك أشكوا ضعف قوتي وقلة حيلتي، وهواني على الناس يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملّكته أمري؟ إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن ينزل بي غضبك، أو يحل عليّ سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك)[6].

---

(١) السيرة النبوية – لابن هشام – ٢/٧٠ – ٧٢، والمسند لأحمد ٤/٣٣٥، وغيرهم.

(٢) قرن الثعالب: قرن المنازل، ميقات أهل نجد.

(٣) الأخشبان: جبلان عظيمان بمكة.

(٤) تقدم تخريج الحديث عند البخاري. ٣/١١٨٠ (ح/٣٠٥٩) وعند مسلم ٣/١٤٢٠ (ح/٧٩٥).

(٥) عادة أهل مكة إلى اليوم أن لهم دوراً وبساتين في الطائف يطلبون طيب ارضها، ونسيم هوائها، وخاصة في اشهر الصيف من كل عام.

(٦) قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/٣٥ – في سنده ابن اسحاق وهو مدلس ثقة: وبقية رجاله ثقات، وقد عنعن ابن اسحاق – فالقصة ضعيفة.

* **النبي ﷺ وعداس**

عندما رآه ابنا ربيعة على هذه الحال تحركت فيهما عاطفة القبيلة والوطن والدار، فأمرا غلاماً لهما نصرانياً يقال له عداس[(١)].

فقالا له: اذهب بقطف من العنب إلى ذلك الرجل.

فلما قدمه إليه.

مدّ النبي ﷺ يده إليه، وقال بسم الله؟!

فتعجب عداس وقال:

إنك تقول كلاماً لا يقوله أهل هذه البلاد، فقال له النبي ﷺ ومن أي البلاد أنت يا عداس؟

قال عداس: من نينوى.

فقال له النبي ﷺ أمن قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟

قال عداس: وما أدراك بيونس بن متى؟

قال النبي ﷺ هو أخي أنا نبي وهو نبي.

فأخذ عداس يقبل رأس النبي ﷺ ويديه ورجليه.

فقال أحد أبناء ربيعة للآخر لقد أفسد محمد عليك غلامك.

فلما رجع إليهما عداس سألاه.

فقال: لا يوجد على وجه الأرض خير من هذا، لقد أخبرني بخبر لا يعلمه إلا نبي.

فقالا له: لا يصدنك عن دينك، فإن دينك خير من دينه[(٢)].

وفى الطريق وهو راجع إلى مكة بعث الله إليه نفراً من الجن[(٣)] استمعوا إلى القرآن، فآمنوا به، وقد ذكر الله ذلك في سورتي الأحقاف والجن.

---

(١) الإصابة ٤٦٦/٢ – ٤٦٧.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٧٠/٢ – ٧٢ بتصرف بسيط.

(٣) أخرجه مسلم، كتاب الصلاة، باب الجهر بالقراءة فى الصبح ٣٣١/١ (ح/٤٤٩).

فقال تعالى ﴿وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا انصتوا فلما قُضي ولوا إلى قومهم منذرين، قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً انزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم، يا قومنا اجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويُجركم من عذاب اليم ﴾[1].

وقال تعالى ﴿قل اوحي إليَّ أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجباً، يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا احدا ﴾[2].

وقد أرسل النبي ﷺ إلى المطعم بن عدي ليجيره في دخوله إلى مكة فأجابه إلى ذلك، فدخل إلى مكة في جواره.

لذا قال النبي ﷺ يوم بدر عندما رأى الأسرى (لو كان المطعم بن عدى حياً ثم كلمني في هؤلاء النتنى لتركتهم له)[3].

---

(١) سورة الأحقاف آيات ٢٩ – ٣١.

(٢) سورة الجن ايات ١ – ١٥.

(٣) أخرجه البخارى في صحيحه، كتاب الخمس، باب ما منَّ النبي ﷺ ١١٤٣/٣ (ح/٢٩٧٠).

* الدروس والعبر

أولاً : يسعى المؤمن جاهداً في البحث عن مكان يأوي إليه الدعاة إلى الله وتُطبق فيه الشريعة، وتُبنى فيه الدولة.

ثانياً: يتحمل المؤمن في سبيل دعوته الأذى والاضطهاد، ويصبر على ذلك فلا يملّ ولا يكل عن ممارسة دعوته، والتبشير بالهداية الربانية التي أكرمه الله بها.

ثالثاً: يعتمد الباطل في مواجهته للحق على ضعاف العقول، ومهزوزي الشخصية والمنتفعين به من السفهاء والمغفلين، فيشجعهم على إيذاء دعاة الحق ومعارضتهم والوقوف أمام دعوتهم.

رابعاً: يمارس الداعية الدعوة في كل وقت وحين، لأنها غايته وهدفه الذي يسعى إليه، ومهما كانت الحال صعبة فلأن يهدي الله به رجلاً واحداً خير له من حمر النعم.

خامساً: يلجأ المؤمن إلى ربه يدعوه ويستنصره ويطلب عونه على مشقات الطريق، وعوائق الأعداء فهو حسبه يتوكل عليه ويرجوه، وكفى بالله حسيباً.

سادساً: يعلم الداعية بأن فضل الله عظيم، فإذا أعرض البشر عن قبول الدعوة ونيل الخير الذي يجلبه لهم، سهّل الله للدعوة من يأخذها من غيرهم.

وإذا كانت رحلة الطائف لم تات بثمار مع البشر المقصودين بها فإنها قد آتت ثمارها مع نفر من الجن - وهم مخاطبون بالرسالة كالإنس -.

قال تعالى ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾[1].

---

١) سورة الذاريات آية ٥٦.

الإسراء والمعراج

* **الإسراء والمعراج**

أسري بالنبي ﷺ وعُرج به بعد رحلة الطائف تثبيتاً له وإكراماً لمقامه الكريم.

قال تعالى ﴿**سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنُريَهُ من آياتنا إنه هو السميع البصير**﴾[1].

وقال تعالى ﴿**ولقد رآه نزلة أخرى، عند سدرة المنتهى، عندها جنة المأوى إذ يغشى السدرة ما يغشى، ما زاغ البصر وما طغى، لقد رأى من آيات ربه الكبرى**﴾[2].

وقد وردت قصة الإسراء والمعراج مفصلة في السنة أوردها برواية الإمام مسلم رحمه الله لها[3].

عن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ قال (أتيت بالبراق)[4] – وهو دابة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه – قال فركبته حتى أتيت بيت المقدس[5]، قال: فربطته بالحلقة[6] التي يربط بها الأنبياء. قال: ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت فجاءني جبريل عليه السلام بإناء من خمر وإناء من لبن. فاخترت اللبن. فقال جبريل عليه السلام: اخترت الفطرة[7]، ثم عرج بنا إلى السماء، فاستفتح جبريل فقيل: من

(١) سورة الإسراء آية ١.

(٢) سورة النجم آيات ١٣ – ١٨.

(٣) انظر صحيح مسلم كتاب الإيمان، باب الإسراء والمعراج ١/١٤٥ – ١٤٦ – ١٤٧ (ح/١٦٢). والتعليقات للشيخ محمد فؤاد عبدالباقي رحمه الله.

(٤) (أتيت بالبراق) قال أهل اللغة: البراق اسم الدابة التي ركبها ﷺ ليلة الإسراء.

(٥) (بيت المقدس): قال أبو علي الفارسي: لا يخلوا إما أن يكون مصدراً أو مكاناً. فإن كان مصدراً كان كقوله تعالى: (إليه مرجعكم) ونحوه من المصادر، وإن كان مكاناً فمعناه بيت المكان الذي جعل فيه الطهارة، أو بيت مكان الطهارة. وتطهيره إخلاؤه من الأصنام وإبعاده منها.

(٦) (فربطته بالحلقة): قال صاحب التحرير: المراد حلقة باب مسجد بيت المقدس.

(٧) (اخترت الفطرة): فسروا الفطرة هنا بالإسلام والاستقامة. ومعناه، والله أعلم، اخترت علامة الإسلام والاستقامة. وجعل اللبن علامة لكونه سهلاً طيباً سائغاً للشاربين، سليم العاقبة. وأما الخمر فإنها أم الخبائث وجالبة لأنواع من الشر في الحال والمآل.

أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا. فإذا أنا بآدم. فرحب بي ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء الثانية فاستفتح جبريل عليه السلام. فقيل: من أنت؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا. فإذا أنا بابني الخالة عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا صلوات الله عليهما. فرحبا ودعوا لي بخير. ثم عرج بي إلى السماء الثالثة. فاستفتح جبريل. فقيل: من أنت؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال محمد ﷺ قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا. فإذا أنا بيوسف عليه السلام إذا هو قد أعطي شطر الحسن. فرحب ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة، فاستفتح جبريل عليه السلام. قيل: من هذا؟ قيل: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قال: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا. فإذا أنا بإدريس. فرحب ودعا لي بخير. قال الله عز وجل: ﴿ورفعناه مكاناً عليا﴾[1].

ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة. فاستفتح جبريل. قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا. فإذا أنا بهارون عليه السلام. فرحب ودعا لي بخير. ثم عرج بنا إلى السماء السادسة. فاستفتح جبريل عليه السلام. قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه: ففتح لنا فإذا أنا بموسى عليه السلام فرحب ودعا لي بخير. ثم عرج إلى السماء السابعة. فاستفتح جبريل. فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد ﷺ. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا. فإذا أنا بإبراهيم عليه السلام، مسنداً ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون الف ملك لا يعودون إليه. ثم ذهب بي إلى السدرة المنتهى[2]. وإذا ورقها كآذان

---

(١) سورة مريم اية ٥٧.

(٢) (إلى السدرة المنتهى): هكذا وقع في الأصول، السدرة بالألف واللام. وفي الروايات بعد هذا سدرة المنتهى. قال ابن عباس والمفسرون وغيرهم: سميت سدرة المنتهى لأن علم الملائكة ينتهي إليها، ولم يجاوزها أحد إلا رسول الله ﷺ وحكي عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: أنها سميت بذلك لكونها ينتهي إليها ما يهبط من فوقها وما يصعد من تحتها من امر الله تعالى.

الفيلة. وإذا ثمرها كالقلال[1]. قال: فلما غشيها من أمر الله ما غشي تغيرت. فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها. فأوحى الله إليّ ما أوحى. ففرض عليّ خمسين صلاة في كل يوم وليلة. فنزلت إلى موسى عليه السلام. فقال: ما فرض ربك على أمتك؟ قلت: خمسين صلاة. قال: ارجع إلى ربك. فاسأله التخفيف. فإن أمتك لا يطيقون ذلك. فإني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم. قال: فرجعت إلى ربي فقلت: يارب! خفف على أمتي. فحط عني خمساً. فرجعت إلى موسى فقلت: حط عني خمساً. قال: إن أمتك لا يطيقون ذلك فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف. قال فلم أزل أرجع بين ربي تبارك وتعالى وبين موسى عليه السلام حتى قال: يا محمد: إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة. لكل صلاة عشر. فذلك خمسون صلاة. ومن همّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن فعلها كتبت له عشراً. ومن همّ بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئاً. فإن عملها كتبت سيئة واحدة. قال: فنزلت حتى انتهيت إلى موسى عليه السلام فأخبرته. فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف. فقال رسول الله ﷺ فقلت: قد رجعت إلى ربي حتى استحييت منه).

* عودة النبي ﷺ إلى مكة

عن شداد بن أوس رضي الله عنه في قصة الإسراء والمعراج (.... ثم انصرف بي فمررنا بعير لقريش بمكان كذا وكذا، وقد أضلوا بعيراً لهم، قد جمعه فلان، فسلمت عليهم. فقال بعضهم، هذا صوت محمد. ثم أتيت أصحابي قبل الصبح بمكة)[2].

* المواقف تجاه الإسراء

أولاً: موقف قريش

لما أصبح النبي ﷺ جلس إليه أبوجهل وسأله مستهزئاً: وهل من شيء؟ فأخبره النبي ﷺ بالإسراء، فلم يشأ أن يكذبه ساعتئذ خشية أن يكتم ذلك أمام الناس، واكتفى بقوله: «أرأيت إن دعوت قومك إليك، أتحدثهم بما

---

(١) (كالقلال) جمع قُلّة. والقلة جرة كبيرة تسع قربتين أو أكثر.

(٢) الدلائل للبيهقي ٢/٣٥٥ - ٣٥٧ وقال هذا إسناد صحيح.

حدثتني؟»، فقال رسول الله ﷺ (نعم)، فأسرع إلى قومه، فدعاهم، فجاؤوا إليه، وطلب منه أبوجهل أن يحدثهم فحدثهم، فتعجبوا من حديثه، وطلب منه من رأى المسجد الأقصى أن يصفه لهم. فرفعه الله له، فأخذ يصفه لهم، وهو ينظر إليه، فقالوا: «أما النعت فقد والله أصاب»[1].

وكان مبعث استغرابهم أنهم يذهبون إلى بيت المقدس ويعودون في شهرين، فكيف يذهب ويعود في ليلة واحدة[2].

ثانياً : موقف حديثي العهد بالإسلام

بعض من أسلم ولم يتمكن الإسلام من قلبه ارتد عن دينه[3].

ثالثاً: موقف أبي بكر رضي الله عنه

أما أبوبكر فعندما أخبر بالخبر، صدقه دون تردد، قائلاً: «والله لئن كان قاله لقد صدق، وما يعجبكم من ذلك؟ فوالله إنه ليخبرني أن الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار، فهذا أبعد مما تعجبون منه». ثم أقبل على النبي ﷺ يسأله عن وصفه، وكلما ذكر شيئاً قال: صدقت، أشهد إنك رسول الله.... فقال النبي ﷺ (وأنت يا أبا بكر الصديق) فيومئذ سماه الصديق[4].

وكان الإسراء بالجسد والروح

قال ابن حجر: إن الإسراء والمعراج وقعا في ليلة واحدة في اليقظة بجسد النبي ﷺ وروحه بعد البعث، وإلى هذا ذهب الجمهور من علماء المحدثين والفقهاء والمتكلمين، وتواردت عليه ظواهر الأخبار الصحيحة، ولا ينبغي العدول عن ذلك، إذ ليس في العقل ما يحيله حتى يحتاج إلى تأويل[5].

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب التفسير ١٧٤٣/٤ (ح/٤٤٣٣) وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب ذكر المسيح بن مريم ١٥٦/١ (ح/٢٧٦).

(٢) السيرة النبوية – ابن هشام – ٤٥١٢.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك ٦٢/٣ – ٦٣ وصححه ووافقه الذهبي.

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك ٦٢/٣ – ٦٣ وقال صحيح ووافقه الذهبي.

(٥) فتح الباري ١٩٧/٧.

* الدروس والعبر[1]

أولاً : ترتبط قضية المسجد الأقصى بالمسجد الحرام والكعبة، فهما في فهم المسلم شيء واحد، والدفاع عنهما مقدس عند المسلمين جميعاً.

ثانياً: تصعد روح المسلم من خلال الصلاة كل يوم خمس مرات.

وذلك إشارة إلى السمو الذي يرتفع به المسلم عن الدنيا ومتطلباتها. فهو منفرد عن غيره من البشر بعلو المكانة وسمو الهدف وارتفاع المثل التي يتعامل بها.

ثالثاً: تزيد الأحداث المؤمن صلابة بإيمانه، وتترسخ لديه ثوابت التصديق بالله ورسوله ﷺ فلا يهتز ولا يُغيِّر، بل هو على يقين من صدق رسول الله ﷺ وصدق ما جاء به.

رابعاً: يؤمن المؤمن بالملكوت الأعلى وبعالم الغيب، وقدرة الله تعالى. ويتطلع إلى مرضاة الله تعالى التي ينال بها الجنة ويبتعد بها عن غضب الله والنار.

خامساً: ولعل الحكمة في مرور هذه الرحلة ببيت المقدس، ولم تكن من المسجد الحرام إلى سدرة المنتهى مباشرة، هي أنه عندما أهدر اليهود كرامة الوحي وأسقطوا أحكام الله، حلت بهم لعنة الله وتقرر تحويل النبوة عنهم إلى الأبد، على الرغم من أنها ظلت فيهم زماناً طولاً، ومن ثم كان مجيء الرسالة إلى محمد ﷺ انتقالاً بالقيادة في العالم من أمة إلى أمة. ومن بلد إلى بلد. ومن ذرية إسرائيل إلى ذرية إسماعيل، وهو انتقال في احترام للإيمان الذي درج قديماً في رحابه[2].

---

(١) السيرة النبوية – دروس وعبر – للدكتور السباعي رحمه الله بتصرف.
(٢) فقه السيرة – محمد الغزالي رحمه الله – ١٢٧.

عرض الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه على القبائل

* عرض الرسول ﷺ نفسه على القبائل

حرص النبي ﷺ على توفير مقرٍ ومكان للدعوة فكان يعرض نفسه على القبائل لعلّها تقبله وتأويه، وكانت مكة مأوى يقصده الناس تعظيماً للبيت الحرام في الحج والعمرة، فكانت فرصته لأن يلتقي بالناس ويحدثهم عن دعوته ويطلب منهم أن يؤوه وينصروه - كما كانت مناسبات الأسواق وأماكن اللقاءات تعطي نفس الفرصة للدعوة - ويصطحب معه أبا بكر رضي الله عنه لمعرفته بأنساب الناس وقبائلهم وكان يقول ﷺ لهم:

(هل من رجل يحملني إلى قومه، فإن قريشاً منعوني أن أبلغ كلام ربي)[1].

ويقول مخاطباً القبائل:

(يا بني فلان، إني رسول الله إليكم، يأمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه، وأن تؤمنوا به وتصدقوني وتمنعوني حتى أبين عن الله، ما بعثني به)[2].

وقد التقى النبي ﷺ بأصناف القبائل، وكانت مواقفهم كالتالي:

١ - قوم أبوا دعوته، ولم يقبلوها - كندة -

٢ - قوم ردوا عليه رداً قبيحاً - بنو حنيفة - وهم قوم مسيلمة الكذاب.

٣ - قوم طمعوا في الملك من بعده - بنو عامر بن صعصعة .

وكان من أمرهم أنهم قالوا على لسان رجل منهم يُدعى بحيرة بن فراس «والله لو أني أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب... أرأيت إن تابعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك؟» قال: (الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء)، قال: «أفنهدف نحورنا للعرب دونك، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا، لا حاجة لنا بأمرك»[3].

---

(١) اخرجه ابوداود في سننه، كتاب السنة ٥/ح - ٤٧٣٤، وابن ماجه في المقدمة ب١٢ ص٧٣ (ح/٢٠١) واخرجه الترمذى فى جامعه، كتاب فضائل القران، باب (٢٤) ٥/١٨٤ (ح/٢٩٢٥) وقال هذا حديث غريب صحيح..

(٢) اخرجه احمد في المسند ٣/٤٩٢ والفتح الرياني ٢٠/٢١٦ - وقال وسنده جيد.

(٣) السيرة النبوية - ابن هشام - ٢ /٧٦.

٤ - وقوم تعللوا بأن رسالة محمد ﷺ مما يكرهها ملوك فارس وهم جيرانهم من جهة الشرق وهم

ربيعة وبنو شيبان الذين كان فيهم وعلى رأسهم: مفروق بن عمرو وهانيء ابن قبيصة والمثنى بن حارثة، وقد تعللوا بحجج منها الرغبة في التريث لحين أخذ مشورة من وراءهم من قومهم، وفي هذا قال المثنى: «وإنما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى، لا نحدث حدثاً ونؤوي محدثاً، وإني أرى هذا الأمر الذي تدعو إليه مما تكرهه الملوك، فإن أحببت أن نؤيدك وننصرك مما يلي مياه العرب فعلنا، فقال رسول الله ﷺ (وما أسأتم في الرد إذ أفصحتم بالصدق وإن دين الله لن ينصره إلا من أحاطه من جميع جوانبه، أرأيتم إن لم تلبثوا إلا قليلاً حتى يورثكم الله أرضهم وديارهم وأموالهم ويفرشكم نسائهم، أتسبحون الله وتقدسونه؟) فقال النعمان بن شريك: «اللهم! نعم».

فتلا رسول الله ﷺ ﴿ ... إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ﴾ وقد سُرَّ رسول الله ﷺ من أخلاقهم[1].

٥ - وقوم أجلّوا الإجابة حتى يشاوروا قومهم. وهم أهل اليمن - همدان - أتاه رجل من همدان، فقال له النبي ﷺ من أنت؟

فقال الرجل: من همدان.

قال: فهل عند قومك من منعة؟

قال: نعم. ثم إن الرجل خشي أن يخفره قومه، فأتى رسول الله ﷺ .

فقال: آتيهم فأخبرهم، ثم آتيك من عام قابل.

قال: نعم.

فانطلق، وجاء وفد الأنصار في رجب[2] فسبقوهم في الإستجابة للرسول ﷺ.

٦ - وقوم قبلوا واستجابوا - وهم الأنصار -

لقد أراد الله لأهل المدينة الخير فساقهم إليه وساقه إليهم.

---

(١) ابن حبان في السيرة ٩٣ - ١٠١. وانظر السيرة النبوية من مصادرها ٢٤٣. والآية من سورة الأحزاب ٤٥ - ٤٦.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٢٩٠/٣، والترمذي ١٨٤/٥، وهو صحيح.

وقد تهيأت نفوسهم لذلك الخير لأسباب:

الأول: يوم بعاث

وهو يوم تقاتل فيه الأوس والخزرج، وقتل فيه من أكابرهم الكثير.

عن عائشة رضي الله عنها قالت:

«كان يوم بعاث يوماً قدّمه الله لرسوله ﷺ فقدم رسول الله ﷺ وقد افترق ملؤهم، وقتلت سرواتهم، وجرحوا، فقدمه الله لرسوله ﷺ في دخولهم في الإسلام»[1].

فقد أرادوا أن يحلوا اشكالاتهم باختيار سلطة تفك منازعاتهم، وتجمع آراءهم، وتوحد صفوفهم، وقد اتفقوا أن يجعلوا عبدالله بن أبي بن سلول ملكاً عليهم، إلا أن الإسلام دخل فيهم فأخرّ ذلك عن ابن أبي.

- لقد قالوا لرسول الله ﷺ عند لقياهم به «إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك».

ثم انصرفوا، ووعدوه المقابلة في الموسم المقبل.

فلما قدموا المدينة إلى قومهم ذكروا لهم رسول الله ﷺ ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم، فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله ﷺ[2].

الثاني: وجود اليهود في المدينة

وهم أهل كتاب وعلم، فكان إذا وقع بين أهل المدينة وبين اليهود نفرة أو قتل. قال لهم اليهود: «إن نبياً مبعوثاً الآن قد أطلّ زمانه، سنتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم».

فلما دعا رسول الله ﷺ من لقيه من أهل المدينة إلى الإسلام نظر بعضهم لبعض وقالوا: «تعلمون والله انه للنبي الذي توعدكم به اليهود، فلا

(١) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب مناقب الأنصار، ١٣٧٧/٣ (ح/٣٥٦٦).

(٢) السيرة النبوية - ابن هشام - ١٨١/٢ - ١٨٢.

يسبقنكم إليه». فأجابوه إلى ما دعاهم إليه من الإسلام[1].

- وكان من أمر الأنصار مع النبي ﷺ عندما لقيهم عند عقبة منى.

قال لهم رسول الله ﷺ من أنتم؟

قالوا: نفر من الخزرج.

قال: أمن موالي يهود؟

قالوا: نعم.

قال: أفلا تجلسون أكلمكم.

قالوا: بلى.

فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله عزوجل، وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن[2] فآمنوا ورجعوا إلى ديارهم مبشرين بالإسلام، ناقلين خروج النبي ﷺ ومعلنين به.

وفي أثناء مرور النبي ﷺ على تلك القبائل في منازلهم في منى وغيرها كان عمه أبولهب يمشي خلفه.

فعن ربيعة بن عباد الدولي قال:

رأيت رسول الله ﷺ بذي المجاز يتبع الناس في منازلهم يدعوهم إلى الله عزوجل، ووراءه رجل أحول تتقد وجنتاه وهو يقول: أيها الناس، لا يغرنكم هذا من دينكم ودين آبائكم.

قلت من هو؟ قالوا: هذا أبولهب[3].

* **بيعة العقبة الأولى**

وقد قدم في الموسم الثاني لذلك اللقاء السابق مجموعة من الأنصار اثنا عشر رجلاً بعضهم ممن لقي النبي ﷺ اللقاء الأول.

فعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال:

(كنت فيمن حضر العقبة الأولى، وكنا أثني عشر رجلاً، فبايعنا رسول الله ﷺ بيعة النساء وذلك قبل أن يفترض علينا الحرب. على أن لا نشرك

---

(١) السيرة النبوية - ابن هشام - ٢/٨١ - ٨٣.

(٢) السيرة النبوية - ابن هشام - ٢/٣٧- ٣٩.

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٤٩٢/٣، والحاكم في المستدرك ١٥/١ وصححه وأقره الذهبي.

بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله ومن أصاب شيئاً، فستره الله فأمره إلى الله إن شاء عاقبه وإن شاء عفا عنه)(١).

وعاد الأنصار بعد البيعة الأولى وقد أرسل معهم ﷺ مصعَب بن عمير ليقرئهم القرآن، ويعلمهم أحكام الإسلام، ويفقههم في دين الله تعالى(٢). ونزل مصعب المدينة ودعا إلى الله فأسلم خلق كثير على يده.

ولم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون.

* بيعة العقبة الثانية

وفي موسم الحج من العام الثالث عشر للبعثة النبوية قدم مكة لأداء مناسك الحج مجموعة من أهل المدينة مسلمهم وكافرهم(٣).

قال جابر بن عبدالله الأنصاري رضى الله عنه فقلنا:

حتى متى نترك رسول الله ﷺ يُطرد في جبال مكة ويخاف. فرحل إليه منا سبعون رجلاً(٤).

وقد اتصل هؤلاء بالنبي ﷺ وواعدوه على اللقاء.

روى الصحابي كعب بن مالك الأنصاري رضي الله عنه وهو أحد المبايعين في العقبة الثانية.

قال: «خرجنا في حجاج قومنا من المشركين، وقد صلينا وفقهنا... ثم خرجنا إلى الحج، وواعدنا رسول الله ﷺ العقبة من أوسط أيام التشريق... وكنا نكتم من معنا من المشركين أمرنا.. فنمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ نتسلل تسلل القطا مستخفين، حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة، ونحن ثلاثة

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب مناقب الأنصار ١٤١٣/٣ (ح/٣٦٧٩ - ٣٦٨٠) ومسلم، كتاب الحدود باب الحدود كفارات ١٣٣٣/٣ (ح/١٧٠٩).

(٢) السيرة النبوية - ابن هشام - ٨٦/٢.

(٣) السيرة النبوية - ابن هشام - ٩٢/٢.

(٤) أخرجه أحمد في المسند - الفتح الرباني ٢٧٠/٢٠ وإسناده صحيح.

وسبعون رجلاً، ومعنا امرأتان من نسائنا: نُسيبة بنت كعب..، وأسماء بنت عمرو.. فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله ﷺ حتى جاءنا ومعه العباس ابن عبدالمطلب - وهو يومئذ على دين قومه - إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له. فلما جلس كان أول متكلم العباس بن عبدالمطلب فبين أن الرسول ﷺ في منعة من قومه بني هاشم ولكنه يريد الهجرة إلى المدينة ولذلك فإن العباس يريد التأكد من حماية الأنصار له وإلا فليدعوه. فطلب الأنصار أن يتكلم رسول الله ﷺ فيأخذ لنفسه ولربه ما يحب من الشروط.

(فتكلم رسول الله ﷺ فتلا القرآن، ودعا إلى الله ورغب في الإسلام، ثم قال: أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم).

فأخذ البراء بن معرور رضي الله عنه بيده ثم قال: نعم والذي بعثك بالحق، لنمنعنَّك مما نمنع منه أُزرنا فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أهل الحرب، وأهل الحلقة، ورثناها كابراً عن كابر، فقاطعه أبوالهيثم بن التيهان متسائلاً: يارسول الله إن بيننا وبين القوم حبالاً وإنا قاطعوها يعني اليهود فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟

فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: (بل الدم بالدم والهدم بالهدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم).

ثم قال: (أخرجوا إليَّ منكم أثنى عشر نقيباً ليكونوا على قومهم بما فيهم فأخرجوا منهم اثنى عشر نقيباً، تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس).

وقد طلب الرسول ﷺ الانصراف إلى رحالهم، وقد سمعوا الشيطان يصرخ منذراً قريشاً، فقال العباس بن عبادة بن نضلة: والله الذي بعثك بالحق، إن شئت لنميلنَّ على أهل منى غداً بأسيافنا.

فقال رسول الله ﷺ (لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم).

فرجعوا إلى رحالهم، وفي الصباح جاءهم جمع من كبار قريش يسألونهم عما بلغهم من بيعتهم للنبي ﷺ ودعوتهم له للهجرة، فحلف المشركون من الخزرج والأوس بأنهم لم يفعلوا والمسلمون ينظرون إلى بعضهم[(١)].

---

(١) اخرجه احمد في المسند ٣/٤٦٠، وقال ابن حجر في فتح الباري ٧/٢٢١ صححه ابن حبان. وأخرجه الحاكم في المستدرك ٢/٦٢٤ - ٦٢٥ وقال صحيح، ووافقه الذهبي.

* **الدروس والعبر**

أولاً : يذهب الداعية إلى أماكن تجمع الناس يبلغهم دعوة الله، فيستفيد من تلك المواسم بعرض ما لديه من الخير، ولا يقصر ذلك على من حوله فقط.

ثانياً: لا ييأس الداعية من إعراض الناس عنه، فلابد من الصبر والتحمل ومعاودة خطابهم مرة بعد مرة. فالجهل عدو فتاك بأهله، ولابد من مواجهته والوقوف قصاده.

ثالثاً: يُهيءُ الله للداعية والدعوة أنصاراً يؤمنون بفكرته ويحمونه ويساعدونه على حمل الأمانة، ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب.

رابعاً: يتعامل المؤمن ضمن تصور أن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده. لذا فإنه يرتفع بنفسه وذاته عن تراب الأرض، ووحل الطريق.

خامساً: يُبدِّل الله الضعف قوة، والقلة كثرة، فلا يستقل الداعية جهداً ولا عدداً، فقد يكون لذلك شأن كبير في انتشار الدعوة وبلوغها غاياتها في الحياة بنصرها على الشر وأعوانه، فالله سبحانه وتعالى هو الذي يبارك في الجهود، وينمي الثمرة.

سادساً: يشمل الإسلام الحياة فكراً وتصوراً وممارسة فهو شامل في التعامل والزمان والمكان، لا يصلح له إلا من أحاطه من جميع جوانبه، وأدركه من جميع جهاته. وهو التميز الخاص بالإسلام لشموليته للحياة والإنسان.

سابعاً: تحتاج الدعوة إلى الإسلام إلى العلم به ومعرفته حتى يتم بناء النفس على بصيرة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وتحتاج إلى قدوة ماثلة يراها الناس ويدركون أثر الإسلام عليها.

ثامناً: يمارس الداعية الدعوة بالأسلوب الحسن والرفق بالمدعوين، ومخاطبتهم بما يدركون دون تعنيف أو تجريح.

تاسعاً: يرتبط الخطاب الدعوي بالأمن الدعوي للدعاة فلابد من حمايتهم، إذ لا انفصام بين الدعوة والداعية، فإذا وجد الدعاة الحماية والحرية والنصرة انطلقت الدعوة في تحقيق مراد الله في أرضه وعباده.

عاشراً: يكتم المؤمن أمره ويخفيه عن الأعداء المتربصين بالإسلام، فلا يطلعهم على أمره وأمر دعوته، بل يستعين على قضاء حوائجه بالكتمان.

الحادى عشر: يتعلم المؤمن كيف ينجز أعمال الدعوة في وقت البلاء والإيذاء من اختيار للمكان والوقت واتخاذ السكينة والحذر والالتزام بالموعد.

الثاني عشر: يسكت المؤمن ويصمت في المواقع التي لا يترتب عليها إظهار فكره وتصوره، بل تتعلق بنوع من أنواع حركته، بل يترك غيره يُجيب على بعض المواقف المحرجة.

الثالث عشر: يُمارس المسلم الداعية أقصى درجات التنظيم والإدارة في تسيير أمور الدعوة فيرتب الجند والقادة، ويبايع على نصرة الحق والدفاع عنه.

الرابع عشر: تظهر علامات الشجاعة على المسلم في مواقف العطاء لهذه الدعوة لأنها حق واقف تجاه الباطل، والحق يحتاج إلى تضحية وفداء ونصرة.

الخامس عشر: يوحي شياطين الجن لشياطين الإنس من أوليائهم بما يعارضون به الإسلام من قول أو عمل، ويتعاونون في منع الخير عن الناس.



خارطة تقريبية للمواقع

الهجرة إلى المدينة

هجرة المسلمين إلى المدينة

* إعلام النبي ﷺ أصحابه بموطن الهجرة

عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: قال النبي ﷺ للمسلمين بمكة (إني أريت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين) وهما الحرتان، فهاجر من هاجر إلى المدينة، ورجع عامة من هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة[(١)].

* خروج الصحابة

كان خروج الصحابة رضوان الله عليهم سراً من مكة إلى المدينة خوفاً من أذى قريش أو منعها لهم.

فعن عائشة رضي الله عنها عندما سئلت عن الهجرة قالت كان المؤمنون يفر أحدهم بدينه إلى الله تعالى وإلى رسوله ﷺ مخافة أن يفتن عليه[(٢)].

وقد لقى المسلمون صعاباً في هجرتهم، وقد مرّ ذكر بعض ذلك مما حدث لأم سلمة رضي الله عنها ولصهيب الرومي رضي الله عنه[(٣)].

وكان مقصدهم وجه الله تعالى وإعلاء كلمته، كما قال خباب بن الأرت رضي الله عنه هاجرنا مع رسول الله ﷺ نلتمس وجه الله فوقع أجرنا على الله[(٤)].

وقد اقترعت الأنصار على سكنى المهاجرين[(٥)] وآثروهم على أنفسهم فنالوا من الثناء العظيم الذي خلّد ذكرهم على مر الدهور وتتالي الأجيال، إذ ذكر الله مآثرتهم في قرآن يتلوه الناس: ﴿ **والذين تبوءو الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا**

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة ١٤١٧/٣ - ١٤١٨ (ح/٣٦٩٢).

(٢) أخرجه البخاري بالموضع السابق ١٤١٦/٣ (ح/٣٦٨٧).

(٣) انظر موضوع التحدي والمواجهة لجاهلية مكة - تقدم -.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب هجرة النبي ﷺ ١٤١٥/٣ (ح/٣٦٨٤).

(٥) أخرجه البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب مقدم النبي ﷺ ١٤٢٩/٣ (ح/٣٧١٣).

ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه، فأولئك هم المفلحون ﴾[1].

وقد أثنى رسول الله ﷺ على الأنصار ثناء عظيماً فقال: (لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار)[2] و(لو سلكت الأنصار وادياً وشعباً لسلكت وادي الأنصار أو شعبهم)[3].

هجرة النبي ﷺ إلى المدينة

* الإذن بالهجرة

أذن الله تعالى للنبي ﷺ بالهجرة إلى المدينة

قالت عائشة رضي الله عنها: فبينما نحن يوماً جلوس في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة، قال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله ﷺ متقنعاً في ساعة لم يكن يأتينا فيها.

فقال أبوبكر: فداء له أبي وأمي، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر.

قالت: فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن فأذن له، فدخل، فقال النبي ﷺ لأبي بكر: أخرج من عندك.

فقال أبوبكر: إنما هو أهلك[4] بأبي أنت يا رسول الله.

قال: فإني قد أذن لي في الخروج.

فقال أبوبكر: الصحبة بأبي أنت يارسول الله.

قال رسول الله ﷺ نعم.

قال أبوبكر: فخذ – بأبي أنت يا رسول الله – إحدى راحلتي هاتين.

قال رسول الله ﷺ بالثمن.

---

(١) سورة الحشر آية ٩.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب قول النبي ﷺ لولا الهجرة ١٣٧٧/٢ (ح/٣٥٦٨).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب مناقب الأنصار ١٣٧٧/٢ (ح/٣٥٦٧).

(٤) يريد زوجته عائشة رضي الله عنها.

قالت عائشة: فجهزناهما أحسن الجهاز، ووضعنا لهم سفرة في جراب فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها، فربطت به على فم الجراب. وبذلك سميت ذات النطاقين[١].

* مؤتمر دار الندوة

عقد زعماء قريش لقاءً في دار الندوة يتشاورون فيه حول محمد ﷺ ومنعه من الهجرة إلى المدينة المنورة.

وقد ورد أن إبليس جاء في صورة شيخ نجدي[٢] أعلمهم أنه سمع بخبرهم فأراد أن يحضر مشورتهم[٣] وقد ذكر الله تدبيرهم ومكرهم.

قال تعالى: ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا ليُثْبِتُوكَ أو يقتلوك أو يُخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾[٤].

وقد تبادلوا الآراء حول كيفية التخلص من النبي ﷺ كما ورد ذكر ذلك في الآية، واتفقوا على رأي أبي جهل الذي حاز على موافقة الشيطان وهو: أن يأخذوا من كل قبيلة فتى شاباً نسيباً وسيطاً فيهم، ويعطى كل واحد منهم سيفاً صارماً، فيضربون جميعاً بأسيافهم محمداً ﷺ ضربة رجل واحد ليتفرق دمه في القبائل، فلا يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً فيرضوا بالدية[٥].

* تدبير الهجرة وأخذ الاحتياطات

* عدم النوم في الفراش

- أمر النبي ﷺ علياً رضي الله عنه أن ينام في فراشه في ليلة الهجرة

---

(١) تقدم قبله من حديث عائشة، وانظر صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب هجرة النبي ﷺ ٣/١٤٢٢ (ح/٣٦٩٥).

(٢) قال السهيلي في الروض ٢/٢٢٩ أنه ادعى نفسه من أهل نجد لأن أهل تهامة هواهم مع النبي ﷺ . واسناد القصة حسن انظر تاريخ الطبري ٢/٢٧٠ - ٢٧٢ والسيرة النبوية - ابن هشام - ٢/١٣٦ - ١٣٩.

(٣) السيرة النبوية - لابن هشام - ٢/١٣٦ - ١٣٩، وانظر تاريخ الطبري ٢/٢٧٠ - ٢٧٢.

(٤) سورة الأنفال آية ٣٠.

(٥) السيرة النبوية - لابن هشام -٢/١٣٦ - ١٣٩.

للتمويه على المشركين[1].

وخرج ﷺ من بين أيديهم وقد ذرّ على رؤوسهم التراب[2] ولم يدركوا إلا عندما قام عليٌّ في الصباح.

*** ترتيبات الاختباء**

- خرجا ليلاً إلى الجهة الجنوبية من مكة إلى غار ثور، علماً بأن طريق المدينة شمال مكة[3].
- البقاء في غار ثور ثلاثة أيام حتى يخف الطلب عنهما[4].
- أمر أبوبكر ابنه عبدالله أن يتسمّع لهما ما يقوله الناس عنهما في النهار فيأتيهما في الليل إلى الغار ثم يرجع إلى مكة ليلاً فيصبح فيها[5].
- أمر مولاه عامر بن فهيرة أن يرعى غنمه نهاره ثم يريحها عليهما في الغار إذا أمسى ليطعما من ألبانها، ويزيل بها آثار عبدالله بن أبي بكر[6].

*** ترتيبات الطريق**

- استأجرا دليلاً ماهراً عارفاً بمسالك الطرق ليدلهما على طريق المدينة المنورة وهو عبدالله بن أريقط وكان مشركاً، واستكتماه الخبر، وواعداه بعد ثلاث إلى غار ثور، ودفعا إليه بالراحلتين[7].
- أمر أبوبكر عامر بن فهيرة أن يصحبهما في هجرتهما ليخدمهما ويعينهما في الطريق[8].

---

(١) مسند أحمد ٤٨٣/١، وأخرجه الحاكم في المستدرك ٤/٣ وقال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٤٨٣/١ بسند مرسل حسن.

(٣) تقدم من حديث عائشة قبله بقليل.

(٤) أخرجه أحمد في المسند ٣٤٨/١، والمصنف ٣٨٩/٥، وقال ابن حجر في الفتح ٢٣٦/٧ سنده حسن.

(٥) أخرجه البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ ١٤١٧/٣ (ح/٣٦٩٢ - ٣٦٩٤).

(٦) المصدر السابق.

(٧) المصدر السابق.

(٨) المصدر السابق

* رد الودائع

وكان من مهمات علي رضي الله عنه في مكة أن يردَّ ودائع قريش التي كانت تستودعها لدى رسول الله ﷺ فهو الصادق الأمين[1].

* وداع الحنين

لقد مرّ معنا أن ورقة بن نوفل أخبر النبي ﷺ وقت نزول الوحي عليه أن قومه سيخرجوه من مكة، وها هي لحظة الخروج من موطنه، ومن الأرض التي عاش عليها، وتربى بين جنباتها، وها هو حنين الوداع أو وداع الحنين يبثه ﷺ.

يقول ﷺ وهو ينظر إلى مكة وقت خروجه منها، (والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أُخرجت منك لما خرجت)[2].

* هياج قريش في البحث

لقد فشلت خطة قريش في قتل محمد ﷺ وشعرت بالهوان لذا فقد أصابها الهياج فاتخذت مجموعة من التدابير:

أولاً: بحثت قريش في كل مكان حول مكة عن محمد ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه حتى وصلت إلى غار ثور، فقال أبوبكر رضي الله عنه يا رسول الله لو نظر أحدهم إلى موضع قدمه لرآنا.

فقال له النبي ﷺ (ماظنك باثنين الله ثالثهما)[3] فحفظهما الله، فلم ترهما قريش، وعادت خائبة منكسرة، قال تعالى **﴿إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السُفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم ﴾**[4].

---

(١) مسند أحمد ٤٨٣/١، وأخرجه الحاكم في المستدرك ٤/٣ وقال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ٧/٣ وقال صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب فضائل الصحابة، باب هجرة النبي ﷺ ١٤٢٧/٣ (ح/٣٧٠٧).

(٤) سورة التوبة آية ٤٠.

ثانياً: جعلت جُعلاً – مائتي ناقة – لمن جاء بمحمد ﷺ وصاحبه أحياءً أم أمواتاً، ونشرت ذلك بين القبائل، وخاصة تلك التي على الطريق بين مكة والمدينة، وقصة سراقة دليل على هذا الأمر[1].

* قصة سراقة

عن سراقة بن مالك رضي الله عنه قال: جاءنا رسل كفار قريش يجعلون في رسول الله ﷺ دية كل واحد منهما لمن قتله أو أسره قال: فبينما أنا جالس في نادي قومي إذا أقبل رجل منا حتى وقف علينا فقال: والله لقد رأيت ركبة ثلاثة مروا عليَّ آنفاً إني لأراهم محمداً وأصحابه. فأومأت إليه بعيني أن اسكت، ثم قلت: إنما هم بنو فلان يبتغون ضالة لهم، قال: لعله، ثم سكت.

قال: ثم مكثت قليلاً ثم قمت فدخلت بيتي، ثم أمرت بفرسي فقيد لي إلى بطن الوادي، وأمرت بسلاحي، فأخرج لي من دبر حجرتي، ثم أخذت قداحي التي استقسم بها[2]، ثم انطلقت فلبست لأمتي، ثم أخرجتُ قداحي فاستقسمتُ بها، فخرج السهم الذي أكره: لا يضره.

قال: وقد كنت أرجو أن أرده على قريش فآخذ المائة الناقة.

قال: فركبت على أثره، فبينما فرسي يشتدُ بي عثر بي فسقطت عنه.

قال فقلت: ما هذا!!؟

قال: ثم أخرجت قداحي فاستقسمتُ بها، فخرج السهم الذي أكره: لا يضره.

قال: فأبيت إلا أن أتبعه.

قال: فركبت في أثره، فبينا فرسي يشتد بي عثر بي فسقطت عنه.

قال فقلت: ما هذا!!؟

قال: ثم أخرجت قداحي فاستقسمتُ بها، فخرج السهم الذي أكره: لا يضره.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب هجرة النبي ﷺ ٣/١٤٢٠ (ح/٣٦٩٣).

(٢) أعواد متساوية عليها علامات كأخرج لا تخرج، افعل لا تفعل فيخرجها فإذا خرج منها واحد فعل ما فيه.

قال: فأبيت إلا أن أتبعه، فركبت في أثره، فلما بدا لي القوم ورأيتهم عثر بي فرسي فذهبت يداه في الأرض، وسقطت عنه ثم انتزع يديه من الأرض وتبعهما دخان كالإعصار.

قال: فعرفت حين رأيت أنه قد منع مني، وأنه ظاهر.

قال: فناديت القوم، فقلت: أنا سراقة بن جعشم، انظروني أكلمكم فوالله لا أريبكم ولا يأتيكم مني شيء تكرهونه.

قال: فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر: قل له وما تبتغي منا؟ فقال لي ذلك أبوبكر.

قال قلت: تكتب لي كتاباً يكون آية بيني وبينك.

قال: اكتب له يا أبا بكر.

فكتب لي كتاباً في عظم أو في رقعة أو في خزفة، ثم ألقاه إليّ، فأخذته فجعلته في كنانتي، ثم رجعت فسكت، فلم أذكر شيئاً مما كان. ثم حكى خبر لقائه برسول الله ﷺ بعد فتح مكة وإسلامه[1].

وقد ذكر سراقة في رواية صحيحة أنه اقترب من الاثنين حتى سمع قراءة رسول الله ﷺ وهو لا يلتفت، وأبوبكر يكثر الالتفات، كما ذكر أنه عرض عليهما الزاد والمتاع فلم يأخذا منه شيئاً، وأن وصيته كانت: أخف عنا[2].

وتذكر رواية صحيحة أنه صار آخر النهار مسلمة للنبي ﷺ بعد أن كان جاهداً عليه أوله، وأن الرسول ﷺ هو الذي دعا عليه فصرعه الفرس[3].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب هجرة النبي ﷺ ٣/١٤٢٠ (ح/٣٦٩٣). وأخرجه مسلم، كتاب الأشربة، باب جواز شرب اللبن ٣/١٥٩٢ (ح/٢٠٠٩).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب هجرة النبي ﷺ ٣/١٤٢٠ (ح/٣٦٩٣).

(٣) انظره بموضعه قبله وفي ٣/١٤٢٣ (ح/٣٦٩٩) عند البخاري.

* وفي خيمة أم معبد معجزة

ثم مرَّ رسول الله ﷺ وصحبه في مسيره ذلك بخيمة أم مَعْبَد الخُزاعية فسألوها إن كان عندها طعام، فاعتذرت بالجدب، فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة قرب الخيمة، فسألها عنها، فقالت: شاة خلّفها الجهد عن الغنم، فقال (هل بها من لبن؟) قالت: هي أجهد من ذلك، فاستأذنها في حلبها، فأذنت له قائلة: «إن رأيت بها حلباً فاحلبها»، فمسح رسول الله ﷺ بيده ضرعها وسمى الله ودعا، فدرت، فدعا بإناء لها، فحلب فيه، فسقاها حتى رويت وسقى أصحابه حتى رووا، ثم شرب وحلب فيه ثانياً، حتى ملأ الإناء وتركه لها، ثم ارتحلوا.

وعندما جاء زوجها أبومعبد ورأى اللبن عجب من ذلك، فأخبرته بالذي حدث من محمد ﷺ فقال: والله إني لأراه صاحب قريش الذي تطلبه، وطلب منها أن تصفه له، فوصفته له، وعندما سمع وصفها، قال: والله هذا صاحب قريش الذي ذكروا من أمره ما ذكروا، لقد هممت أن أصحبه، ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلاً.

وأصبح صوت بمكة عالياً يسمعونه ولا يرون القائل:

سلو أختكم عن شاتها وإنائها * فإنكم إن تسألوا الشاء تشهد[1].

* الوصول إلى المدينة

عن عروة بن الزبير «أن رسول الله ﷺ لقي الزبير في ركب من المسلمين كانوا تجاراً قافلين من الشام، فكسا الزبير رسول الله ﷺ وأبابكر ثياب بياض، وسمع المسلمون بالمدينة مخرج رسول الله ﷺ من مكة، فكانوا يغدون كل غداة إلى الحرة فينتظرونه، حتى يردهم حرُّ الظهيرة، فانقلبوا يوماً بعدما أطالوا انتظارهم، فلما أووا إلى بيوتهم أوفى رجل من يهود على أطم من آطامهم[2] لأمر ينظر إليه، فبصر برسول الله ﷺ وأصحابه مبيضين يزول

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٣/٩ - ١٠ وقال هذا حديث صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي.
(٢) أطم: الحصن.

بهم السراب، فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته: يا معاشر العرب، هذا جدكم الذي تنتظرون.

فثار المسلمون إلى السلاح، فتلقوا رسول الله ﷺ بظهر الحرة، فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف، وذلك يوم الإثنين من شهر ربيع الأول، فقام أبوبكر للناس، وجلس رسول الله ﷺ صامتاً، فطفق من جاء من الأنصار ممن لم ير رسول الله ﷺ يحيي أبا بكر، حتى أصابت الشمس رسول الله ﷺ فأقبل أبوبكر حتى ظلل عليه بردائه، فعرف الناس رسول الله ﷺ عند ذلك.

فلبث رسول الله ﷺ في بني عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة، وأسس المسجد الذى أسس على التقوى.

قال تعالى ﴿.. لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يُحِبُّ المُطهرين﴾[1].

وصلى فيه رسول الله ﷺ[2].

قال البراء بن عازب رضى الله عنه:

ما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله ﷺ[3].

---

(١) سورة التوبة آية ١٠٨.

(٢) أخرجه البخاري – بموضعه قبل – ١٤٢١/٣ (ح/٣٦٩٤).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب فضائل الصحابة، باب مقدم النبي ﷺ المدينة ١٤٢٨/٣ (ح/٣٧١٠).

الدروس والعبـر

أولاً : يبحث المؤمن على الدوام عن المكان المناسب والموقع الملائم لقيام دعوته وتطبيق شريعته، ليبني المجتمع والأمة المسلمة، ويقيم الدولة الصالحة التي يَسعد بها الناس.

ثانياً: يقصد المؤمن بعمله وجه الله تعالى، فلا يقصد في عمله أو قوله إلا رضى الله فهو يلتمس وجه ربه، وحصول الأجر منه على كل قوله وعمله، مخلصاً ذلك متجرداً..

ثالثاً: يحرص المؤمن على مصاحبة الصالحين والجلوس معهم، والسفر برفقتهم، لأنهم أصحاب الخير وأرباب النصح الذين لا يبخلون بأنفسهم في سبيل دعوتهم، وحماية دعاتهم.

رابعاً: يعتدي أعداء الله تعالى على صاحب الدعوة إذا يئسوا من إيقاف دعوته، ظناً منهم أن ذلك يُخلّصهم من المبادىء التي يحملها ويدعو إليها.

وما علموا أن المبادىء لا تحيا وتنتشر إلا إذا سُقيت بدماء أتباعها وحملتها.

خامساً: يفدي حملة الدعوة والمؤمنون بها القائد والأمير بكل ما يملكون، لأنه يمثل الرمز وفي سلامته خير كثير للمسلمين.

سادساً: يتخلق المؤمن بالأخلاق الإسلامية النبيلة، ويتصف بالصفات الحميدة، فهي أساس إيمانه، ويتعامل مع الناس جميعاً بها لذا يحترمه الناس حتى أعداءه رغم مواقف الاختلاف بينه وبينهم.

سابعاً: يظهر موقف المرأة المؤمنة في حمل الدعوة والدفاع عنها، وكتم سر الدعاة، وفي معونة حملتها، لأن الدعوة تمشي على رجلين – الرجل والمرأة – وإذا تخلف دور المرأة الدعوي فإن الدعوة تمشي على رجل واحدة وتكون المشية العرجاء.

ثامناً: يعلم المؤمن أن الله تعالى برعايته ووقايته وحفظه ينصر الدعاة، وبقوته

وفضله يكلؤهم، ومن كان في حفظ الله ورعايته لا يضره شيء أبداً.

تاسعاً: يتخذ المؤمن الأسباب ويأخذ بها، فيدبر أمره بتنظيم واحتياط كامل حتى لا يقع في المحذور، أو ينال منه عدوه، وهو غير قادر على مواجهته، والوقوف أمام طغيانه وعدوانه.

عاشراً: يهيج العدو إذا فشلت خططه في محاربة الدعوة وأهلها، أو نجحت خطط الدعاة في مواجهته فيتحرك الباطل وأهله في حركة هيجان ليحول نصر المؤمنين إلى هزيمة.

الحادي عشر: يتوكل المؤمن على الله تعالى فهو حسبه ووكيله فيثبت ولا يُستفز، ويعلم أن عناية الله بالمؤمنين موجودة فيرتب أحواله على الرضى بما كتب الله له. فنعم المولى ونعم النصير.

الثاني عشر: يوقن المؤمن أن المستقبل لهذا الدين مهما اشتدت الظلمة أو تناقص الأنصار. لأن الله ناصر دينه ومذل أعدائه في كل زمن وحين إذا تحقق الإيمان من خلال الجهد البشري وتوفرت شروط النصر.

الثالث عشر: يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر رسله ودعاة دينه، لأن في نجاتهم استمرار لدعوتهم، وتحقيق النجاح لها في واقعهم.

الرسول ﷺ في المدينة

* انطلاقه ﷺ إلى المدينة

أرسل النبي ﷺ إلى أخواله من بني النجار فجاؤوا متقلدين سيوفهم فسار نحو المدينة راكباً، فأدركته الجمعة في الطريق في ديار بني سالم بن عوف، فجمع بهم في المسجد الذي في بطن الوادي، وكانوا مائة رجل(١).

وكانت أول جمعة داخل المدينة(٢).

ثم ركب راحلته، فسار يمشي معه الناس، حتى بركت عند مسجد الرسول ﷺ بالمدينة، وهو يُصلي فيه يومئذ رجال من المسلمين، وكان مربداً للتمر لسهيل وسهل غلامين يتيمين في حجر سعد بن زرارة، فقال رسول الله ﷺ حين بركت به راحلته: هذا إن شاء الله المنزل. ثم دعا رسول الله ﷺ الغلامين فساومهما بالمربد ليتخذه مسجداً، فقالا: لا، بل نهبه لك يا رسول الله فأبى رسول الله ﷺ أن يقبله منهما هبة حتى ابتاعه منهما... الحديث(٣).

* نزوله دار أبي أيوب رضي الله عنه

فأقبل يسير حتى نزل جانب دار أبي أيوب، فقال نبي الله ﷺ (أيُّ بيوت أهلنا أقرب؟)

فقال أبو أيوب: أنا يا نبي الله، هذه داري وهذا بابي.

قال: (فانطلق فهيء لنا مقيلاً).

قال: قوما على بركة الله(٤).

قال أبو أيوب رضي الله عنه «لما نزل عليَّ رسول الله ﷺ في بيتي نزل في السُّفل وأنا وأم أيوب في العلوّ، فقلت له: يا نبي الله - بأبي أنت وأمي - إني لأكره وأعظم أن أكون فوقك، وتكون تحتي، فاظهر أنت فكن في العلو

---

(١) الطبقات الكبرى - ابن سعد - ٢/٢٣٦ - ٢٣٧.

(٢) السيرة النبوية - ابن هشام ٢/١٥٩.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب هجرة النبي ﷺ ٣/١٤٢١ (ح/٣٦٩٤).

(٤) تقدم تخريجه عند البخاري - قبله - .

وننزل نحن فنكون في السفل، فقال: (يا أبا أيوب: إن أرفق بنا وبمن يغشانا أن نكون في سفل البيت).

قال: فلقد انكسر جبٌ لنا فيه ماء، فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا مالنا لحاف غيرها ننشف بها الماء تخوفاً أن يقطر على رسول الله ﷺ منه شيء يؤذيه[1]».

وورد سبب آخر لمسألة العلو والسفل، وهو أن أبا أيوب قال كيف نمشى فوق رأس النبى ﷺ وهو تحتنا في السفل[2].

* الأعمال الأولى في بناء الأمة والدولة في المدينة

* بناء المسجد:

تقدم ذكر مكان المسجد وشراء النبي ﷺ للأرض التي أقامه عليها.

(.... ثم إنه أمر ببناء المسجد)[3].

وقد كانت فيه - أي الحائط الذي اشتراه - قبور المشركين، وكانت فيه خرب[4] وكان فيه نخل، فأمر رسول الله ﷺ بقبور المشركين فنبشت وبالخرب فسويت، وبالنخيل فقطع.

قال: فصفوا النخيل قبلة المسجد، قال: وجعلوا عضادتيه[5] حجار

قال: جعلوا ينقلون ذلك الصخر وهم يرتجزون ورسول الله ﷺ معهم يقولون:

اللهم إنه لا خير إلا خير الآخرة فانصر الأنصار والمهاجرة[6].

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٣/٤٦٠ - ٤٦١، وقال هذا إسناد صحيح، ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الأشربة، باب إباحة أكل الثوم ٣/١٦٢٣ (ح/٢٠٥٣).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنصار، باب مقدم النبي ﷺ وأصحابه ٣/١٤٣٠ (ح/٣٧١٧).

(٤) الخروب المستديرة في الأرض، فتح الباري ٧/٢٦٦.

(٥) العضادة: الخشبة التي على كتف الباب، ولكل باب عضادتان، وأعضاد كل شيء ما يشد جوانبه، فتح الباري ٧/٢٦٦.

(٦) تقدم قبله.

* دور المسجد

وقد أدى المسجد دوراً عظيماً في حياة المسلمين في المدينة فكان:

أولاً: مكاناً لإقامة الصلاة، والتعلم من النبي ﷺ.

ثانياً: إيواء الضعفاء والفقراء من العزاب من المهاجرين والذين عرفوا بأهل الصفة[1].

ثالثاً: مكاناً لاستقبال الوفود والرسل.

رابعاً: يعالج فيه بعض الجرحى[2].

خامساً: تُعقد فيه السرايا والبعوث.

* المؤاخاة بين المسلمين

لقد قدم المهاجرون من مكة وقد تركوا بيوتهم وأموالهم في سبيل الله وقد استقبلهم أهل المدينة - كما مرّ في قصة الهجرة - وكانوا يقترعون على سكنى المهاجرين عندهم فقد أخبرت أم العلاء - امرأة من نساء الأنصار بايعت النبي ﷺ - عن ذلك وهي تتحدث عن عثمان بن مظعون وأنه كان من نصيبهم في سكناه عندما اقترع الأنصار على سكنى المهاجرين[3].

بل طالب الأنصار أن يقسم النبي ﷺ بينهم وبين إخوانهم المهاجرين نخلهم.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

قالت الأنصار: اقسم بيننا وبينهم النخل.

قال: لا.

قال: يكفوننا المؤنة ويشركوننا في الثمر.

قالوا: سمعنا وأطعنا[4].

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب المساجد، باب نوم الرجال في المسجد ١/١٧٠ (ح/٤٣١).
(٢) أخرجه البخاري، كتاب المساجد، باب الخيمة في المسجد للمرضى ١/١٧٧ (٤٥١).
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب مقدم النبي ﷺ ٣/١٤٢٩ (ح/٣٧١٤).
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب إخاء النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار ٣/١٣٧٨ (ح/٣٥٧١).

وكانت المؤاخاة في دار أنس حيث كانت البداية لذلك العمل العظيم في تقريب القلوب، وجمع الصفوف[1].

وآثر الأنصار إخوانهم من المهاجرين

فقد ورد أن المهاجرين لما قدموا المدينة آخى رسول الله ﷺ بين عبدالرحمن بن عوف وسعد بن الربيع رضى الله عنهم. فقال لعبدالرحمن إني أكثر الأنصار مالاً، فاقسم مالي نصفين، ولي امرأتان، فانظر أعجبهما إليك فسمها لي أطلقها، فإذا انقضت عدتها فتزوجها. قال: بارك الله لك في أهلك ومالك، أين سوقكم؟ فدلوه على سوق بني قينقاع، فما انقلب إلا ومعه فضل من أقط وسمن. ثم تابع الغُدُوَّ. ثم جاء يوماً وبه أثر صُفرة، فقال النبي ﷺ مهيم؟ قال: تزوجت. قال: كم سُقت إليها؟ قال: نواة من ذهب - أو وزن نواة من ذهب - شك إبراهيم[2].

وفي رواية أخرى عن أنس رضي الله عنه أنه قال: قدم علينا عبدالرحمن ابن عوف وآخى النبي ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع - وكان كثير المال - فقال سعد: قد علمت الأنصار أني من أكثرها مالاً، سأقسم مالي بيني وبينك شطرين، ولي امرأتان فانظر أعجبهما إليك فأطلقها حتى إذا حَلَّت تزوجتها فقال عبدالرحمن: بارك الله لك في أهلك. فلم يرجع يومئذ حتى أفضل شيئاً من سمن وأقط، فلم يلبث إلا يسيراً حتى جاء رسول الله ﷺ وَضَرٌ من صفرة، فقال له رسول الله ﷺ: مهيم؟ قال: تزوجت امرأة من الأنصار، قال: ما سقت فيها؟ قال: وزن نواة من ذهب فقال: أو لم ولو بشاة[3].

وقد آخى النبي ﷺ بين المهاجرين بعضهم ببعض، وآخى بين المهاجرين والأنصار.

وهدف المؤاخاة:

- المواساة فيما بينهم، والنصرة.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب مؤاخاة النبي ﷺ بين أصحابه ١٩٦/٤ (ح/٢٥٢٩).

(٢)، (٣) أخرجهما البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار باب إخاء النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار ١٣٧٨/٣ (ح/٣٥٦٩ - ٣٥٧٠).

- التوارث بعد الممات.

عن ابن عباس «كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث المهاجري الأنصاري دون ذوي الرحم للأخوة التي آخى النبي ﷺ بينهم»[1].

ثم نسخ بقوله تعالى:

﴿... وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً كان ذلك في الكتاب مسطوراً﴾[2].

*** وثيقة التحالف**

وصل النبي إلى المدينة وسكانها ثلاثة أصناف

- المسلمون الذين آمنوا به.

- اليهود وهم قبائل ثلاث (بنو قريظة، بنو النضير، بنو قينقاع).

- المشركون الذين لم يدخلوا في الإسلام وقد كتب بينهم كتاباً[3].

كتابه ﷺ بين المهاجرين والأنصار واليهود

وخلاصة ذلك ترد في النقاط التالية:

أولاً: إن المسلمين من المهاجرين والأنصار أمة واحدة من دون الناس.

ثانياً: إن المؤمنين المتقين أيديهم على كل من بغى منهم أو ابتغى دسيعة ظلم أو إثماً أو عدواناً أو فساداً بين المؤمنين، وإن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم.

ثالثاً: لا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر، ولا ينصر كافراً على مؤمن. وإن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم، وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب (ولكل جعلنا موالي مما ترك) ١٦٧١/٤ (ح/٤٣٠٤).

(٢) سورة الأحزاب آية ٦.

(٣) مجموعة الوثائق السياسية ٤١ - ٤٧ بتصرف.

رابعاً: إنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً أو يؤويه، وإن من نصره أو آواه. فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، لا يؤخذ منه صرف ولا عدل.

خامسا: مرد الأمر إلى الله ورسوله محمد ﷺ وإن ماكان بين أهل هذه الصحيفة من حدث، أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله ﷺ، وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره.

سادساً: وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم، وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

سابعاً: وإنه لاتُجار قريش ولا من نصرها. وإن بينهم النصر على من دهم يثرب.

ثامناً: وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وإنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم وأثم، وإن الله جار لمن بر واتقى، ومحمد رسول الله ﷺ .

* الدروس والعبـر

أولاً : يُكرم الله من شاء من عباده بالفضل والخير فيبقى ذكره أبد الدهر ثناء طيباً، وموقفاً كريماً، يتمنى كل مؤمن أن يكون له، ولكنه فضل الله يؤتيه من يشاء، فنعم الضيف محمد ﷺ ونعم المضياف أبي أيوب رضى الله عنه.

ثانياً: تُؤسس الأمة بنيانها على الإيمان بالله، والصلة به والتقرب إليه بالطاعة والعمل الصالح، فهي أمة قائمة على الإيمان ومنطلقاته، وعلى العلم ودلالته.

ثالثاً: تقوم العلاقات في المجتمع المسلم على التآخي والمحبة في الله والإيمان بالمبدأ، فينمو الشعور الأخوي بين أفراد المجتمع، لينتج تعاوناً وتماسكاً يُقيم شرع الله في الأرض، ويحقق الأمن والأمان للحياة.

رابعاً: يؤثر المؤمن إخوانه على نفسه فلا يبخل عليهم بشيء إذ أن إحساسه بأنه معهم جسد واحد يدفعه إلى الإحسان إليهم والبر بهم.

خامساً: تقوم العلاقة بين المسلمين وبينهم وبين غيرهم على الوضوح الذي يحقق العدل والتعاون لما فيه مصلحة الجميع.

الإذن بالقتال

* **الإذن بالقتال**

عندما استقر النبي ﷺ في المدينة وأقام الدولة والسلطان وأصبح المسلمون يملكون مقومات الجهاد، أذن الله فيه.

قال تعالى: ﴿ **أُذِنَ للذين يُقاتلون بأنهم ظُلموا وإن الله على نصرهم لقدير** ﴾[1].

وقد ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما في سبب نزولها. لما أخرج النبي ﷺ من مكة، قال أبوبكر: أخرجوا نبيهم، إنا لله وإنا إليه راجعون ليهلكن، فأنزل الله الآية.

قال أبوبكر: فعرفت أنه سيكون قتال[2].

وكان ذلك أول الأمر[3].

ثم نزلت الآيات الفارضات للجهاد على المؤمنين.

قال تعالى ﴿ **وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم** ﴾[4].

وقال تعالى ﴿ **وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة** ﴾[5].

والجهاد في الإسلام له هدفه وغرضه الذي يسعى إليه، ويحاول تحقيقه على الواقع في حياة الناس.

وخلاصة ذلك:[6]

أولاً : يسعى الإسلام إلى الوصول إلى الناس ليخاطبهم ويدعوهم إلى عبادة الله تعالى، والإيمان به، وتطبيق شرعه في حياتهم.

ثانياً: لا يكره الإسلام أحداً على الدخول فيه، بل لابد من قناعة الشخص

---

(١) سورة الحج آية ٣٩.

(٢) تفسير الطبري ١٧/١٢٣ وتفسير ابن كثير ٥/٤٣٠ – ٤٣١. وانظر المسند ٣/٢٦٢ – شاكر – وصحح إسناده. والترمذي ٣/١٧٩ (ح/٢٥٣٥) وحسنه.

(٣) أخرج ذلك النسائي ٦/٤ انظر فتح الباري ١٥/١٤٢.

(٤) سورة البقرة آية ١٩٠.

(٥) سورة التوبة آية ٣٦.

(٦) مرويات غزوة بدر ٥٤ – وما بعدها.

ورضـاه بأن يكون مسلمـاً (لا إكراه فى الدين) فـهو لا يهـاجم الأفـراد ليكرههم على اعتناق عقيدته.

ثالثاً: يحطم الإسـلام الحواجز والموانع التي تحول بين الإنسـان وبين عـملية الاختـيار، لأن تلك الموانع تغل من حـرية الإنسـان، وتفـسد عليه فطرته بتأثيراتها.

رابعاً: الإسـلام ليس مـجرد عقيدة حـتى يقنع بإبلاغ عـقيدته للناس بوسيلة البيـان، إنما هو منهج يتمـثل في مـجتـمع وأمـة ودولة لابد من تطبيق أحكامه، وتنفيذ شريعته.

«إن البـاحـثين الإسـلامـيين المعـاصـرين المهـزومين تحت ضـغط الهـجـوم الاستشراقي الماكر، يتحرجون من تقرير تلك الحقيقة، لأن المستشرقين صوروا الإسـلام حـركـة قـهر بالسـيف للإكراه على العقيدة، والمسـتشـرقون الخـبـثاء يعرفـون جيـداً أن هذه ليست هي الحـقيـقة، ولكنهم يشوهون بواعث الجـهاد الإسـلامي بـهذه الطريقـة، ومن ثم يقوم المنافـحون - المهـزومـون - عن سـمـعة الإسـلام بنفي هذا الاتهام، فيلجـأون إلى تلمس المبررات الدفـاعية ويغفلون عن طبيعة الإسلام ووظيفته، وحقه في تحرير الإنسان ابتداء.

وقد غـشي على أفكار البـاحـثين العصـريين - المهزومين - ذلك التـصـور الغربي لطبيعـة الدين وإنه مـجـرد عـقيدة فـي الضـمـير، لا شـأن لها بالأنظمة الواقـعـيـة للحـيـاة، ومن ثم يكون الجـهـاد للدين جـهـاداً لفـرض العـقـيـدة على الضمير.

ولكن الأمـر ليس كذلك في الإسـلام، فـالإسـلام منهج الله للحـياة البـشرية وهو منهج يقوم على إفراد الله وحـده بالألوهية - متمثلة في الحـاكمية - وينظم الحياة الواقعية بكل تفـصيلاتها اليومية، فالجهاد له جـهاد لتقرير المنهج وإقامة النظام، أما العقيدة فأمرها موكول إلى حرية الاقتناع في ظل النظام العام، بعد رفـع جميع المؤثرات، من ثم يـختلف الأمـر من أسـاسه، وتصبح له صـوراً جيـدة كاملة. أ.هـ.[1]

---

(١) في ظلال القرآن ٣/٧٥١ السابعة، لبنان.

وبعد هذا العرض أورد بعض الآيات التي تبين بعض مبررات الجهاد في الإسلام، وتوضح القيم التي يجب على المسلمين أن ينطلقوا لتحقيقها لأنها مبررات التحرير العام للإنسان في الأرض بإخراجه من العبادة للعباد إلى عبادة رب العباد.

قال تعالى: ﴿أُذِنَ للذين يُقَاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامعُ وبيعٌ وصلواتٌ ومساجدُ يُذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز﴾[1].

وقال تعالى: ﴿فليُقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يُقاتل في سبيل الله فيُقتل أو يَغلِب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً، وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلُها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً، الذين آمنوا يُقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً﴾[2].

وقال تعالى: ﴿قل للذين كفروا إن ينتهوا يُغفر لهم ما قد سلف وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين، وقاتلوهم حتى لا تكون فتنةٌ ويكون الدين كلُّه لله فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير، وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير﴾[3].

وقال تعالى: ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يُحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يَدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يُعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾[4].

---

(١) سورة الحج آيات ٣٩ – ٤٠.
(٢) سورة النساء آيات ٧٤ – ٧٦.
(٣) سور الأنفال آيات ٣٨ – ٤٠.
(٤) سورة التوبة آية ٢٩.

وهناك آيات كثيرة تحث المؤمنين وتشحذ هممهم للقتال في سبيل الله والتضحية بالمال والنفس في سبيل نشر الخير وهداية البشر وتحطيم القوى المادية التي تعترض الدعوة.

*** التحركات العسكرية قبل غزوة بدر[1]**

بمجرد الاستقرار الذي حصل للمسلمين بقيادة الرسول ﷺ في المدينة وقيام الجماعة المؤمنة في المجتمع المدني الجديد، كان لابد أن ينتبه المسلمون وقيادتهم إلى الواقع من حولهم وما ينتظرهم من جهة أعدائهم أعداء الدعوة وكان لابد أن تنطلق الدعوة الإسلامية إلى غايتها التي أرسل الله محمداً ﷺ بها وتحمل هو وأصحابه في سبيلها المشاق الكثيرة.

إن موقف قريش في مكة من أول الأمور التي يجب أن تعالجها قيادة المدينة، لأن أهل مكة لن يرضوا بأن يقوم للإسلام كيان، ولو كان في المدينة لان ذلك يهدد كيانهم، ويقوض بنيانهم، فهم يعلمون أن قيام الإسلام معناه انتهاء الجاهلية وعادات الآباء والأجداد، فلابد من الوقوف في وجهه.

وقد بذلت مكة وأهلها المحاولات لعدم وصول النبي ﷺ إلى المدينة واتخذت مواقف عدائية لضرب الحركة الإسلامية الناشئة فى مكة.

لذا كانت أهداف تلك التحركات ما يأتي:-

أولاً: استكشاف المنطقة، ومعرفة المواقع، واكتساب المهارات القتالية.

ثانياً: عقد المعاهدات والتحالفات مع القبائل الصغيرة من حول المدينة لكسبها إن امكن أو تحييدها فى الصراع الذي سيحدث بين المسلمين في المدينة والمشركين بمكة.

ثالثاً: انزال الضربات الموجعة لأهل مكة بتعريض قوافلهم للخطر، ومحاولة قطع طريقهم التجاري.

رابعاً: اظهار قوة المسلمين ووجودهم في المنطقة، فلا يجرؤ معتد على التفكير في الاعتداء عليهم أو النيل منهم.

---

(١) مرويات غزوة بدر – للمؤلف – ٧٩ وما بعدها.

وكانت تلك التحركات مجملة فيما يأتي:

(١) غزوة بواط.

(٢) غزوة الأبواء.

(٣) غزوة العشيرة.

(٤) غزوة بدر الأولى.

(٥) سرية عبدالله بن جحش.

وبين يديك بعض التفاصيل:

*** غزوة الأبواء بواط والعشيرة**

قال ابن اسحاق: أول ما غزا النبي ﷺ الأبواء ثم بواط ثم العشيرة.

عن أبي اسحاق قال كنت إلى جنب زيد بن أرقم فقيل له: كم غزا النبي ﷺ من غزوة؟.

قال: تسع عشرة.

قال: كم غزوت أنت معه؟

قال: سبع عشرة.

قلت: فأيهم كانت أول؟

قال: العشير، أو العسيرة، فذكرت لقتادة فقال العشيرة[(١)].

قال ابن حجر رحمه الله تعالى[(٢)]:

والأبواء (بفتح الهمزة وسكون الموحدة وبالمد) قرية من عمل الفرع بينها وبين الجحفة من جهة المدينة ثلاثة وعشرون ميلاً.

قيل سميت بذلك لما كان فيها من الوباء، وهي على القلب، وإلا لقيل الأوباء.

ثم قال والذي وقع في مغازي ابن اسحاق ما صورته:

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة العشيرة ١٤٥٣/٤ (ح/٣٧٣٣) ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب عدد غزوات النبي ﷺ ١٤٤٧/٣ (ح/١٢٥٤).

(٢) فتح الباري ٢٧٩/٧

* **غزوة ودان** (بتشديد المهملة) قال: وهي أول غزوات النبي ﷺ خرج من المدينة في صفر على رأس اثني عشر شهراً من مقدمه المدينة يريد قريشاً فوادع بني ضمرة بن بكر بن عبد مناة من كنانة وادعه رئيسهم مجدي بن عمرو النمري ورجع بغير قتال، قال ابن هشام وكان قد استعمل على المدينة سعد بن عبادة.

وليس بين ما وقع في السيرة وبين ما نقله البخاري عن ابن اسحاق اختلاف لأن الأبواء وودان مكانان متقاربان بينهما ستة أميال أو ثمانية، ولهذا وقع في حديث الصعب بن جثامة (وهو بالأبواء أو بودان)(١).

ووقع في مغازي الأموي حدثني أبي عن ابن إسحاق قال: خرج النبي ﷺ غازياً حتى انتهى إلى ودان وهي الأبواء.

وقال موسى بن عقبة: أول غزوة غزاها النبي ﷺ - يعني بنفسه - الأبواء.

ثم قال ابن حجر أيضاً بموضعه:

وذكر أبو الأسود في مغازيه عن عروة ووصله ابن عائذ من حديث ابن عباس، أن النبي ﷺ لما وصل إلى الأبواء بعث عبيدة بن الحارث في ستين رجلاً فلقوا جمعاً من قريش فتراموا بالنبل، فرمى سعد بن أبي وقاص بسهم وكان أول من رمى بسهم في سبيل الله.

وعند الأموي: يقال إن حمزة بن عبدالمطلب أول من عقد له رسوله الله ﷺ في الإسلام راية. وكذا جزم به موسى بن عقبة عن الزهري وأبومعشر قالوا: وكان حامل رايته أبو مرثد حليف حمزة وذلك في شهر رمضان من السنة الأولى، وكانوا ثلاثين رجلاً ليعترضوا عير قريش فلقوا أبا جهل في

---

(١) قلت: وحديث الصعب بن جثامة انه اهدى النبي ﷺ صيداً وهو محرم ورده، وأخذ منه تحريم الصيد على المحرم. اخرجه مسلم، كتاب الحج، باب تحريم الصيد على المحرم ٨٥/٢ (ح/١١٩٤).

جمع كثير فحجز بينهم مجدي[1].

قلت: قال ابن كثير في البداية[2] عن ابن إسحاق قال:

وبعض الناس يقول كانت راية حمزة أول راية عقدها رسول الله ﷺ لأحد من المسلمين، وذلك أن بعثه وبعث عبيدة كانا معاً فشبه ذلك على الناس.أ.هـ.

قلت: وقد أورد ابن إسحاق فيما نقل عن مغازيه شعراً لحمزة يدل على أن حمزة هو أول من عقدت له الراية، ولكن ابن هشام ينكر ذلك الشعر.

قال ابن حجر رحمه الله[3]: وهو ما نقله ابن كثير في البداية[4] عن ابن إسحاق:

وأما بواط (بفتح الموحدة وقد تضم، وتخفيف الواو، وآخره مهملة) جبل من جبال جهينة بقرب ينبع.

قال ابن إسحاق: ثم غزا في شهر ربيع الأول يريد قريشاً أيضاً حتى بلغ بواط من ناحية رضوى ورجع ولم يلق أحداً، ورضوى (بفتح الراء وسكون المعجمة مقصور) جبل مشهور عظيم بينبع.

وكان استعمل على المدينة السائب بن عثمان بن مظعون، وفي نسخة السائب بن مظعون، وعليه جرى السهيلي، وقيل سعد بن معاذ وفي البداية أنه كان ﷺ في مائتي راكب، وكان لواؤه مع سعد بن أبي وقاص وكان مقصده أن يعترض عيراً لقريش وكان فيه أمية بن خلف ومائة رجل وألفان وخمسمائة بعير.

وأما العشيرة[5] التي ذكرت في حديث الترجمة الذي نقلته عن

---

(١) أشار الهيثمي في مجمع الزوائد إلى هذه السرية ٦٧/٦.

(٢) البداية ٢٤٥/٣.

(٣) الفتح ٢٨٠/٧.

(٤) البداية ٢٤٦/٣.

(٥) قال النووي رحمه الله ١٩٥/١٢، في جميع نسخ صحيح مسلم العسير أو العشيرة (العين مضمونة والأول بالسين المهملة والثاني بالمعجمة) وقال القاضي في المشارق هي ذات العشيرة (بضم العين وفتح الشين المعجمة) وهي من أرض مدحج.. وانظر فتح الباري ٢٨٠/٧.

البخاري فكما قال ابن حجر لم يختلف أهل المغازي أنها (بالمعجمة والتصغير وآخرها هاء).

وقال في البداية[1]: قال ابن هشام: واستعمل على المدينة أبا سلمة بن عبدالأسد.

وقال ابن إسحاق: فنزل العشيرة من بطن ينبع فأقام بها جمادي الأولى وليال من جمادي الآخرة، ووادع فيها بني مدلج وحلفاءهم من بني ضمرة، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيداً.

ثم قال ابن كثير رحمه الله: وهذا الحديث - يقصد الحديث الذي ذكرته في أول البحث برواية البخاري - ظاهر في أن أول الغزوات العشيرة. ويقال بالسين وبهما مع حذف التاء وبهما مع المد، اللهم إلا أن يكون المراد أول غزاة شهدها مع النبي ﷺ زيد بن أرقم العشيرة وحينئذ لا ينفي أن يكون قبلها غيرها لم يشهدها زيد بن أرقم.

وبهذا يحصل الجمع بين ما ذكره محمد بن إسحاق وبين هذا الحديث والله أعلم.

وعن عمار بن ياسر قال: كنت أنا وعلي بن أبي طالب رفيقين في غزوة العشيرة من بطن ينبع، فلما نزلها رسول الله ﷺ أقام بها شهراً فصالح بها بني مدلج وحلفاءهم بني ضمرة فوادعهم[2].

* بدر الأولى

وأطلق عليها هذا الاسم لأن الرسول ﷺ اتجه إلى قريب من بدر كما يأتي.

قال ابن إسحاق[3]:

ثم لم يقم رسول الله ﷺ بالمدينة حين رجع من العشيرة إلا ليالي قلائل لا تبلغ العشرة حتى أغار كرز بن جابر الفهري على سرح المدينة، فخرج رسول الله ﷺ في طلبه حتى بلغ وادياً يقال له سفوان من ناحية بدر، وهي

(١) البداية ٣/٢٤٦.

(٢) البداية ٣/٢٤٧. وقال ابن كثير - وهذا حديث غريب من هذا الوجه - انتهى.

(٣) انظر البداية لابن كثير ٣/٢٤٧.

غزوة بدر الأولى، وفاته كرز فلم يدركه[1].

* سرية عبدالله بن جحش رضي الله عنه إلى نخلة

إن إرسال هذا البعث إلى نخلة، يمثل قوة للمسلمين يجب أن تفكر فيها مكة قبل أن تقدم على أي عمل.

ويمثل نية لابد من حسابها عند أعضاء دار الندوة بمكة، فهي تمثل عمقاً بالنسبة لمكة، فمحمد ﷺ لم يكتف بتهديدهم بتعرض قوافل قريش المتجهة إلى الشام شمالاً، بل قام بتهديد القوافل المتجهة إلى اليمن جنوباً، في منطقة لا يمكن أن يتصورها متصور في تلك الظروف.

إن مكة وأهلها متجهة بكل حواسها تراقب جهة الشمال، وما يأتي به الركبان من أخبار محمد ﷺ وتحركاته، فإذا بها تفاجأ بالضربة من الجنوب ضربة لم يكن في حسبانها أن تقع، ولم تتصور أن يصل إليها المسلمون.

فكان لهذا العمل الذي قام به رسول الله ﷺ ونفذه أصحابه رضي الله عنهم حيث استطاعوا أن يخفوا حركة هذه القوة أثر كبير في معركة بدر وقيام المشركين باستعراض لعضلاتهم وقواتهم.

* تاريخ السرية

قال ابن إسحاق وبعث رسول الله ﷺ عبدالله بن جحش بن رئاب الأسدي في رجب مقفلة من بدر الأولى وبعث معه ثمانية رهط من المهاجرين ليس فيهم من الأنصار أحد، وكتب له كتاباً وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه فيمضي لما أمره به، ولا يستكره من أصحابه أحداً فلما سار بهم يومين فتح الكتاب فإذا فيه إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة[2] بين مكة والطائف فترصد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارها.

فلما نظر في الكتاب قال سمعاً وطاعة وأخبر أصحابه بما في الكتاب وقال لقد نهاني أن استكره أحداً منكم فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب

---

(١) وذكرها ابن حجر في فتح الباري ٧/٢٨٠.
(٢) نخلة: موقع بين مكة والطائف.

فلينطلق، ومن كره ذلك فليرجع، أما أنا فماض لأمر رسول الله ﷺ فمضى ومضى معه أصحابه لم يتخلف منهم أحد وسلك على الحجاز حتى إذا كان بمعدن فوق الفرع يقال له بحران[1]، أضل سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان بعيراً لهما كانا يعتقبانه فتخلفا في طلبه، ومضى عبدالله بن جحش وبقية أصحابه حتى نزل نخلة، فمرت عير لقريش فيها عمرو بن الحضرمي وعثمان بن عبدالله بن المغيرة المخزومي وأخوه نوفل والحكم بن كيسان مولى هشام بن المغيرة.

فلما راهم القوم أمنوا وقالوا عمار[2] لا بأس عليكم منهم.

وتشاور الصحابة رضوان الله عليهم فيهم وذلك في آخر يوم من رجب فقالوا والله لئن تركتموهم هذه الليلة ليدخلن الحرم فليمتنعن به منكم ولئن قتلتموهم لتقتلنهم في الشهر الحرام فتردد القوم وهابوا الإقدام عليهم، ثم شجعوا أنفسهم عليهم وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم وأخذ ما معهم فرمى واقد بن عبدالله التميمي عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله، واستأسر عثمان بن عبدالله والحكم بن كيسان وأفلت من القوم نوفل بن عبدالله فأعجزهم وأقبل عبدالله بن جحش وأصحابه بالعير والأسيرين حتى قدموا على رسول الله ﷺ.

فلما قدموا على رسول الله ﷺ قال: ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام فوقف العير والأسيرين وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً فلما قال ذلك رسول الله ﷺ أسقط في أيدي القوم وظنوا أنهم قد هلكوا وعنفهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا.

وقالت قريش: قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام وسفكوا فيه الدم وأخذوا فيه الأموال وأسروا فيه الرجال، فقال من يرد عليهم من المسلمين ممن كان بمكة، إنما أصابوا ما أصابوا في شعبان.

وقالت يهود: تفاءل بذلك على رسول الله ﷺ عمرو بن الحضرمي قتله واقد بن عبدالله، عمرو عمرت الحرب، والحضرمي حضرت الحرب وواقد بن

---

(١) بحران: معدن بالحجاز من ناحية الفرع.

(٢) اي معتمرين.

عبدالله وقدت الحرب، فجعل الله ذلك عليهم لا لهم.

فلما أكثر الناس في ذلك أنزل الله تعالى على رسوله ﷺ قوله ﴿يسألونك عن الشهر الحرامِ قتالٍ فيه قل قتالٌ فيه كبير وصدٌ عن سبيل الله وكفر به والمسجدِ الحرام وإخراج أهله منه أكبرُ عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يُقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون، إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمت الله والله غفور رحيم ﴾[1].

قال ابن إسحاق:

فلما نزل القرآن بهذا الأمر وفرج الله عن المسلمين ما كانوا فيه من الشفق، قبض رسول الله ﷺ العير والأسيرين.

وبعثت قريش في فداء عثمان والحكم بن كيسان فقال رسول الله ﷺ لا نفديكموهما حتى يقدم صاحبانا - يعني سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان - فإنا نخشاكم عليهما، فإن تقتلوهما نقتل صاحبيكم.

فقدم سعد وعتبة فأفداهما رسول الله ﷺ فأما الحكم فأسلم وحسن إسلامه ومات في يوم بئر معونة شهيداً، وأما عثمان فلحق بمكة فمات بها كافراً[2].

---

(١) سورة البقرة آيات ٢١٧ - ٢١٨.

(٢) أخرج هذه القصة الطبراني كما قال ابن حجر في الإصابة ٢٧٨/٢.

قال: وروى الطبراني من طريق أبي السوار عن جندب بن عبدالله البجلي قال بعث رسول الله ﷺ عبدالله بن جحش على سرية ... وذكر الحديث.

قلت: وأبو السوار قال في التقريب ٤٣٢/٢ ثقة، وجندب له صحبة، انظر الإصابة ٢٥٠/١.

فبهذا يتصل الإرسال الذي في رواية ابن إسحاق عن عروة، وكذا أخرجها الطبري ٤١٠/٢ وما بعدها في التاريخ وذكر الروايات السابقة.

وقال في مجمع الزوائد ٦٦/٦ - ٦٧ تحت عنوان باب في أول أمير كان في الإسلام. قال رواهما - أي قصة سرية سعد وقصة عبدالله بن جحش - الطبراني بإسناد واحد وهو إسناد حسن.

وقال ابن كثير رحمه الله في البداية ٢٥١/٣ بعد أن ذكر رواية ابن إسحاق للسرية. قال: قد روينا شواهد مسندة لما ذكره ابن إسحاق، وذكر سنداً رواه الحافظ أبومحمد بن أبي حاتم وينتهي إلى أبي السوار عن جندب وقد تقدم قبل قليل.

فهذه القصة ثابتة من حيث السند، ومن حيث الاتصال فلا مطعن فيها ولا كلام. والله أعلم.

الدروس والعبـــر

أولاً : يسعى المسلم فى إيجاد كيان الأمة، وقيام شأنها ببناء الدولة الجامعة لقدرات المؤمنين، المنفذة لأحكام كتاب الله وسنة رسوله الأمين محمد ﷺ.

ثانيـاً: يحافظ المؤمن على دولة الإسـلام ويجاهد أعداء الدين ويقف فى وجوههم وينزل العقاب بهم إن وقفوا فى طريق دعوته، ومنعوا من انتشارها وتبليغها للناس جميعاً فى كل مكان وزمان.

ثالثاً: يعلم المسلم أن الإسـلام هو الدين الحق وأن ما عداه سواءً كانت أديان قديمة محرفة، أو اجتهادات بشر ضالة، فإنها باطل وجاهلية يجب عليه محاربتها وإزالتها عن طريق الإسلام ودعوته.

رابعاً: يتحرك المسلم بالإسـلام إلي الناس جميعاً فى كل موقع، فالإسلام دين الله الذى ارتضاه لعباده الذين خلقهم، ولا يجوز أن يمنع دين الله عن عباد الله.

خامساً: يبتعد المؤمن عن مواقع الزلل الفكرى، بل يقف أمام هجمات العدو الفكرية، وأمام المنهزمين الذين يحرفون الكلم عن مواضعه فلا يهادنهم، او يلوي النصوص عن معناها ليوافق هواهم.

سادساً: يمارس المؤمن ذكاءه الدعوى فى ترتيب أمور دينه، ومتطلبات دعوته فيبحث عن انجع الوسائل للدفاع عن الإسلام، وإنزال الأذى بعدوه.

سابعاً: يُظهر المؤمن القوة والصلابة والقدرة أمام عدوه إرهاباً له وتخويفاً حتى يُسلّم بأن الإسلام هو الحق الذى لا جدال فيه فلا يقف فى وجهه أحد.

ثامناً: لا يُكره المسلم احداً على الدخول فى الإسلام فلا إكراه فى الدين، لأن

الاقتناع هو طريق الإيمان، فالله تعالى لا يقبل من الأعمال والأقوال إلا ما كان خالصاً لوجهه الكريم.

تاسعاً: تظهر شجاعة المؤمن فى مواقف الشدة، منفذاً للأمر الذى توجه له لا يتردد ولا يخاف، لأنه يعلم أن الإسلام حق، وأن الله ناصره على عدوه.

عاشراً: يمارس المسلم أساليب الإخفاء والتمويه عن العدو فهو يستعين على قضاء أموره بالكتمان.

الحادي عشر: يشوه اليهود والمشركون ومن تابعهم كل موقف للإسلام وأهله، ويستغلون كل فرصة ليفسروا من خلالها الأحداث تشويهاً للمسلمين، وتنفيراً عن الإسلام.

الغزوات

* غزوة بدر الكبرى

* إرسال العيون لجمع الأخبار

وقد اتخذ النبي ﷺ بعض أصحابه عيوناً له يتجولون في الصحراء على طريق قوافل قريش يأتونه بأخبارها.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال:

بعث رسول الله ﷺ بسيسة عيناً ينظر ما صنعت عير أبي سفيان فجاء وما في البيت أحد غيري وغير رسول الله ﷺ قال: لا أدري ما استثنى بعض نسائه قال: فحدثه بالحديث.

قال فخرج رسول الله ﷺ فقال:

(إن لنا طُلبة فمن كان ظهره حاضراً فليركب معنا، فجعل رجال يستأذنونه في ظهرانهم في علو المدينة، قال: لا، إلا من كان ظهره حاضراً)[1].

وخرج رسول الله ﷺ ومعه الصحابة رضوان الله عليهم وكان عددهم ما بين الثلاث مائة وثلاثة عشر أو سبعة عشر رجلاً[2] في رمضان من السنة الثانية للهجرة[3].

قال تعالى ﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون﴾[4].

* أبوسفيان يعلم

علم أبوسفيان بالخطر الذي يحيط به وبقافلته[5] فاتخذ أمرين:

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد ٣/١٥٠٩ - ١٥١٠ (ح/١٩٠١).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد، باب الإمداد بالملائكة، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه ٣/١٣٨٣ (ح/١٧٦٣).

(٣) التلخيص الحبير ٤/٨٩ (ح/١٨٢٦).

(٤) سورة الأنفال آية ٥.

(٥) كان أبوسفيان يسأل عن أخبار المسلمين فوجد على ماء بدر من أخبره أن راكبين أناخا بعيريهما بقرب بئر بدر واستقيا ثم انطلقا، فجاء إلى مكان بروك البعيرين فوجد بعراً ففته فرأى فيه أثر النوى، فعلم أنهما من إبل المدينة فأخذ الاحتياطات اللازمة. انظر السيرة النبوية - ابن هشام - ٢/٦٠٦ - ٦٠٧ بسند صحيح.

الأول: أخذ طريق ذات اليمين على ساحل البحر من جهة ينبع.

الثاني: أرسل ضمضم بن عمرو الغفاري إلى مكة يستنجد قريشاً.

* قريش تخرج رياءً وبطراً

ووصل ضمضم بالخبر إلى مكة، وعندما دخلها وقف على بعيره وقد جدع أنفه، وحول رحله، وشق قميصه، وهو يصيح يا معشر قريش، اللطيمة اللطيمة أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد وأصحابه، لا أرى أن تدركوها الغوث الغوث[1].

وخرجت قريش مسرعة لإنقاذ عيرها ورجالها، ولتأديب المسلمين حتى لا يتعرضوا لقوافلها مرة أخرى[2].

* سلامة العير

وكان لاتخاذ التدبير من أبي سفيان بتغيير الطريق أثره فقد نجا من ملاحقة النبي ﷺ وأصحابه له.

لذا أرسل أبوسفيان إلى قريش وهم بالجحفة - قرب رابغ - يخبرهم فيها بنجاته، وطلب منهم الرجوع إلى مكة[3].

* ولم ترجع قريش

لقد همّت قريش بالرجوع إذ الهدف هو سلامة العير إلا أن أبا جهل رفض ذلك قائلاً: والله لا نرجع حتى نرد بدراً، فنقيم بها ثلاثاً، فننحر الجزور، ونطعم الطعام، ونسقي الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرتنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبداً، فامضوا[4]. وكان عدد قريش حوالي الف رجل، بعد أن رجع بعضهم[5].

---

(١) السيرة النبوية - ابن هشام - ٢/٦٠٦ - ٦٠٧ بسند صحيح.
(٢) السيرة النبوية - ابن هشام - ١/٦١٢ بسند صحيح مرسل.
(٣) السيرة النبوية - ابن هشام - ٢/٣٠٩ - ٣١٠.
(٤) تفسير الطبرى ١٣/٥٧٩ بتحقيق احمد شاكر، بإسناد حسن. وانظر السيرة النبوية - ابن هشام - ٢/٣١٠.
(٥) أخرجه مسلم - وتقدم - ٣/١٣٨٤ (ح/١٧٦٣).

* كراهية لقاء العدو من بعض المؤمنين

قال تعالى ﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون، يجادلونك في الحق بعدما تبين كأنما يُساقون إلى الموت وهم ينظرون، وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يُحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين، ليُحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون﴾(١).

* مشاورته ﷺ لأصحابه رضوان الله عليهم

كان الأنصار رضوان الله عليهم قد بايعوا الرسول ﷺ في بيعة العقبة الثانية على أن يحموه في بلدهم، ولم يبايعوه على القتال معه خارج المدينة لذلك اقتصرت السرايا التي سبقت بدر على المهاجرين، ونظراً لوجود الأنصار مع المهاجرين ببدر وتفوقهم العددي الكبير فقد أراد الرسول ﷺ معرفة رأيهم في الموقف الجديد، فكان أن شاور أصحابه عامة وقصد الأنصار خاصة.

وقد روى ابن إسحاق خبر المشورة بسند صحيح قال:

«فاستشار الناس وأخبرهم عن قريش، فقام أبوبكر الصديق فقال وأحسن، ثم قام عمر بن الخطاب فقال وأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو فقال يا رسول الله امض لما أراك الله فنحن معك والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى: (اذهب انت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون)، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه.

فقال له رسول الله ﷺ خيراً ودعا له.

ثم قال رسول الله ﷺ أشيروا عليَّ أيها الناس؟ وإنما يريد الأنصار وذلك أنهم كانوا عدد الناس، وأنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا: يا رسول الله إنا براء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمتنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا.

---

(١) سورة الأنفال آيات ٥ – ٧.

فكان رسول الله ﷺ يتخوف الا تكون الأنصار ترى عليها نصره إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم.

فلما قال ذلك رسول الله ﷺ قال له سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: أجل.

قال: فقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة لك. فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصبُرٌ في الحرب، صُدقٌ عند اللقاء لعلّ الله يريك منا ما تقرّ به عينك، فسر على بركة الله. قال: فسُرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد ونشطه، ثم قال: (سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم)[1].

فلما رأى النبي ﷺ طاعة الصحابة وشجاعتهم واجتماعهم على القتال وحبهم للتضحية من أجل الإسلام بدأ بتنظيم جنده، فأعطى اللواء - وكان أبيضاً - إلى مصعب بن عمير، وأعطى رايتين سوداوين لعلي بن أبي طالب وسعد بن معاذ، وجعل على الساقة قيس بن أبي صعصعة[2].

* قريش تختلف

وقد ظهرت الخلافات في جيش المشركين حيث كان عتبة بن ربيعة يريد العودة دون قتال المسلمين، لئلا تكثر الثارات بين الطرفين وبينهم أرحام وقرابات، أما أبوجهل فكان مصراً على القتال، وقد غلب رأيه أخيراً[3] فقام

---

(١) البداية والنهاية (٣/٢٦٣) من رواية ابن إسحاق بإسناد صحيح.
وقال ابن كثير: وله شواهد من وجوه كثيرة. فمن ذلك رواية البخاري والنسائي وأحمد ويشير ابن كثير إلى رواية البخاري ورواية الإمام أحمد لقول المقداد بن الأسود. الفتح ٧/٢٨٧ ومسند أحمد ٥/٢٥٩ (ح/٣٦٩٨) أحمد شاكر.

(٢) البداية والنهاية ٣/٢٦٠ من طريق ابن إسحاق دون إسناد. وانظر زاد المعاد ٢/٨٥.

(٣) تاريخ الطبري ٢/٤٤٣، ٤٢٤ - ٤٢٥ بسند حسن.

المشركون بإرسال عمير بن وهب الجمحي وكان من أشدهم شراسة على المسلمين للتعرف على عدد المسلمين فأخبرهم بعددهم(١).

وأخذ أبوجهل يدعو على رسول الله ﷺ يقول: «اللهم أينا كان أقطع للرحم، وأتانا بما لا نعرف فأحنه الغداة» فكان ذلك استفتاحه الذي أشارت إليه الآية الكريمة: ﴿إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح وإن تنتهوا فهو خير لكم وإن تعودوا نعد ولن تُغني عنكم فئتكم شيئاً ولو كثرت وأن الله مع المؤمنين﴾(٢).

* ميدان معركة بدر

وفي ميدان معركة بدر جرت أحداث الغزوة ضمن النقاط الآتية:

– وصل المسلمون إلى ميدان معركة بدر فنزل النبي ﷺ في طرف الوادي، فجاءه الحباب بن المنذر رضي الله عنه فأشار عليه بأن يترك مياه بدر خلفه لئلا يستفيد منها المشركون، فقبل النبي ﷺ مشورته(٣).

– وصف علي رضي الله عنه في رواية صحيحة كيف بات المسلمون ليلة السابع عشر من رمضان ببدر وأمامهم معسكر المشركين قال: لقد رأيتنا يوم بدر، وما منا إلا نائم، إلا رسول الله ﷺ فإنه كان يصلي إلى شجرة ويدعو حتى أصبح... ثم إنه أصابنا من الليل طش(٤) من مطر، فانطلقنا تحت الشجر والحجف(٥) نستظل تحتها من المطر، فلما طلع الفجر نادى: (الصلاة عباد

---

(١) البداية والنهاية ٢٦٩/٣ من طريق ابن إسحاق بإسناد جيد حيث رواه عن أبي إسحاق ابن يسار وغيره من أهل العلم عن أشياخ من الأنصار، ويغلب على الظن أن شيوخ إسحاق بن يسار فيهم من الصحابة، ولو تحقق ذلك فإن الحديث صحيح لأن جهالة الصحابي لا تضر خاصة وهم كثرة، وانظر الإصابة ٣٦/٣.

(٢) سورة الأنفال آية ١٩.

والحديث أخرجه الحاكم في المستدرك ٣٢٨/٢ والطبري في التفسير ٤٥٤/١٣ تحقيق أحمد شاكر، كلاهما بإسناد صحيح من حديث عبدالله بن ثعلبة بن أبي صعير العذري من صغار الصحابة لم يثبت له سماع لكن مرسل الصحابي ليس علة قادحة لأن الصحابة كلهم عدول.

(٣) السيرة النبوية – ابن هشام – ٣١٢/٢ – ٣١٣ بإسناد منقطع، وبإسناد مرسل، وانظر مرويات غزوة بدر/ ١٦٤ – ١٦٥، والسيرة النبوية من مصادرها الأصلية/ ٣٤٥.

(٤) طش: القليل من المطر.

(٥) الحجف: التروس من جلود ليس فيها خشب ولا عقب. الفتح الرباني ٣١/٢١.

الله)، فجاء الناس من تحت الشجر والحجف، فصلى بنا رسول الله ﷺ وحرض على القتال[1].

ومصداق ذلك في قوله تعالى:

﴿إذ يُغَشِيكُمُ النُعاس امنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجس الشيطان وليَربط على قلوبكم ويُثَبتَ به الأقدام﴾[2].

- وفي صبيحة يوم السابع عشر من رمضان نظّم رسول الله ﷺ جيشه في صفوف كصفوف القتال[3]. وهو أسلوب جديد في القتال يخالف ما جرت عليه عادة العرب من القتال بأسلوب الكرّ والفر، وهو الأسلوب الذي قاتل وفقه المشركون ببدر، ولا شك أن نظام الصفوف يقلل من خسائر المسلمين، ويعوض عن قلة عددهم أمام المشركين، وفيه مزية السيطرة على القوة بكاملها، وتأمين العمق للجيش، حيث تبقى دائماً بيد القائد قوة احتياطية في الخلف يعالج بها المواقف التي ليست بالحسبان[4].

* تحريض النبي ﷺ للمسلمين

وجاء المشركون فقال رسول الله ﷺ (لا يقدمن أحد منكم إلى شيء حتى أكون أنا دونه) فدنا المشركون.

فقال رسول الله ﷺ (قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض)[5].

* رمي النبي ﷺ وجوه الكفار بالتراب

وطلب النبي ﷺ من علي رضي الله عنه فقال له:

(أعطني حصاً من الأرض فناوله حصى عليه تراب فرمى به وجوه القوم

---

(١) المسند بإسناد صحيح الفتح الرباني ٢١/٢٠، ٣٦.

(٢) سورة الأنفال آية ١١.

(٣) المسند بإسناد صحيح ٥/٤٢٠ والهيثمي: مجمع الزوائد ٦/٧٥ من رواية الإمام أحمد بإسناد صحيح، ويذكر ابن عساكر أن المحفوظ أن وقعة بدر كانت يوم الجمعة. السيرة ٥٣/٥٤ أما الرواية التي تذكر أنها يوم الإثنين فهي ضعيفة من طريق ابن لهيعة. المعجم الكبير للطبراني ١٢/٢٣٧.

(٤) الرسول القائد ٧٨ - ٧٩.

(٥) أخرجه مسلم، كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد ٣/١٥١٠ (ح/١٩٠١).

فلم يبق مشرك إلا دخل في عينيه من ذلك التراب شيء)[1].

قال تعالى: ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى وليُبلي المؤمنين منه بلاءً حسناً إن الله سميع عليم ﴾[2].

* إتخاذ موقع حصين للقيادة

وعندما استقروا في المكان، قال سعد بن معاذ رضي الله عنه مقترحاً «يا نبي الله، ألا نبني لك عريشاً[3] تكون فيه، ونعدُّ عندك ركائبك، ثم نلقى عدونا فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن ورائنا من قومنا، فقد تخلف عنك أقوام يا نبي الله ما نحن بأشد لك حباً منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك يمنعك الله بهم يناصحونك ويجاهدون معك» فوافق الرسول ﷺ على هذا الاقتراح[4].

* وبدات المعركة بالمبارزة

عن أبي ذر رضي الله عنه قال:

نزلت - هذان خصمان اختصموا في ربهم - في ستة من قريش: علي وحمزة وعبيدة بن الحارث وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة[5].

ذكر ابن هشام في السيرة عن ابن إسحاق[6] وابن حجر[7] عنه وفيها:

«... ثم خرج عتبة بن ربيعة بين أخيه شيبة بن ربيعة وابنه الوليد بن عتبة حتى إذا فصل من الصف دعا إلى المبارزة فخرج إليه فتية من الأنصار ثلاثة وهم عوف ومعوذ أبناء الحارث - وأمهما عفراء - ورجل يقال هو عبدالله بن

---

(١) مجمع الزوائد ٨٤/٦ وقال رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.

(٢) سورة الأنفال آية ١٧.

(٣) العريش - خيمة من سعف النخل.

(٤) البداية والنهاية ٣١٢/٣.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب قتل أبي جهل ١٤٥٩/٤ (ح/٣٧٤٨)

(٦) السيرة النبوية - لابن هشام. تحقيق السقاء ٦٢٥/١.

(٧) فتح الباري ٢٩٨/٧ وقد أخرج هذه القصة الإمام احمد رحمه الله. انظر المسند تحقيق شاكر ١٩٣/٢. وقال اسناده صحيح.

رواحة فقالوا من أنتم؟

فقالوا: رهط من الأنصار.

قالوا: ما لنا بكم حاجة.

ثم نادى مناديهم يا محمد أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا.

فقال رسول الله ﷺ : قم يا عبيدة بن الحارث، قم يا حمزة، قم يا علي فلما قاموا ودنوا منهم.

قالوا: من أنتم؟

قال عبيدة: عبيدة، وقال حمزة: حمزة، وقال علي: علي.

قالوا: نعم أكفاء كرام.

فبارز عبيدة – وكان أسن القوم، عتبة بن ربيعة، وبارز حمزة شيبة بن ربيعة، وبارز علي الوليد بن عتبة.

فأما حمزة فلم يمهل شيبة أن قتله، وأما علي فلم يمهل الوليد أن قتله واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين كلاهما أثبت صاحبه وكرَّ حمزة وعلي بأسيافهما على عتبة فدفدفا عليه، واحتملا صاحبهما، فحازاه إلى أصحابه.

*** دعاء النبي ﷺ في العريش**

لقد بات ليلته تلك[1] يتضرع إلى الله تعالى أن ينصره، ومن دعائه كما جاء في رواية عند مسلم[2]: (اللهم انجز لي ما وعدتني، اللهم آت ما وعدتني اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض) وتقول الرواية: فما زال يهتف بربه حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبوبكر، فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه، وقال يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله عزوجل ﴿**إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين**﴾[3]، فأمده الله بالملائكة.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٢٧١/٢، وقال شاكر صحيح.

(٢) أخرجه مسلم – وتقدم – ١٣٨٤/٣ (ح/١٧٦٣).

(٣) سورة الأنفال آية ٩.

ومما رواه البخاري[1] من دعائه في ذلك اليوم: (اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن تشأ لا تعبد بعد اليوم)، وتقول الرواية: فأخذ أبوبكر بيده فقال: حسبك يا رسول الله، ألححت على ربك، وهو يثب في الدرع فخرج وهو يقول: **﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾**[2].

*** حب متدفق**

وعندما وقف المسلمون في صفوف القتال، أخذ الرسول ﷺ في تعديل صفوفهم وفي يده قِدْح، فطعن به سَوَاد بن غَزِية رضى الله عنه في بطنه، لأنه كان متنصلاً من الصف، وقال له (استو يا سواد)، فقال سواد: يا رسول الله أوجعتني فأقدني، فكشف عن بطنه، وقال: استقد، فاعتنقه سواد وقبل بطنه فقال: (ما حملك على هذا يا سواد؟) قال: يا رسول الله: قد حضر ما ترى فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدك جلدي. فدعا له رسول الله ﷺ بخير[3].

*** مشاركة النبي ﷺ في القتال**

روى الإمام أحمد[4] عن علي، قال: «لقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله ﷺ وهو أقربنا من العدو، وكان من أشد الناس يومئذ بأساً»، وفي موضع آخر بالسند نفسه: «لما حضر البأس يوم بدر، اتقينا برسول الله ﷺ، وكان من أشد الناس، ما كان أو لم يكن أحد أقرب إلى المشركين منه»[5].

وروى مسلم[6] أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يوم بدر: (لا يتقدمن أحد منكم إلى شيء حتى أكون أنا دونه). وقال ابن كثير[7]: «وقد قاتل بنفسه

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب إذ تستغيثون ربكم ١٤٥٦/٣ (ح/٣٧٣٧).
(٢) سورة القمر آية ٤٥.
(٣) الإصابة ٩٥/٢ ومجمع الزوائد ٢٨٩/٦ وقال رجاله ثقات. ولا يسلم له ذلك. انظر مرويات غزوة بدر ١٨٣.
(٤) أخرجه في المسند ٦٤/٢، وقال شاكر إسناده صحيح.
(٥) المرجع السابق ٢٢٨/٢ وقال شاكر إسناده صحيح.
(٦) أخرجه مسلم ١٥١٠/٣ (ح/١٩٠١) وتقدم
(٧) البداية والنهاية ٣٠٦/٣.

الكريمة قتالاً شديداً ببدنه، وكذلك أبوبكر الصديق، كما كانا في العريش يجاهدان بالدعاء والتضرع، ثم نزلا فحرضا وحثا على القتال، وقاتلا بالأبدان جمعاً بين المقامين الشريفين».

وروى ابن أبي حاتم بإسناده إلى عكرمة أنه قال: لما نزلت «سيهزم الجمع ويولون الدبر»، قال: عمر: أي جمع يهزم؟ أي جمع يغلب؟ قال عمر: فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب في الدرع، وهو يقول: «سيهزم الجمع ويولون الدبر» فعرفت تأويلها يومئذ[1].

* وعمير مستجيب

وفي روايه عند مسلم[2] أنه عندما دنا المشركون قال النبي ﷺ (قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض)، وعندما سمع ذلك عمير بن الحُمَام الأنصاري، قال: «يا رسول الله: أجنة عرضها السماوات والأرض؟ قال: (نعم) قال: بَخٍ بَخٍ[3]. فقال رسول الله ﷺ: (ما يحملك على قولك بَخٍ بَخٍ) قال: لا والله يا رسول الله! إلا رجاء أن أكون من أهلها، قال: (فإنك من أهلها)، فأخرج تمرات من قرنه[4] فجعل يأكل منهن. ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه، إنها لحياة طويلة، قال: فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قتل»..

* مشاركة الملائكة في بدر

وقد شاركت الملائكة وقاتلت يوم بدر مع المسلمين.

قال تعالى: ﴿ ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون، إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يُمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة مُنزلين، بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مُسَومين، وما جعله الله إلا بُشرى

(١) تفسير القرآن – ابن كثير – ٧/٤٥٧.
(٢) أخرجه مسلم ٣/١٥٠٩ – ١٥١١ (ح/١٩٠١) وتقدم.
(٣) كلمة تُقال في مواضع الإعجاب والسرور.
(٤) جعبته التي يضع فيها السهام.

لكم ولِتَطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني مُمِدُّكُم بالف من الملائكة مُردفين، وما جعله الله إلا بُشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم، إذ يُغشيكم النُعاس أمنةً منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويُذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويُثبت به الأقدام ﴾[٢].

فهذه الآيات المتقدمة تتحدث عن مشاركة الملائكة في غزوة بدر ولم تذكر أمر قتالهم ولكنه يأتي في سورة الأنفال قوله تعالى: ﴿إذ يُوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرُعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان ﴾[٣].

ليبين مشاركتهم في القتال يوم بدر

- وقد ورد في السنة ما يبين مشاركة الملائكة في القتال يوم بدر

قال الإمام[٤] مسلم في أثناء حديث عن غزوة بدر من حديث ابن عباس قال: بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس يقول أقدم حيزوم[٥]، فنظر إلى المشرك أمامه فخر مستلقياً فنظر إليه فإذا هو قد خطم[٦] أنفه وشق وجهه كضربة السوط فاخضر ذلك أجمع، فجاء الأنصاري فحدث بذلك رسول الله ﷺ فقال: (صدقت، ذلك من مدد السماء).

---

(١) آل عمران آيات ١٢٣ - ١٢٦.

(٢) الأنفال آيات ٩ - ١١.

(٣) الأنفال آية ١٢.

(٤) أخرجه مسلم، كتاب الجهاد، باب الإمداد بالملائكة ٣/١٣٨٤ (ح/١٧٦٣).

(٥) قال النووي: حيزوم (هو بحاء مهملة مفتوحة ثم مثناة تحت ساكنة ثم زاي مضمومة ثم واو ثم ميم) قال القاضي وقع في رواية العذري حيزون بالنون والصواب الأول وهو المعروف لسائر الرواة وهو اسم فرس الملك. وقال في النهاية ١/٤٦٧ في حديث بدر أقدم حيزون جاء في التفسير أنه اسم فرس جبريل عليه السلام.أ.هـ.

(٦) قال النووي: الخطم الأثر على الأنف وهو بالخاء المعجمة، أ.هـ.

وفي المسند من حديث طويل وفيه[١]:

فجاء رجل من الأنصار قصير بالعباس بن عبدالمطلب أسيراً فقال العباس: يا رسول الله إن هذا والله ما أسرني لقد أسرني رجل أجلح من أحسن الناس وجهاً على فرس أبلق ما أراه في القوم، فقال الأنصاري أنا أسرته يا رسول الله فقال (أسكت، فقد أيدك الله بملك كريم)[٢].

* مصرع أبي جهل

عن عبدالرحمن بن عوف رضى الله عنه أنه قال: «إني لفي الصف يوم بدر إذ التفت، فإذا عن يميني وعن يساري فتيان حديثا السن، فكأني لم آمن بمكانهما، إذ قال لي أحدهما سراً من صاحبه: يا عم، أرني أبا جهل، فقلت: يا ابن أخي، فما تصنع به؟ قال: أخبرت أنه يسب رسول الله ﷺ قال: والذي نفسي بيده لئن رأيته لا يفارق سوادي سواده حتى يموت الأعجل منا فتعجبت لذلك. قال: وغمزني الآخر فقال لي مثلها، فلم أنشب أن نظرت إلى أبي جهل يجول في الناس، فقلت: ألا تريان؟ هذا صاحبكما الذي تسألاني عنه، قال: فابتدراه بسيفيهما فضرباه حتى قتلاه، ثم انصرفا إلى رسول الله ﷺ فقال: أيكما قتله؟ فقال كل واحد منهما: أنا قتلته، قال: هل مسحتما سيفيكما؟ فقالا: لا. فنظر رسول الله ﷺ إلى السيفين، فقال: كلاكما قتله وقضى رسول الله ﷺ بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح، والرجلان معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن عفراء»[٣].

وروى البخاري[٤] أن النبي ﷺ قال: عندما انجلت المعركة: (من ينظر ما

---

(١) المسند بتحقيق أحمد شاكر ١٩٤/٢ (ح/٩٤٨). وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح، وقد تفرد بطوله الإمام أحمد وروى أبوداود بعضه من حديث إسرائيل قال ابن كثير في البداية ٢٧٧/٣ - ٢٧٨ هذا سياق حسن. وهو في مجمع الزوائد ٧٥/٦ - ٧٦ وقال رواه أحمد والبزار ورجال أحمد رجال الصحيح غير حارثة بن مضرب وهو ثقة - قلت وهو كما قال.

(٢) الذي انحسر الشعر عن جانبي رأسه/ النهاية ٢٨٤.

(٣) أخرجه البخاري. كتاب المغازي، باب قتل أبي جهل ١٤٦٤/٤ (ح/٣٧٦٦).

(٤) أخرجه البخاري بموضعه ١٤٥٨/٤ (ح/٣٧٤٥).

قال ابن حجر: وعفراء والدة معاذ، واسم أبيه الحارث. وأما ابن عمرو بن الجموح فليس اسم أمه عفراء، وإنما أطلق عليه تغليباً، ويحتمل أن تكون أم معوذ أيضاً تسمى عفراء فتح الباري ٢٩٦/٧.

صنع أبوجهل؟) فانطلق ابن مسعود، فوجده قد ضربه ابنا عفراء حتى برد. قال أنت أبوجهل؟ قال: فأخذ بلحيته ثم قال: وهل فوق رجل قتلتموه أو رجل قتله قومه؟.

وفي رواية أحمد[1] أن الرسول ﷺ ذهب مع ابن مسعود ليرى جسد أبي جهل، وقال: (كان هذا فرعون هذه الأمة).

وفي رواية ابن إسحاق[2] إن أبا جهل قال لابن مسعود عندما جثا عليه «لقد ارتقيت مرتقى صعباً يا رويعي الغنم».

* مصرع أمية بن خلف

عن عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه قال:

كاتبت[3] أمية بن خلف كتاباً بأن يحفظني في صاغيتي[4] بمكة واحفظه في صاغيته بالمدينة فلما ذكرت «الرحمن» قال لا أعرف الرحمن كاتبني باسمك الذي كان في الجاهلية فكاتبته عبد عمرو.

فلما كان يوم بدر خرجت إلى جبل لأحرزه حين نام الناس، فأبصره بلال، فخرج حتى وقف على مجلس من الأنصار، فقال: أمية بن خلف! لا نجوت إن نجا أمية.

فخرج معه فريق من الأنصار في آثارنا، فلما خشيت أن يلحقونا خلفت لهم ابنه لأشغلهم فقتلوه، ثم أبوا حتى يتبعونا - وكان رجلاً ثقيلاً - فلما أدركونا قلت له: أبرك فبرك فألقيت عليه نفسي لا منعه، فتجللوه[5] بالسيوف

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٣١٦/٥ (ح/٣٨٢٤) وقال شاكر ضعيف.

(٢) السيرة النبوية - ابن هشام - ١٣٥/٢ معلقاً.

(٣) كاتبت: وفي رواية الإسماعيلي عاهدت أمية بن خلف وكاتبته.

(٤) صاغيتي: الصاغية (بصاد مهملة وغين معجمة) خاصة الرجل مأخوذ من صغى إليه إذا مال. قال الأصمعي: صاغية الرجل كل من يميل إليه ويطلق على الأهل والمال. الفتح ٤٨٠/٤.

(٥) فتجللوه: بالجيم أي غشوه كذا للأصيلي ولأبي ذر، ولغيرهما بالخاء المعجمة أي ادخلوا أسيافهم خلاله حتى وصلوا إليه وطعنوه بها من تحتي، من قولهم خللته بالرمح واختللته إذا طعنته به، وهذا أشبه بسياق الخبر. ا.هـ من الفتح ٤٨٠/٤.
قال ابن حجر أيضاً: ٢٨٤/٧. ذكر الواقدي أن الذي قتله - خبيب وهو بالمعجمة وموحدة مصغرة ابن إساف بكسر الهمزة ومهملة خفيفة الأنصاري. وقال ابن اسحاق: قتله رجل من بني مازن من الأنصار. وقال ابن هشام يقال: اشترك فيه معاذ بن عفراء وخارجة بن زيد رضي الله عنهم.

من تحتي حتى قتلوه، وأصاب أحدهم رجلي بسيفه. وكان عبدالرحمن يُري الصحابة ذلك الأثر في ظهر قدمه.

* عدد قتلى المشركين

وقد قُتل من المشركين سبعون من قادتهم والكبراء فيهم[١].

* رمي المشركين في قليب بدر ومخاطبته ﷺ لهم

وقد ورد أن الرسول ﷺ أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلاً من صناديد قريش فقذفوا في طَوِيٍّ من أطواء بدر خبيث مخبث، وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاث ليال، فلما كان ببدر اليوم الثالث أمر براحلته فشد عليها رحلها ثم مشى واتبعه أصحابه، وقالوا: ما نرى ينطلق إلا لبعض حاجته، حتى قام على شفة الركيَّة فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: (يا فلان بن فلان، يا فلان بن فلان، أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله؟ فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟) فقال عمر: «يا رسول الله، ما تكلم من أجساد لا أرواح لها» فقال رسول الله ﷺ (والذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم)[٢].

* موقف إيماني عظيم

وعندما ألقوا في القليب زعماء مكة، وفيهم عتبة بن ربيعة، نظر رسول الله ﷺ إلى وجه ابنه أبي حذيفة، فإذا هو كئيب قد تغير لونه، فقال له النبي ﷺ (لعلك قد دخلك من شأن أبيك شيء؟) فقال: «لا والله يا رسول الله، ما شككت في أبي ولا في مصرعه، ولكني كنت أعرف من أبي رأياً وحلماً وفضلاً، فكنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام، فلما رأيت ما أصابه، وذكرت ما مات عليه من كفر، بعد الذي كنت أرجو له، أحزنني ذلك. فدعا له رسول الله ﷺ بخير وقال له خيراً»[٣].

---

(١) أخرجه مسلم، باب الجهاد، باب الإمداد بالملائكة ١٣٨٣/٣ - ١٣٨٥ (ح/١٧٦٣).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب قتل أبي جهل ١٤٦١/٤ (ح/٣٧٥٧) وأخرجه مسلم كتاب الجنة، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار ٢٢٠٤/٤ (ح/٢٨٧٥).

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٢ - ٣٤٢. والبداية ٢٩٤/٣ومرويات غزوة بدر ٢٦٨.

* خبر الغزوة في المدينة

وقد أرسل النبي ﷺ زيد بن حارثة وعبدالله بن أبي رواحة ليزفا البشرى إلى أهل المدينة. وقد تلقوا النبأ بسرور بالغ مشوب بالحذر من أن لا يكون مؤكداً، قال أسامة بن زيد: «فوالله ما صدقت حتى رأينا الأسارى»[1] ودهشت سودة رضي الله عنها عندما رأت سهيل بن عمرو ويداه معقودتان إلى عنقه بحبل فقالت: أبا يزيد أعطيتم بأيديكم الا متم كراماً، فقال رسول الله ﷺ: (أعلى الله وعلى رسوله؟!!) - أي تؤلبين - فقالت: «يا رسول الله، والذي بعثك بالحق ما ملكت حين رأيت أبا يزيد مجموعة يداه إلى عنقه بالحبل أن قلت ما قلت»[2].

* خبر المعركة في مكة

وكان أول من قدم مكة بمصاب قريش الحيسمان بن عبدالله الخزاعي فقالوا له ما وراءك؟ قال: قتل عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبوالحكم بن هشام وأمية بن خلف وزمعة بن الأسود ومنبه وأبوالبختري بن هشام فلما جعل يعدد أشراف قريش.

قال صفوان بن أمية: والله إن يعقل هذا، فسلوه عني؟

فقالوا: ما فعل صفوان بن أمية؟

قال: هو ذاك جالس في الحجر، قد والله رأيت أباه وأخاه حين قتلا.

وقال موسى بن عقبة: ولما وصل الخبر إلى أهل مكة وتحققوه قطعت النساء شعورهن وعقرت خيول كثيرة ورواحل[3].

---

(١) رواه البيهقي كما عند ابن كثير في البداية ٣/٣٢٤ وصحح إسناده الدكتور العمري في المجتمع المدني - الجهاد، ص/٥٦، وأخرجه الحاكم ٣/٢١٧ - ١٨ وصححه، وابن أبي شيبة مرسلاً ١٤/٣٦٨ وابن إسحاق ٢/٢٤٥ منقطعاً.

(٢) رواه ابن إسحاق بإسناد مرسل - انظر السيرة النبوية - ابن هشام ٢/٣٤٨ - ٣٤٩، ووصله الحاكم في المستدرك ٣/٢٢ وقال: «صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي. وسهيل بن عمرو هو أخو السكران بن عمرو زوج سودة قبل رسول الله ﷺ وقد توفي بمكة بعد هجرته من الحبشة، وسهيل سيرد ذكره في الحديبية فهو الذي وقع عهد الصلح مع النبي ﷺ في الحديبية.

(٣) السيرة النبوية - ابن هشام - ٢/٣٣٧ - هراس، والبداية والنهاية ٣/٣٠٨.

* غنائم بـدر

كانت غنائم بدر أول غنائم يحصل عليها المسلمون، وكان حكم الغنائم لم يُشرع بعد، فوقع خلاف بين المسلمين حولها، فعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال «خرجنا مع رسول الله ﷺ فشهدت معه بدراً فالتقى الناس فهزم الله تبارك وتعالى العدو، فانطلقت طائفة في آثارهم، يهزمون ويقتلون، وأكبت طائفة على المعسكر يحوونه ويجمعونه، وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ لا يصيب العدو منه غرة، حتى إذا كان الليل، وفاء الناس بعضهم إلى بعض، قال الذين جمعوا الغنائم: نحن حويناها وجمعناها فليس لأحد فيها نصيب، وقال الذين خرجوا في طلب العدو: لستم بأحق بها منا، فنحن نفينا عنها العدو وهزمناهم، وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ لستم بأحق بها منا، نحن أحدقنا برسول الله ﷺ وخفنا أن يصيب العدو منه غرة، واشتغلنا به فنزلت ﴿ **يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم** ﴾[1]، فقسمها رسول الله على فُوَاق بين المسلمين». - أي بالتساوي[2].

ومما يدل على أن الغنائم قد خمست ووزعت على المشاركين فيها ما رواه البخاري[3] عن علي أن الرسول ﷺ أعطاه مما أفاء الله عليه من الخمس يومئذ.

وقد أسهم الرسول ﷺ لتسعة من الصحابة لم يشهدوا بدراً لأعمال

---

(١) سورة الأنفال آية ١، وانظر تفسيرها عند الطبري في تفسيره ١٢/٣٦٧ - ٣٧١. شاكر. وجاءت فيها أسانيد صحيحة، وقد ذكرها ابن إسحاق بإسناد حسن. السيرة النبوية ابن هشام ٢/٣٤٤ من قول عبادة بن الصامت أن هذه الآية نزلت فيهم، أصحاب بدر، حين اختلفوا في النفل، وقد صححه الحاكم كما في المستدرك ٢/٣٢٦، وأقره الذهبي ورواه أحمد في المسند انظر الفتح الرباني ١٤/٧٢ من طريق ابن إسحاق كذلك، وقال الساعاتي: «سنده جيد».

(٢) رواه أحمد في المسند، وصحح الساعاتي إسناده كما في الفتح الرباني ١٤/٧٢، ونقل تصحيح الترمذي والحاكم والذهبي للخبر، ومسألة تقسيمه بينهم بالتساوي، ذكره ابن إسحاق بإسناد حسن السيرة النبوية ابن هشام ٢/٣٤٤ ورواه ابن حبان في صحيحه كما في الموارد ص/٤١٠ والحاكم في المستدرك ٢/١٣٥ - ١٣٦ وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه» وسكت عنه الذهبي، وأخرجه البيهقي في السنن ٦/٢٩٢.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب شهود الملائكة بدراً ٤/١٤٧٠ (ح/٣٧٨١).

كلفوا بها في المدينة أو لأعذار مباحة منعتهم من الحضور، منهم عثمان بن عفان رضي الله عنه، لأنه كان يمرض زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ[1].

* **الأسرى**

استشار الرسول ﷺ الصحابة في أمر الأسرى. فأشار أبوبكر بأخذ الفدية منهم بحجة أن في ذلك قوة للمسلمين على الكفار، وعسى الله أن يهديهم للإسلام، ورأى عمر قتلهم، لأنهم أئمة الكفر، ومال الرسول ﷺ لرأي أبي بكر فنزل القرآن موافقاً لرأي عمر[2]، وهو قوله تعالى: ﴿ **ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يُثخن في الأرض تُريدون عَرَضَ الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم، لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً واتقوا الله إن الله غفور رحيم** ﴾[3]. وكان أخذ الفداء حلالاً في أول الإسلام، ثم جعل فيما بعد الخيار للإمام بين القتل أو الفداء أو المن ما عدا الأطفال والنساء، إذ لا يجوز قتلهم، ما داموا غير محاربين[4].

قال تعالى ﴿ **فإذا لقيتم الذين كفروا فَضَربَ الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فَشُدُّوا الوَثَاق فإما مَنّاً بعد وإما فِداءً حتى تضع الحرب أوزارها** ... الآية ﴾[5].

وقد تباين فداء الأسرى. فمن كان ذا مال أخذ فداؤه أربعة آلاف درهم وممن أخذ منه أربعة الاف درهم أبووداعة[6]. وأخذوا من العباس مائة أوقية.

(١) أخرجه أحمد في المسند ١٨/١٠١ وقال شاكر إسناده صحيح وانظر أسماء بعض الصحابة الذين تخلفوا لأعذار، وعُدُّوا من أهل بدر، في كتابي مرويات غزوة بدر ٤٢٠ – ٤٢٤.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة وإباحة الغنائم ٣/١٣٨٥ (ح/١٧٦٣).

(٣) سورة الأنفال آية ٦٧ – ٦٨ – ٦٩.

(٤) ابن قدامة: المغني ٨/٣٧٢ – ٣٧٤.

(٥) سورة محمد آية ٤.

(٦) مجمع الزوائد ٦/٩٠ وقال: رواه الطبراني ورجاله ثقات – في قصة أبي وداعة الذي فداه ابنه بأربعة الاف درهم، وقال ابن هشام في زياداته على السيرة ٢/٣٧١ – دون إسناد: «كان فداء المشركين يومئذ أربعة الاف درهم للرجل، إلى ألف درهم. إلا من لا شيء له، فمنَّ رسول الله ﷺ عليه». ورواه عبدالرزاق في المصنف ٥/٢٠٦ وأبوداود في سننه ٣/١٣٩ – ١٤٠/ح ٦٢٩١ باختلاف يسير، وفي سنده أبوالقنبس، وهو مقبول، كما في التقريب (ص٦٦٢)، والطبراني في الكبير ١١/٤٠٦ – ٤٠٧ والأوسط ورجاله رجال الصحيح، والشاهد منه: «.... وكان فداء كل رجل منهم أربعة الاف» فيكون الحديث حسناً، كما قال محققا سيرة ابن هشام ٢/٣٧١.

ومن عقيل بن أبي طالب ثمانين أوقية، دفعها عنه العباس، وأخذوا من آخرين أربعين أوقية فقط[1].

وأطلق الرسول ﷺ سراح عمرو بن أبي سفيان مقابل أن يطلقوا سراح سعد بن النعمان بن آكال، الذي أسره أبوسفيان وهو يعتمر[2].

ومن لم يكن لديهم مقدرة على الفداء، وكانوا يعرفون الكتابة، جعل فداؤهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة، فقد روى أحمد[3] عن ابن عباس قال: «كان ناس من الأسرى يوم بدر لم يكن لهم فداء، فجعل رسول الله ﷺ فداءهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة، فجاء غلام يوماً يبكي إلى أبيه، فقال ما شأنك؟ قال: ضربني معلمي، قال: الخبيث! يطلب بِذَحْلِ[4] بدر! والله لا تأتيه أبداً».

وكانوا يقبلون من بعض الأسارى ما عندهم إذا تعذر المفروض، فقد أرسلت زينب بنت رسول الله ﷺ قلادة لها لتفدي زوجها أبا العاص بن الربيع، فردوها لها، وأطلقوا لها أسيرها لمكانتها عند والدها محمد ﷺ[5] وبهذا كان ابن الربيع ممن أطلق بدون فداء، وأطلق الرسول ﷺ من لم يقدر على الفداء بأي شكل من الأشكال، منهم: المطلب بن حنطب المخزومي، وصيفي ابن أبي رفاعة، وأبوعزة الشاعر[6].

ومما يدل على أنه كان بالإمكان إطلاق سراحهم جميعاً بدون فداء، قول الرسول ﷺ : (لو كان المطعم بن عدي حياً ثم كلمني في هؤلاء النتنى

---

(١) رواه أبونعيم في الدلائل ٤٧٦/٢ – ٤٧٧ بإسناد حسن كما قال ابن حجر في الفتح ١٩٢/١٥.

(٢) رواه ابن إسحاق بإسناد منقطع السيرة النبوية ابن هشام ٣٥٧/٢ – ٣٥٨.

(٣) المسند ٤٧/٤/ح٢٢١٦ شاكر وقال: إسناده صحيح، وفي سنده علي بن عاصم بن صهيب الواسطي – شيخ الإمام أحمد – وهو صدوق يخطىء ويصر، والراجح عند شاكر أنه ثقة – انظر: المسند ٣٠٣/١، وفي سنده كذلك داود بن أبي هند، كان يهم بآخره.

(٤) الذحل: الثأر أو العداوة.

(٥) المسند: الفتح الرباني ١٠٠/١٤ وقال الساعاتي: إسناده صحيح.

(٦) السيرة النبوية ابن هشام ٢٦٨/٢ – ٣٦٩ بدون اسناد.

لأطلقتهم له)[1] وذلك لما قام به من حماية للرسول ﷺ عندما عاد من هجرته إلى الطائف، ودوره في تمزيق صحيفة المقاطعة.

وعندما استأذن رجال من الأنصار النبي ﷺ في ترك فداء العباس، قال (والله لا تذرون منه درهماً)[2] وذلك على الرغم من أن العباس ذكر أنه كان مسلماً، وأنه خرج مستكرهاً[3].

*** أمر الرسول ﷺ بالوصية بالأسرى**

فقد استوصى بهم الرسول ﷺ خيراً[4] فقد حكى أبوعزيز - شقيق مصعب بن عمير - وهو بين رهط من أسريه الأنصار - أن آسريه كانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم خصوه بالخبز وأكلوا التمر لوصية رسول الله ﷺ بالأسرى. حتى ما تقع في يد أحدهم خبزة إلا ناوله إياها، فيستحي فيردها على أحدهم، فيردها عليه ما يمسها[5].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب شهود الملائكة بدراً ١٤٧٥/٤ (ح/٣٧٩٩).

(٢) أخرجه البخاري بموضعه ١٤٧٤/٤ (ح/٣٧٩٣).

(٣) رواه الطبري في التفسير ٧٣/١٤ بتحقيق شاكر بإسناد حسنه الدكتور العمري: المجتمع المدني الجهاد ٥٥، حاشية ٤. قال ابن حجر: «وأخرج ابن إسحاق من حديث ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «يا عباس افد نفسك .. قال العباس: إني كنت مسلماً ولكن القوم استكرهوني...» - الفتح ٣٢٢/٧ وذكر إسلامه ابن إسحاق، السيرة النبوية ابن هشام ٣٥١/٢ - ٣٥٢ بإسناد متصل وصرح فيه بالسماع، ولكن فيه حسين بن عبدالله - فيه مقال.

(٤) روى ذلك الطبراني في الصغير والكبير كما في مجمع الزوائد ٨٦/٦ وقال الهيثمي إسناده حسن.

(٥) رواه ابن إسحاق بإسناد منقطع السيرة النبوية ابن هشام ٣٤٩/٢ - ٥٠.

* الدروس والعبر

أولاً : يعلم المؤمن أن النتائج الحسنة لابد لها من مقدمات وأسباب حسنة تأتي بها وتبرزها إلى الوجود، فمرحلة الجهاد لابد لها من مرحلة تسبقها وتتقدم عليها وهي بناء القاعدة الصلبة من المؤمنين الملتزمين بالإسلام والمتربين على أحكامه.

ثانياً: يغيّر الله تعالى السنن الكونية بأمره إذا شاء، فينصر القلة المؤمنة الصابرة، المتوكلة عليه القائمة بأمره، الحاملة لدينه ورسالته، المدافعة عن الحق الذي أنزله تعالى، على الكثرة الكافرة، المعرضة عن الله وعن دينه، فلا عبرة لعدد ولا عُدة مع نصر الله وقوته.

ثالثاً: يجوز استعمال العيون وجس النبض لمعرفة حركة العدو وخططه وتدبيره، حيث تتوفر المعلومة المساعدة على اتخاذ ما يجب تجاه ذلك من قبل المؤمنين فيبطلوا كيده، ويقفوا تجاهه، وهم مطلعون على تدبيره، ومدركون لحركته وقصده.

رابعاً: يجب النكاية بالعدو وملاحقته في كل موقع اقتصادي أو عسكري أو فكري. حتى يضعف، ويعجز عن المقاومة والعناد فيسمع لصوت الحق ويتوقف عن محاربة أهله.

خامساً: يتبين معلم الشورى والالتزام بنتيجته فهو مبدأ أصيل وأساسي لقيام الأمة والدولة المسلمة يلتزم به كل مؤمن في كل شأن وحين.

سادساً: يتصف المؤمن بالشجاعة والإقدام فهو يطلب الشهادة في سبيل الله فهي أسمى أمانيه في الدنيا مع علمه أن الآجال والأرزاق بيد الله تعالى لا يملكها غيره أبداً.

سابعاً: تشارك ملائكة السماء بأمر الله في الدفاع عن أولياء الله في الأرض وكفى فخراً للمؤمن ان يحس مشاركة ملائكة الله أهل السماء في صراعه مع أهل الباطل في الأرض، فيزيده ذلك ثباتاً وتضحية في سبيل إيمانه ودعوته.

ثامناً: تضيف غزوة بدر على حياة كل مؤمن ظلالاً من الخير والإيمان يعيشها المؤمن في الماضي والحاضر والمستقبل، فلولا نصرها لما عُبد الله في الأرض.

تاسعاً: تظهر المواقف الإيمانية من خلال التدين الذي يحقق للنفس البشرية استقرارها وتوازنها وهي مندفعة في مواجهة الباطل وصده ومحاربته.

- المقداد بن الأسود وهو يستعين بتاريخ أصحاب الرسالات في تحديد الموقف.
- سعد بن معاذ وهو يضرب مثل الطاعة المبصرة وراء القيادة الرشيدة.
- عمير بن الحمام وهو يشم ريح الجنة ويستعجل الوصول إليها.

عاشراً: يقتص المؤمن بالعدل من الكافرين ويجازيهم على افعالهم إن مكنّة الله منهم في الدنيا، مع وعد الله لكل ظالم وكافر بالعذاب في الدنيا والآخرة، وتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا.

الحادي عشر: تبكيت الكافرين وبيان ضلالهم وطغيانهم وأنه لا فائدة من الكفر الذي ما رسوه فلم يحقق لهم نتيجة في الدنيا، مع ما أعده الله لهم من العقاب يوم القيامة.

الثاني عشر: يفرح المؤمنون بنصر الله تعالى لدينه وعباده فيحدثون الشكر له جل جلاله على نعمة النصر على العدو، والتمكين منه بزوال خطره، وإبطال كيده، وذهاب ريحه. ويحزن الكفار والمنافقون ويصابون بالغم والكمد، فتنهار قواهم، ويضعف كيدهم بإذنه تعالى.

خارطة تقريبية لميدان معركة بدر

مصب وادى الصفراء

مقر قيادة الرسول
صلى الله عليه وسلم

معسكر المسلمين

مقبرة

بئر كبيرة

الجبال التى توارى خلفها أبو سفيان بالقافلة

آبار غورها المسلمون
قبل القتال

معسكر المشركين

(١) منقولة من كتاب غزوة بدر لباشميل ص ١٢٨ وهي من وضع الزعيم الركن محمود شيت خطاب مع بعض التعديل.

انظر كتابى (مرويات غزوة بدر)

غزوة بنى قينقاع

* سبب الغزوة

لما انتصر المسلمون ببدر حرك هذا الانتصار الأحقاد في نفوس الأعداء ولاسيما اليهود، وصاروا يرجفون بالمدينة، فرأى رسول الله ﷺ أن يعظهم بالحسنى ويدعوهم إلى ترك المعاندة والدخول في الإسلام، فذهب رسول الله ﷺ إلى يهود بنى قينقاع. وجمعهم في سوق لهم وقال لهم:

(يا معشر يهود، احذروا من الله مثل ما أنزل بقريش من النقمة وأسلموا فإنكم قد عرفتم أنى نبي مرسل، تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم).

فقالوا: (يا محمد لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة، أما والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس). وتمادوا في غيهم فأنزل الله في شأنهم محذراً قوله تعالى: ﴿**قل للذين كفروا ستُغلَبُون وتُحشرون إلى جهنم وبئس المهاد، قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تُقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأيَ العين والله يؤيد بنصره من يشاء إنّ في ذلك لعبرة لأولي الأبصار**﴾[1]. يريد سبحانه فئتي المؤمنين والكافرين في بدر فلم يرعووا[2].

وذكروا سبباً آخر في ذلك، أن امرأة من العرب قدمت بجلب لها فباعته بسوق بنى قينقاع، ثم جلست إلى صائغ منهم، فجعلوا يراودونها على كشف وجهها فأبت فعمد الصائغ إلى عمل مشين. فعقد طرف ثوبها إلى ظهرها وهى لا تشعر، فلما قامت انكشفت سوأتها، فضحكوا منها، فصاحت واستغاثت فوثب رجل من المسلمين على الصائغ اليهودي فقتله، فتجمع اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين، فغضب المسلمون ووقع الشر بينهم وبين اليهود[3].

---

(١) سورة آل عمران: الآيات ١٢ – ١٣.

(٢) أخرجه أبوداود في سننه، كتاب الخراج، باب إخراج اليهود ٤٠٢/٣ (ح/٣٠٠١) وحسنه ابن حجر في فتح البارى ٣٣٢/٧.

(٣) السيرة النبوية – ابن هشام – ٧/٣ بإسناد ضعيف.

* حصار بنى قينقاع

ثم حاصرهم النبي ﷺ خمس عشرة ليلة حتى نزلوا على حكم الله ورسوله ﷺ فاستشار الرسول ﷺ كبار أصحابه رضوان الله عليهم فأشاروا بقتلهم، وكان لهم حليفان: عبدالله بن أبي المنافق، وعبادة بن الصامت. فأما عبادة فقد تبرأ إلى الله ورسوله منهم. وقال: «يا رسول الله أتولى الله ورسوله وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار وولايتهم». وأما ابن أبى المنافق فقال: يا محمد أحسن في موالي. فأعرض عنه الرسول ﷺ، ثم كرر مقالته والرسول ﷺ يعرض عنه ومازال يلح على الرسول ﷺ ويقول: إني أخشى الدوائر، حتى قبل شفاعته فيهم على أن يخرجوا من المدينة ولهم النساء والذرية، وللمسلمين الأموال[1].

ووكلّ رسول الله ﷺ عبادة بن الصامت بإجلائهم وأمهلهم ثلاث ليال فذهبوا إلى أذرعات على حدود الشام، وبذلك أزاح الله سبحانه وتعالى عن المسلمين شر شوكة من الشوكات اليهودية الثلاث التي كانت فى ظهورهم آنذاك، وكان ذلك في أوائل سنة ثلاث، وقيل في شوال سنة اثنتين للهجرة.

وفي شأن ابن أبى وموالاته لهم، وعبادة بن الصامت وبراءته منهم أنزل الله آيات كريمة، لتكون درساً للمسلمين يعلمهم من يوالون، ومن لا يوالون. فقال سبحانه: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين، فترى الذين في قلوبهم مرض يُسارعون فيهم يقولون نخشى أن تُصيبنا دائرة فعسى الله ان ياتي بالفتح او امرٍ من عنده فيصبحوا على ما اسروا في انفسهم نادمين﴾[2] إلى قوله تعالى: ﴿إنما وليكم الله ورسُولُهُ والذين آمنوا الذين يقيمون الصلواة ويؤتون الزكاة وهم راكعون﴾ يعني عبادة بن الصامت ومن على شاكلته من المؤمنين.

---

(١) السيرة النبوية – ابن هشام – ٢/٤٨ – ٥٠ بسند صحيح مرسل.
(٢) سورة المائدة: الآيات ٥١، ٥٢ – ٥٥ وقوله مرض: نفاق، والمراد عبدالله بن أبي وأصحابه.

* قتل كعب بن الأشرف[1]

كان كعب بن الأشرف شديد العداوة للإسلام ورسوله ﷺ، ولما هزم المشركون ببدر قال لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها، ثم خرج إلى مكة يندب من مات، ويحرض على رسول الله ﷺ والمسلمين، ولما عاد إلى المدينة صار يُشبب[2] بنساء المسلمين، ويقذع في هجاء النبي ﷺ وأصحابه، فقال رسول الله ﷺ: (من لكعب بن الأشرف فإنه آذى الله ورسوله؟).

فقال محمد بن مسلمة الأنصارى الأوسي: أنا، وقال: ائذن لي أن أقول شيئاً فيك، فقال له النبي ﷺ (قل) وانضم إليه نفر من قومه، منهم أبونائلة وكان أخا كعب من الرضاعة، وعباد بن بشر بن وقش، والحارث بن أوس فاجتمعوا فيما بينهم كي يحكموا الخطة لاغتيال عدو الله كعب، فجاؤه واستسلفوه وسقاً أو وسقين، فقال: نعم، ولكن ارهنوني قالوا: أي شيء تريد؟ قال: نساءكم!!

قالوا: وكيف وأنت أجمل العرب؟ قال فارهنوني أبناءكم!! قالوا: كيف نرهنك أبناءنا، فتكون مسبة وعار علينا، فيُعير أحدهم بأنه كان رهينة في الطعام، ولكن نرهنك السلاح - وذلك حتى لا ينكر منهم مجيئهم بالسلاح - فواعدوه أن يأتوه ليلاً بالسلاح.

فخرج محمد بن مسلمة ومعه أبونائلة وصحبه وكلهم من الأوس حتى أتوه، فناداه محمد بن مسلمة وأبونائلة، فأراد أن ينزل فقالت له امرأته: أين تخرج الساعة؟ إني أسمع صوتاً يقطر منه الدم؟!

فقال لها: إنما هو أخي محمد بن مسلمة ورضيعى أبونائلة[3]، إن الكريم لو دعي إلى طعنة بليل لأجاب، ثم قال محمد: إذا جاء فسآخذ بشعره فأشمه

---

(١) قال ابن إسحاق وغيره: من طيء، وكان أبوه أصاب دماً في الجاهلية، فأتى المدينة فحالف بني النضير، فشرف فيهم وتزوج عقيلة بنت أبي الحقيق فولدت له كعباً، وكان طويلاً جسيماً له بطن وهامة.

(٢) التشبيب: ذكر محاسن النساء والتعرض لهن.

(٣) اسمه سلكان بن سلامة بن وقش، وقيل اسمه سعد، ولقبه سلكان، وكان أخا كعب من الرضاعة كما كان نديمه في الجاهلية ويركن إليه.

فإذا رأيتموني استمكنت منه فاضربوه، فنزل كعب إليهم متوشحاً سيفه، وهو ينفح منه ريح المسك فقال له محمد: ما رأيت كاليوم ريحاً أطيب أتأذن لي أن أشم رأسك؟ قال نعم، فشمه – وكذلك فعل أبونائلة –[1] فلما استمكن منه قال دونكم فاقتلوه ففعلوا.

ثم أتوا النبي ﷺ فأخبروه[2] وبذلك أراحوا المسلمين من هذا الشر المستطير، وكان قتله في ربيع الأول من السنة الثالثة كما ذكره ابن سعد في طبقاته[3].

---

(١) في السيرة النبوية لابن هشام ٢/٥١ – ٥٨ أن أبا نائلة هو الذي وقع في الرسول ﷺ، وأنه هو الذي أخذ برأسه حتى قتلوه، ولعل الاثنين اشتركا في النيل من الرسول ﷺ والأخذ برأسه، وقد آثرت ذكر ما في صحيح البخاري.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب المغازي، باب قتل كعب بن الأشرف ٤/١٤٨١ (ح/٣٨١١) وأخرجه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب قتل كعب ٣/١٤٢٥ (ح/١٨٠١).

(٣) الطبقات الكبرى – ابن سعد ٢/٣١ – ٣٤.

الدروس والعبــر

أولاً : يحقد اليهود على المسلمين والإسلام، فهم يمارسون كل وسيلة من وسائل الغدر بالمسلمين.

ثانياً: ينشر اليهود الفساد والإفساد وخاصة في مجال المرأة، فهم دعاة التبرج والسفور والإباحية وتحطيم قيم وأخلاقيات المرأة إلى يومنا هذا.

ثالثاً: يُوالي المنافقون اليهود ويدافعون عنهم ويقدمونهم إلى غيرهم بأنهم دعاة السلام ومصدر الخير الاقتصادى والسياسي والعسكري وكذلك يفعلون.

رابعاً: يبرأ المؤمن الحق من موالاة أعداء الله تعالى، وخاصة اليهود والنصارى فلا يحبهم ولا يكرمهم ولا ينصرهم ممتثلاً لقول ربه تعالى ﴿لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تُقَاة ويُحَذِّرُكُمُ الله نفسه وإلى الله المصير﴾[1].

---

(١) سورة آل عمران آية ٢٨.

غزوة أحـــد

* سبب التسمية

وتسمية هذه الغزوة باسم الجبل الذي وقعت عنده، وهو جبل كبير يقع في شمال المدينة المنورة، قال عنه الرسول ﷺ (هذا جبل يحبنا ونحبه)[1] وبينه وبين المدينة المنورة أقل من فرسخ[2] وفي مواجهته من جهة الجنوب جبل صغير، سُميَ بعد المعركة بجبل الرماة، وكان يُسمى «عينين».

* أسباب الغزوة

أولاً: الثأر لغزوة بدر الكبرى حيث قُتل فيها سبعون رجلاً من قريش، وقد خصصت قريش قافلة أبي سفيان التي نجت من مطاردة المسلمين قبيل بدر - وكانت من أسباب بدر - للإستعداد لهذا الثأر، ودفع نفقاته.

ثانياً: استعادة الهيبة، أرادت قريش أن تستعيد هيبتها ومكانتها عند العرب بعد أن اهتزت في بدر، وذلك لن يتأتى لها إلا باستعراض قوتها ومحاولة اجتثاث محمد ﷺ وأصحابه من المدينة.

ثالثاً: إعادة الأمن لطرق تجارتها إلى الشام

بعد أن هددها المسلمون يوم بدر وما قبله وما بعده، وذلك هو مصدر دخلها، وقوام قوتها، فلابد من تأمينه وتحصيل الإطمئنان لأصحاب الأموال على ممتلكاتهم فيستمروا في المتاجرة فيها ولا يجبنوا أو يترددوا في ذلك فلابد من حماية وإعادة هيبة العاملين بها.

* تاريخها

والاتفاق بين أهل السير على أن موعد الغزوة كان في شوال من السنة الثالثة من الهجرة النبوية، بعد بدر بسنة وشهر تقريباً[3].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب احد جبل يحبنا ونحبه ١٤٩٨/٤ (ح/٣٨٥٥ - ٣٨٥٦).

(٢) فتح الباري ٣٤٥/٧ وقال العمري في السيرة الصحيحة (مقداره خمسة ونصف كيلو) ٣٧٨/٢.

(٣) انظر فتح الباري ٢٧٨/٥.

* **المشورة**

علم المسلمون باستعداد قريش وتحركها من مكة فاستشار النبي ﷺ أصحابه في الموقف، وما الذي ينبغي فعله أمام الخطر القائم القادم؟ وكان أصحاب النبي ﷺ أمام هذه المشورة صنفين:

الأول: متحمس للخروج لملاقاة العدو والبروز له خارج المدينة، واظهار الشجاعة والإقدام أمام الأعداء، والرغبة في حصول الشهادة والأجر وخاصة ممن فاتتهم غزوة بدر.

الثاني: صنف رأى من خلال اجتهاده أن يستفيد من الإمكانات والطاقات المتوفرة في داخل المدينة وأن يبقوا فيها فلا يخرجوا لملاقاة العدو إلى خارجها.

فالإفادة من حصون المدينة «وكانت المدينة قد شبكت بالبنيان فهي كالحصن»[1] يقلل من الخسائر في صفوف المدافعين، ويوقع اعظم الخسائر في صفوف المهاجمين.

والإفادة أيضاً من جهد من لا يقدر على البروز خارج المدينة كالنساء والأطفال فيرمون العدو بالحجارة من رؤوس المنازل.

وكان رأي النبي ﷺ الاجتهادي مع الصنف الثاني، إلا أن الشورى منهج إسلامي ملزم، حيث انطلق النبي ﷺ فلبس لامته[2].

وقد تلاوم الصحابة رضوان الله عليهم وقالوا: لعلّنا اكرهنا النبي ﷺ على أمر لا يريده، فاعتذروا له قائلين: أمرنا لأمرك تبع، فإذا به ﷺ يقول لهم في غير تردد: (إنه ليس لنبي إذا لبس لامته أن يضعها حتى يناجز)[3].

- وقد رأى النبي ﷺ رؤيا، ورؤيا الأنبياء حق ووحي، وأخبر بها أصحابه رضوان الله عليهم فقال: (رايت فيُ رؤيا، اني هززت سيفاً فانقطع صدره، فإذا هو ما أصيب من المؤمنين يوم احد، ثم هززته اخرى فعاد كأحسن ما كان، فإذا هو ما جاء الله به من الفتح واجتماع المؤمنين، ورايت بقراً -

---

(١) المصنف لعبدالرزاق ٥/٣٦٣.

(٢) اللامة: الدرع الحصينة، وسائر أداة الحرب.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/١٢٨ وصححه، ووافقه الذهبي.

والله خير - فإذا هم المؤمنين يوم أحد)[1].

وتفسير ذلك ورد عنه في بعض روايات هذه الرؤيا فمن ذلك:

(أن هزيمة تكون في أصحابه، وقتلاً يقع فيهم).

(ورأيت أني في درع حصينة فأولتها المدينة)[2].

* خروج جيش المسلمين إلى أحد

خرج النبي ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم تنفيذاً للرأي الغالب في المشورة بالخروج للقاء العدو، وكان عدد من اجتمع في بداية الأمر من المسلمين ألف رجل، معهم فَرْسَانِ ومائة دارع[3]، ولبس النبي ﷺ درعين[4].

* رجوع المنافقين

وعند منطقة الجانب الغربي من الحرة الشرقية في المدينة انسحب رأس المنافقين عبدالله بن أبي بن سلول ومعه ثلاثمائة من المنافقين تحت حجة واهية هي: أنه لن يقع قتال بين المسلمين والمشركين.

قال تعالى عن رجوع المنافقين ودعواهم تلك

﴿وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين، وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعُوا قالوا لو نعلم قتالاً لاتبعناكم هم للكفر يؤمئذ أقربُ منهم للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون﴾[5].

وقالوا إن النبي ﷺ أطاع من رأى الخروج، ولم يأخذ برأي ابن أبي في عدم الخروج إلى أحد.

ووصل الجيش الإسلامي ميدان معركة أحد، وبدأ النبي ﷺ التخطيط

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب المغازي، باب من قتل من المسلمين يوم أحد ١٤٩٨/٤ (ح/٣٨٥٣).

(٢) أخرجه أحمد في المسند انظر الفتح الرباني ٥٠/٢١ وقال الساعاتي: سنده صحيح.

(٣) تاريخ الطبري ٥٠٤/٣، والطبقات الكبرى ٤٤/٣.

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢٥/٣ وصححه وأقره الذهبي وأورد البخاري في كتاب المغازي باب غزوة أحد ١٤٨٨/٤ (ح/٣٨٢٤) لما خرج النبي ﷺ إلى أحد رجع ناس ممن خرج معه.

(٥) سورة آل عمران ١٦٦ - ١٦٧.

الميداني لتلك المعركة وكان ذلك كما يلي:

أولاً: استعرض ﷺ الجيش فأمر برد صغار السن الذين لا طاقة لهم بقتال ممن هم أبناء أربع عشرة سنة أو أقل، وكانوا أربعة عشر صبياً[١].

ثانياً: نظّم ﷺ صفوف جيشه جاعلاً ظهورهم إلى جبل أحد، ووجوهم تستقبل المدينة المنورة.

ثالثاً: اختار خمسين من الرماة، وجعل عبدالله بن جبير أميراً عليهم، وأمرهم بملازمة جبل «عينين» المقابل أحد من الجهة الجنوبية، وحددّ مهمتهم بحماية المسلمين من التفاف خيالة المشركين عليهم، ورمي خيل المشركين بالنبل إن اقتربت، وذلك لتحييد سلاح الفرسان في المعركة، حيث أن الخيل أشد ما يؤذيها النبل.

وكان التوجيه الصادر إليهم: قال ﷺ (إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا، وإن رأيتمونا هزمنا القوم وأوطأناهم، فلا تبرحوا مكانكم)[٢].

*** أحداث ميدان معركة أحد**

بدت صور التضحية والفداء والشجاعة والإقدام والبحث عن الشهادة في ميدان المعركة جلية واضحة.

يقول النبي ﷺ وقد أخذ سيفاً بيده، (من يأخذ مني هذا؟)

فبسطوا أيديهم، كل إنسان منهم يقول: أنا، قال ﷺ (من يأخذه بحقه؟).

فأحجم القوم، فقال أبودجانة: أنا آخذه بحقه. فأعطاه إياه.

فأخذه ففلق به هام المشركين[٣].

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١١/٣، وانظر أسماء من ردّ منهم في عيون الأثر ٧/٢، وانظر بعضهم فيما أخرجه البخاري في كتاب الشهادات، باب بلوغ الصبيان وشهادتهم ٩٤٨/٢ (ح/٢٥٢١).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة أحد ١٤٨٦/٤ (ح/٣٨١٧).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أبي دجانة ١٩١٧/٤ (ح/٢٤٧٠).

* النصر حقيقة

وتلاحم الفريقان، وحمى وطيس المعركة، وانكشفت قريش عن مواقعها مولية الأدبار في بطن الوادي، فارة بجلدها، قد تركت في ميدان المعركة ما يخلفه الهارب من متاع وسلاح، وكان النصر بادياً للمسلمين. قال تعالى ﴿ولقد صَدَقَكُمُ الله وعده إذ تَحُسُّونَهُم بإذنه ﴾(١).

* عدم الطاعة هزيمة

ولما رأى الرماة ما يحدث في ميدان المعركة من هزيمة وتولي المشركين ونصر للمسلمين.

قالوا لأميرهم عبدالله بن جبير – الغنيمة الغنيمة – ظهر أصحابكم فماذا تنتظرون؟

قال عبدالله بن جبير: أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ؟

قالوا: والله لنأتين الناس فلنصيبنّ من الغنيمة.

ثم انطلقوا يجمعون الغنائم، ولم يبق معه غير نفر قليل(٢).

وقد لحظ خالد بن الوليد – وكان قائداً لخيل قريش – ما حدث على جبل الرماة من نزول، وزوال خطر النبال على حركة الخيل، فانتهز فرصة سانحة ليقوم بحركة التفاف خطيرة حول المسلمين، حيث نادى في خيالة المشركين وقادهم إلى خلف خطوط المسلمين، وصعدت فرقة منهم إلى جبل الرماة فقتلت عبدالله بن جبير ومن معه رضوان الله عليهم ثم بدأت بضرب المسلمين من الخلف، وقد رأى المشركون ما فعل خالد فعادوا للقتال من جديد(٣).

* هول الهزيمة ادى إلى الفرار

وبوقوع الهزيمة وعودة الكرة للمشركين على المسلمين فرّ الناس من ميدان المعركة، وجلس آخرون دون قتال. وكان الفارون لا يلوون على شيء، ولا

---

(١) سورة آل عمران آية ١٥٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد، باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب ١١٠٥/٣ (ح/٢٨٧٤).

(٣) السيرة النبوية – ابن هشام – ١١٢/٣.

يسمعون لأي نداء، صدق فيهم قول الله تعالى ﴿إذ تُصعِدُون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم .... الآية ﴾[1]

* الثبات الثبات والمصابرة

وثبت النبي ﷺ، فقد أصيب بإصابات كثيرة فكسرت رباعيته، وشج في وجهه، فجعل الدم يسيل على وجهه.

وجعل النبي ﷺ يمسح الدم وهو يقول:

(كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى الإسلام) فأنزل الله عزوجل قوله ﴿ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون ﴾[2].

* استشهاد حمزة بن عبدالمطلب رضي الله عنه

لقد تصدى حمزة عم رسول الله ﷺ لصفوف المشركين يهدها هداً فقد قتل في المبارزة سباع بن عبدالعزى وغيره.

إلا أن وحشي مولى جبير بن مطعم كَمَنَ لحمزة تحت صخرة، فلما دنا منه رماه بحربته فقتله غدراً، وكان مولاه قد وعده بالعتق إن فعل ذلك[3].

* من أوائل شهداء أحد

الداعية الأول في المدينة المنورة مصعب بن عمير رضي الله عنه

قال خباب بن الأرت رضي الله عنه

«هاجرنا مع النبي ﷺ ونحن نبتغي وجه الله، فوجب أجرنا على الله فمنا من مضى – أو ذهب – لم يأكل من أجره شيئاً، كان منهم مصعب بن

---

(١) سورة آل عمران آية ١٥٣.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة أحد ١٤١٦/٣ (ح/١٧٩٠) و(١٧٩١) وص/١٤١٧ (ح/١٧٩٣).
والآية من سورة آل عمران/ ١٢٨ وهو عند البخاري معلقاً ١٤٩٣/٤، ومسنداً ١٤٩٦/٤ (ح/٣٨٤٥ و٣٨٤٦ و٣٨٤٧ و٣٨٤٨).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب المغازي، باب قتل حمزة بن عبدالمطلب رضي الله عنه ١٤٩٤/٤ (ح/٣٨٤٤) وفيه قصة قتل حمزة لسباع.

عمير قُتل يوم أحد، فلم يترك إلا نمرة (أي كساء) كنا إذا غطينا بها رأسه خرجت رجلاه، وإذا غُطي بها رجلاه خرج رأسه».

فقال لنا النبي ﷺ (غطوا بها رأسه واجعلوا الإذخر - أو قال القوا على رجليه من الإذخر)[1].

* طلب الشهادة في ميدان معركة احد

ومن الذين استشهدوا في ميدان المعركة:

* عبدالله بن جحش رضي الله عنه

وقد دعا ربه فقال: إني أقسم أن نلقى العدو، فإذا لقينا العدو أن يقتلوني ثم يبقروا بطني ثم يمثلوا بي، فإذا لقيتك سألتني: فيم هذا؟ فأقول فيك. فلقي العدو ففعل وفعل ذلك به[2].

* عمرو بن الجموح رضي الله عنه

وكان أعرجاً عذر الله أمثاله من الجهاد. فقال تعالى ﴿ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج... الآية﴾[3].

وأبى إلا أن يشهد المعركة مع أبنائه الأربعة طلباً للشهادة:

فقال للرسول ﷺ «أرأيت إن قتلت اليوم أطأ بعرجتي هذه الجنة»؟

قال: (نعم).

قال: فوالذي بعثك بالحق لأطأن بها الجنة اليوم إن شاء الله ثم قاتل حتى قتل[4].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب من قتل من المسلمين يوم أحد ١٤٩٨/٤ (ح/٣٨٥٤).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ١٩٩/٣، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين لولا إرسال فيه، قال الذهبي - مرسل صحيح - فهو من مراسيل سعيد بن المسيب رحمه الله.

(٣) سورة النور آية ٦١.

(٤) أخرجه أحمد في المسند ٢٩٩/٥ - مختصراً - وهو صحيح - وهو في السيرة النبوية لابن هشام ٤٤/٣ وانظر الجهاد لابن المبارك ٦٩ بتوسع.

* حنظلة بن أبي عامر - غسيل الملائكة -

وكان عروساً ليلة أحد، فعندما سمع النداء، عجل بالخروج ولم يغتسل وقاتل حتى استشهد وعندما رآه الرسول ﷺ قال: (إن صاحبكم لتغسله الملائكة) ولذا عرف بعد ذلك بغسيل الملائكة، أو بالغسيل[1].

* مخيريق، من علماء اليهود

وقد علم بالخروج فقال لقومه من اليهود والله إنكم لتعلمون أنه نبي الله وأنه يجب عليكم نصره وخرج إلى ميدان معركة أحد وقاتل مع رسول الله ﷺ حتى قتل، وقد قال حين خروجه إلى المعركة إن أُصبت فمالي لمحمد يصنع فيه ما يشاء. فقال عنه النبي ﷺ (مخيريق خير يهود)[2].

* أنس بن النضر رضي الله عنه

وكان من المتشوقين للقتال، فلعله يعوض ما فاته يوم بدر، وقد مرَّ بجماعة من المسلمين وقد قعدوا عن القتال بعد ما حدث في ميدان المعركة ما حدث.

ثم سأل المسلمين مالكم؟ قالوا: قُتل محمد ﷺ فقال: قوموا وموتوا على ما مات عليه محمد ﷺ كيف سيطيب لكم العيش بعده.

ثم انطلق فقيل إلى أين؟

فقال : الجنة ورب النضر، إني أجد ريحها من دون أحد.

وعندما انجلت الغمة أرسل رسول الله ﷺ زيد بن ثابت ليتفقده، فوجده وبه رمق، فرد سلام رسول الله ﷺ ثم قال: أجدني أجد ريح الجنة، وقل لقومي الأنصار لا عذر لكم عند الله أن يخلص إلى رسول الله ﷺ وفيكم شفر يطرف، ودمعت عيناه[3].

---

(١) الحاكم في المستدرك ٢٠٤/٣ وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١٣١/٣ - والطبقات لابن سعد ٥٠١/١ من طريق الواقدي.

(٣) شرح المواهب اللدنية ٤٤/٢ - ومجمع البحرين ٢٣٩/٢ من رواية ابن إسحاق بإسناد رجاله ثقات. وقد أخرجه البخاري مختصراً في كتاب المغازي، باب غزوة أحد ١٤٨٧/٤ (ح/٣٨٢٢).

ومعنى شفر يطرف: الشفر: بالضم وقد يفتح، حرف العين الذي ينبت عليه الشعر انظر النهاية ٤٨٤/٢.

* إشاعة قتل النبي ﷺ

وقد غاب الرسول ﷺ عن أعين الصحابة رضوان الله عليهم لأنه انسحب إلى شعب في أحد، إلا أن إشاعة انتشرت أنه قتل.

ومما لا شك فيه أن قريشاً حاولت ذلك، وبذلت جهدها للوصول إليه وقتله وخاصة بعد فرار عامة الناس عنه.

وقد دافع عن النبي ﷺ مجموعة من الصحابة رضوان الله عليهم حيث شكلوا طوق حماية حوله لا يصل إليه شيء من كيد العدو وأذاهم.

قال ﷺ (من يردهم عنا وله الجنة، أو هو رفيقي في الجنة).

فتقدم سبعة من الأنصار الواحد تلو الآخر حتى استشهدوا جميعاً[١].

ومنهم طلحة بن عبيد الله، حتى شلت يده التي وقى بها رسول الله وجلس تحت رسول الله ﷺ ليرفعه على صخرة من الجبل وقت الحصار فقال رسول الله ﷺ (أوجب طلحة)[٢].

وسعد بن أبي وقاص الذي كان الرسول ﷺ يناوله السهام ويقول له: (يا سعد ارم فداك أبي وأمي)[٣] ولم يجمعها لأحد غيره.

وأبوطلحة الأنصاري امهر الرماة، كان يقول للنبي ﷺ إذا أشرف، بأبي أنت وأمي، لا تشرف يصيبك سهم من سهام القوم، نحرى دون نحرك[٤].

وكان ﷺ إذا مر به أحد، بجعبته سهام قال (انثرها لأبي طلحة).

وأبو دجانه كان يحمي الرسول ﷺ بظهره، حتى كثر النبل فيه وهو منحن على رسول الله ﷺ[٥].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة أحد ١٤١٥/٣ (١٧٨٩).
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ٣٧٤/٣ وصححه ووافقه الذهبي.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا.. الآية ١٤٩٠/٤ (ح/٣٨٢٩ - ٣٨٣١).
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب أبي طلحة رضي الله عنه ١٣٨٦/٣ (ح/٣٦٠٠).
(٥) السيرة النبوية - ابن هشام ١١٨/٣ - ١١٩ نقلاً عن ابن إسحاق.

وكان أول من علم بكذب الإشاعة وأن رسول الله ﷺ حي هو كعب بن مالك، فنادى مبشراً بذلك، فأسكته النبي ﷺ حتى لا ينتبه المشركون له[1].

*** المرأة المسلمة في أحد**

وقدخرجت بعض النساء مع جيش المسلمين إلى أحد ومنهن:

(١) أم عمارة: نسيبة بنت كعب المازنية رضي الله عنها فقد قاتلت دون النبي ﷺ ودفاعاً عنه، حتى أصابتها الجراح[2].

(٢) حمنة بنت جحش الأسدية رضي الله عنها كانت تسقي العطشى، وتداوي الجرحى مع نسوة مؤمنات أخريات[3].

(٣) عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنها

حيث ورد من حديث أنس رضي الله عنه وفيه «... ولقد رأيت عائشة بنت أبي بكر وأم سليم، وإنهما لمشمرتان، أرى خدم سوقهما، تنقلان القرب على متونهما، تفرغانه في أفواه القوم، ثم ترجعان فتملآنها، ثم تجيئان فتفرغانه في أفواه القوم»[4].

(٤) أم سليم رضي الله عنها

فعن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يغزو بأم سليم ونسوة من الأنصار معه إذا غزا، فيسقين الماء، ويداوين الجرحى.

وأم سليم بنت ملحان بن خالد الأنصارية، اختلف في اسمها فقيل سهلة ورميلة، ومليكة، والغميصاء، اشتهرت بكنيتها وهي أم أنس بن مالك خادم

---

(١) أخرجه الحاكم ٢٠١/٣ وصححه وأقره الذهبي.

(٢) الطبقات الكبرى - ابن سعد - ٤١٢/٨ - ٤١٥. وانظر ترجمتها في الإصابة ٤٧٩/٤ وقد ذكر مشاركتها في غزوة أحد.

(٣) مجمع الزوائد ٢٩٢/٩ وقال رواه الطبراني بإسناد حسن، وانظر ترجمتها في الإصابة ٢٧٥/٤.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب إذ همت طائفتان ١٤٩١/٤ (ح/٣٨٣٧). وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة النساء مع الرجال ١٤٤٣/٣ (ح/١٨١١). وقوله - خدم سوقهما - الواحدة خدمة وهي الخلخال، والسوق جمع ساق والمتون أي الظهور.

رسول الله ﷺ[1].

* أبوسفيان مفتخر

أشرف أبوسـفيان قائد جيش المشركين من فـوق صـخرة على المسلمين ليعلن نتيجة المعركة، وينهي الصراع بنشوة النصر، ويرفع شعارات التمكين فيقول:

- أفي القوم محمد؟
- فقال ﷺ (لا تجيبوه).
- فقال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟
- قال ﷺ (لا تجيبوه).
- فقال: أفي القوم ابن الخطاب؟
- فقال: إن هؤلاء قد قتلوا، فلو كانوا أحياء لأجابوا.
- فلم يملك عمر نفسه أن قال: كذبت يا عدو الله، أبقى الله عليك ما يحزنك.
- قال أبوسفيان: أعلُ هبل.
- فقال النبي ﷺ (أجيبوه).
- قالوا: ما نقول.
- قال: قولوا: (الله أعلى وأجل).
- قال أبوسفيان: لنا العزى ولا عزى لكم.
- فقال النبي ﷺ (أجيبوه).
- قالوا: ما نقول؟
- قال: قولوا: (الله مولانا ولا مولى لكم).
- قال أبوسفيان: يوم بيوم بدر، والحرب سجال، وتجدون مثلة لم آمر بها ولم

---

(١) أخرجه مسلم بالموضع السابق قبله (حديث/ ١٨١). والإصابة ٣/٤٦١.

تسوؤني[1]. وموعدنا بدر من العام القادم[2].

وورد أن عمر قال بعد قوله - والحرب سجال - قال: لا سواء، قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار[3].

*** انتهاء المعركة**

وقد انتهت المعركة بجراحها التي نزلت بالمسلمين، شهداء في ميدان معركة أحد[4] وجراحات دامية تسيل دماؤها من أجساد المؤمنين.

وقد أرسل النبي ﷺ علياً رضي الله عنه ليستطلع خبر القوم ومعرفة ماذا يريد أبوسفيان وقومه وقال له:

(أخرج في أثر القوم، فانظر ماذا يصنعون وما يريدون، فإن كانوا قد جنبوا الخيل وامتطوا الإبل، فإنهم يريدون مكة. وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل، فإنهم يريدون المدينة، والذي نفسي بيده لئن أرادوها لأسيرن إليهم فيها، ثم لأناجزنهم).

وفعل علي ما أمر به، فوجدهم قد جنبوا الخيل وامتطوا الإبل ووجهوا إلى مكة)[5].

وقد خرج النبي ﷺ بمن شهد معه أحداً في أثر المشركين، ولم يأذن لمن لم يشهد الغزوة بالخروج.

قال تعالى **﴿الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم، الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾**[6].

---

(١) أي لم اكرهها، وإن كان وقوعها بغير أمري، انظر فتح الباري ٣٥٢/٧. والحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة أحد ١٤٨٦/٤ (ح/٣٨١٧).

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١٣٦/٣.

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٢٠٩/٤ - و١٨١/٦ بإسناد حسن.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب من قتل من المسلمين يوم أحد وذكر عن أنس أنهم سبعون رجلاً ١٤٩٧/٤ (ح/٣٨٥٠).

(٥) السيرة النبوية لابن هشام ١٣٦/٣ - ١٣٧.

(٦) سورة آل عمران آيات ١٧٢ - ١٧٣.

وكان ذلك ارهاباً للمشركين وغيرهم، وقطعاً لطمع قريش في العودة، حيث ورد أنها فكرت بالعودة فلما علمت بخروج النبي ﷺ ومن معه إلى حمراء الأسد تراجعت عن العودة[1].

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت بعد قراءتها الآية لعروة: يا ابن أختي كان أبواك منهم: الزبير وأبوبكر، لما أصاب رسول الله ﷺ ما أصاب يوم أحد وانصرف عنه المشركون خاف أن يرجعوا، قال: من يذهب في إثرهم؟ فانتدب منهم سبعون رجلاً، قال: كان فيهم أبوبكر والزبير[2].

*** عفو الله ورحمته على أهل أحد**

وعفو الله كان أعظم، وحكمته أوفق، فقد عفا الله عن الذين فروا.

فقال تعالى ﴿إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حليم﴾[3].

---

(١) فتح الباري ٣٧٣/٧ - ٣٧٤. والسيرة النبوية لابن هشام - ٦١/٣.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب الذين استجابوا لله وللرسول ١٤٩٧/٤ (ح/٣٨٤٩).

(٣) سورة آل عمران آية ١٥٥.

الدروس والعبر[1]

أولاً : يعلم المسلم أن الإسلام منهج للحياة، يتم تحقيقه في عالم الشهادة من خلال جهد البشر وطاقتهم وإمكاناتهم، ضمن سنن الله التي جعلها للنصر والتمكين في الأرض.

ولقد كانت غزوة أحد مثالاً بيناً لهذا الأمر، حيث توفر جهد البشر وإمكاناتهم في بداية المعركة، وتخلّف ذلك الجهد في آخر المعركة.

لذا فإنه برز في ميدان المعركة ما يأتي:

- عملية النصر في أول المعركة عند توفر ذلك الجهد، وتحقق السنن الإلهية للنصر.

- عملية النكبة والتراجع نتيجة مخالفة الرماة لأمر القائد ﷺ فتخلف الجهد، ولم تتحقق سنة النصر.

- تتربى النفس البشرية على الإيمان وكماله من خلال الأحداث التي تمرُّ بها، أو تتعامل معها، وذلك لأنها قابلة للنماء والزيادة حتى تبلغ أقصى درجات الكمال بزيادة الإيمان وتحقق يقينه لها.

ثانياً: لا تكفي النظريات القولية لتربية النفس الإنسانية بل لابد من الجانب العملي التطبيقي، والممارسة الواقعية لذلك التصور.

فصلاحية النظرية لا تبرز وتظهر إلا من خلال رؤيتها واقعاً عملياً مشاهداً في الواقع، فالتصور والتطبيق أمران مرتبطان لا معنى لأحدهما دون الآخر.

ثالثاً: يظهر حظ الدنيا في النفس، فتطلب بعض النفوس الدنيا ومغرياتها ويغويها الشيطان، فتنسى في لحظة ضعف متطلبات الآخرة من العمل والطاعة والجهاد في سبيل الله وطلب الشهادة والرضوان، وعدم طلب غيره.

قال تعالى ﴿إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم

---

(١) فقه الدعوة – أحمد حسن – بتصرف وزيادة

الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حليم ﴾[1].

وقال تعالى: **﴿ ... منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة..... الآية ﴾**[2].

رابعاً: تتعامل أساليب التربية الإيمانية مع النفوس البشرية بحسب حاجتها ومستواها، ويتحدد الجهد المبذول في ضوء تلك الحاجة ليصل بالنفس إلى الهدف المرجو لها. ويتبين هذا التعامل عند المقارنة بين ما حدث في غزوة أحد من تخلف لأسباب النصر عند المسلمين مما أدى إلى نتائج سلبية كبيرة في نتيجة المعركة، وبين ما حدث في غزوة تبوك من تخلف لثلاثة من المؤمنين لم يترتب على تخلفهم مثل تلك النتائج.

فبالمقارنة تجد المعالم الآتية:

- في غزوة أحد ما زال المؤمنون في بداية طريق التربية فهم في أولى درجاتها وأول مراحلها، فناسبهم من أساليب التربية اللين والعفو في التربية، لتكون تلك التجربة درساً تربوياً لهم في حياتهم، يعظهم بتذكره وتذكر نتائجه، وفضل الله عليهم فيتربون من خلاله.

أما في تبوك

فقد تجاوز المؤمنون مرحلة التربية الإيمانية الأولية، واتضحت في أذهانهم تصورات الإسلام وأفكاره، وتبينت أهدافه، فالمفروض ألا يحدث الخطأ بعد تجربة وتربية، لذا كانت المعاتبة أشد، والعقاب أكبر رغم أن النتائج السلبية للتخلف أقل..

فالعبرة ليست في نتائج المخالفة، ولكن العبرة ممن تصدر منه المخالفة.

خامساً: يظهر معلم العفو والرحمة بالمؤمنين ليكون هو البلسم الشافي لأمراض نشأت هنا وهناك، فيستأصل تلك الأمراض، ويُعيد إلى النفس المؤمنة يقينها، ويسترد عافيتها.

---

(١) سورة آل عمران آية ١٥٥.

(٢) سورة آل عمران آية ١٥٢.

قال تعالى: ﴿ .. ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين ﴾[1].

سادساً: تتأكد المشاركة الشوروية في التصور الإسلامي من غزوة أحد.

فتطبيق مبدأ الشورى والحث على الالتزام به لأنه إحدى ثوابت المنهج الإسلامي في الحكم. ولا تؤثر عليه وعلى الأخذ به إخفاقات أو نتائج حدثت كيفما كانت، فهو المبدأ الثابت الباقي الدائم.

قال تعالى: ﴿ .. وشاورهم في الأمر... الآية ﴾[2] إذ قد يُظن أن المشورة في غزوة أحد كانت السبب في الإخفاق فجاء التأكيد على ملازمة الشورى مهما كانت النتائج.

سابعاً: يجب على المؤمن أن يطيع الأمر المتوجه إليه من ولي الأمر المؤمن، لأن في طاعته طاعة الله وطاعة لرسوله ﷺ .

قال تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم... الآية ﴾[3]. وحصول للأجر منه على تلك الطاعة، كما أن عليه أن يترك الاجتهاد المخالف للأمر الصريح مهما كانت وجاهة الاجتهاد فالإسلام دين الاتباع.

ثامناً: يُصدّق المؤمنون بوعد ربهم، ويطلبون ما عند الله من الأجر والجزاء ويبادرون إلى أعمال الخير والتضحية في سبيل الله تعالى بما يملكون من الأموال والأنفس.

تاسعاً: يدعي المنافقون أنهم الناصرون للدين، المدافعون عن حماه في وقت الرخاء، فإذا جاء الجد تخاذلوا عن نصرته، وتحججوا بالحجج الواهية، وانكفؤا على أنفسهم وهم أذلاء مكره لا خير فيهم.

عاشراً: تبذل الجاهلية جهدها، وتستجمع قواها لتصل إلى إصابة المسلمين بمقتل، فغايتها هلاك المسلمين أو إضعاف شأنهم وزوال سلطانهم.

---

(١) سورة آل عمران آية ١٥٢.

(٢) سورة آل عمران آية ١٥٩.

(٣) سورة النساء آية ٥٩.

الحادي عشر: تستخدم الجاهلية كل أساليب المكر والخداع والحرب النفسية. حيث استخدمت سلاح الشعارات لإضعاف العزائم، وتفريق الصفوف، وأنىّ لها ذلك.

الثاني عشر: يجب تقويم الأخطاء والمصارحة في معالجتها وعدم السكوت أو التغاضي عنها. لأن عمل ذلك يؤدي إلى تراكمها وبقائها وعدم معرفة المتعاطين لها.

لذا جاء القرآن بقوله تعالى: «.. إنما استزلهم الشيطان». وقوله: «... منكم من يريد الدنيا» لينبه على الممارسة الخاطئة ويواجهها مباشرة ليتم علاجها بعد كشفها.

الثالث عشر: يجب تنقية الصفوف وتمحيص المواقف، ووضعها على محك العطاء لهذا الدين ليتبين الصادق من الكاذب، والجاد من الهازل، فيُسد الخلل الذى يشق الصفوف، ويتخفى تحت دعاوى باطلة، وكلمات براقة فى أوقات الرخاء.

قال تعالى: ﴿ **وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالاً لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون** ﴾[1].

ولا يعني هذا الدرس العقاب، فقد يكون العفو كما مرّ، لكنه العفو بعد تَلَقُّنِ الدرس واستيعابه من ممارسيه.

الرابع عشر: يضيء الإيمان الصادق في قلب المؤمن نوراً ويقيناً في كل حين ويزداد عند اشتداد البلاء ونزول الضر.

وذلك لعلم المؤمن أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وأن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوه بشيء لا ينفعوه إلا بشيء قد كتبه الله له، ولو اجتمعت على أن يضروه بشيء لا يضروه إلا

---

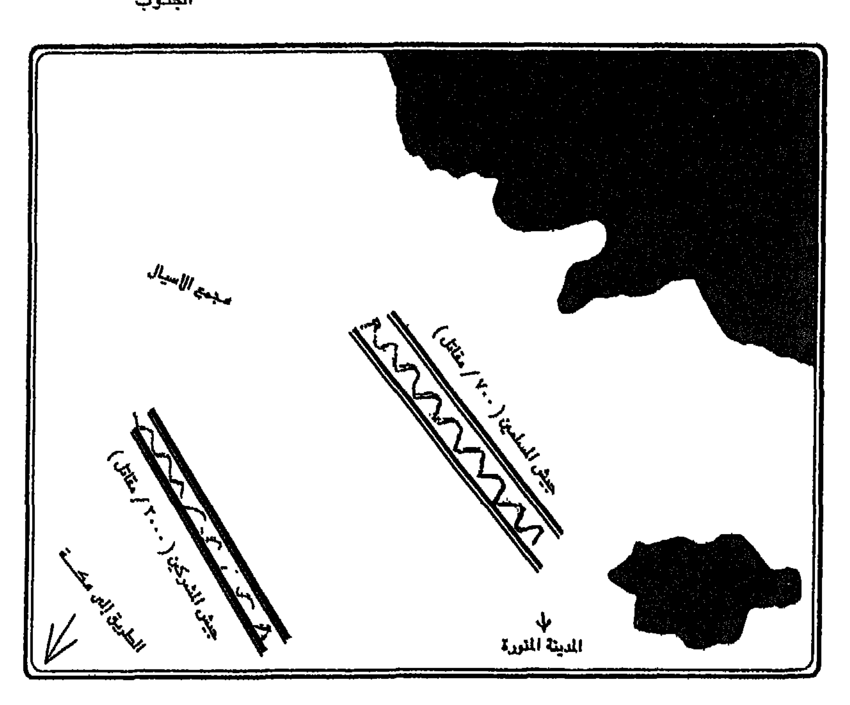
(١) سورة آل عمران آية ١٦٧.

بشيء قد كتبه الله عليه، وأن الصحف قد جفت، وأن الأقلام قد رفعت.

لذا كان الجواب على الخطر القادم ما أخبر به الله عن المؤمنين عقب غزوة أحد: ﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾[1].

(٢) سورة آل عمران آية ١٧٣.

غزوة أحـــد (رسم تقريبى لميدان معركتها)



* يوم الرجيع

جاء إلى النبي ﷺ قوم من قبائل عضل والقارة فذكروا للنبي ﷺ أنَّ فيهم إسلاماً فبعث معهم عشرة رجال، وأمَّر عليهم عاصم بن ثابت الأنصارى رضى الله عنه، وانطلقوا فلما صاروا بين عسفان ومكة تتبعهم حيٌّ من هذيل يقال لهم بنو لحيان وكانوا قرابة مائة رجل رام، فأحس بهم عاصم وأصحابه فلجأوا إلى موضع فأحاط بهم القوم وطلبوا منهم أن ينزلوا ولهم العهد والميثاق أن لا يقتلوا منهم أحداً. فقال عاصم رضى الله عنه: أما أنا فلا أنزل في ذمة كافر. ثم قال: اللهم أخبر عنا نبيك ﷺ فرموهم بالنبل فقتلوا عاصماً. ونزل إليهم ثلاثة نفر على العهد والميثاق منهم خبيب بن عدى وزيد بن الدثنة ورجل آخر، فلما استمكنوا منهم ربطوهم بأوتار قسيهم، فقال الرجل الثالث: هذا والله أول الغدر، والله لا أصحبكم - إن لي بهؤلاء أسوة - فرموه بالحجارة حتى استشهد.

* كرامة الله لعباده المؤمنين

نذرت إحدى الكافرات بمكة أن تشرب الخمر في قحف رأس عاصم رضى الله عنه، فجعلت جائزة لمن أتى برأسه، فبعث الله الدبر(١) تحميه فما استطاع أحد أن يقترب منه. فقالوا نتركه حتى يأتي الليل فأرسل الله المطر في غير وقته فسال الوادي واحتمل عاصماً معه فلم يصلوا إليه.

وقد باع بنو لحيان الأسيرين زيداً وخبيباً لقريش لقتلهما ثأراً لقتلاها ببدر.

أما خبيب فلما علم بنيتهم قتله طلب مُوسَى من المرأة التي حُبس عندها لينظف نفسه به، فأرسلته مع غلام لها، ثم تنبهت إلى خطورة فعلها وظنت أن خبيباً قد يقتل الطفل فلحقت به وهى فزعة عليه، فقال لها خبيب بأن المسلم لا يقتل طفلاً لا ذنب له.

وقد كانت تقول تلك المرأة: والله لقد رأيت خبيباً ومعه قطف من العنب ما رأيت مثله، ولم يكن الوقت وقت عنب.

(١) الدبر: ذكور النحل أو الزنابير، واحدها دبرة.

وكان خبيب من نصيب بني الحارث بن عامر - وكان قد قتل الحارث بن عامر يوم بدر - فصار خبيب أسيراً عند أعدائه، ولما عزموا على قتله خرجوا به ليقتلوه خارج الحرم فطلب منهم أن يصلي ركعتين، فسمحوا له بذلك فركع ركعتين ثم قال: والله لولا أن تحسبوا أن ما بي جزع - خوف - لزدت. ثم تابع قوله: اللهم أحصهم عدداً، واقتلهم بدداً، ولا تبق منهم أحداً.

ثم أنشد فقال:

ولست أبالي حين أقتل مسلماً على أي جنب كان في الله مصرعي

وذلك في ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شلو ممزع

ولست بمبدٍ للعدو تخشعاً ولا جزعاً إني إلى الله مرجعي[1]

أما زيد فعندما قُدِّم للقتل قال له الأعداء: يا زيد أيسرك أن يكون محمدٌ مكانك وأنت بين أهلك لا يصيبك أذى؟ فقال زيد رضي الله عنه: والله ما يسرني أن أكون بين أهلي ورسول الله ﷺ يشاك شوكة في مكانه[2].

سرية بئر معونة (القراء)

أرسل النبي ﷺ سرية إلى نجد سبعين من خيار الصحابة رضي الله عنهم عُرفوا بالقراء، وكان سبب إرسالهم أن أناساً جاءوا إلى رسول الله ﷺ وطلبوا منه أن يبعث معهم رجالاً يعلمونهم القرآن والسنة، وكان ذلك في نفس الوقت الذي جاءت فيه عضل والقارة في قصة يوم الرجيع.

وعندما نزلوا ببئر معونة بين أرض عامر وحرة بني سليم، بعثوا حرام بن مِلْحَان بكتاب النبي ﷺ إلى عامر بن الطفيل، فلم ينظر فيه، وأمر رجلاً فطعن حراماً بالحربة من خلفه، فلما أنفذها فيه ورأى الدم، قال حرام «الله أكبر فزت ورب الكعبة»[3].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب فضل من شهد بدراً ١٤٦٥/٤ - ١٤٦٦ (ح/٣٧٦٧) وغيره.

(٢) السيرة النبوية - ابن هشام - ٢٤٥/٣ من طريق ابن إسحاق مرسلاً.

(٣) أخرجه مسلم، كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد ١٥١١/٣ (ح/٦٧٧).

ثم استنفر ابن الطفيل بني سليم إلى قتال المسلمين، فأجابته وعل وذكوان، وخاضوا مع المسلمين معركة، قُتل فيها المسلمون جميعاً، إلا عمرو بن أمية الضمري حيث أسروه، ثم أعتقه عامر برقبة كانت على أمه. وعاد بالخبر إلى المدينة، وفي الطريق حدث له ما سيأتي بعده.

غزوة بنى النضير

كان يهود بنى النضير ممن عاهدهم النبي ﷺ ووادعهم على أن يأمن كل فريق الآخر لكنهم لم يفوا بالعهد وهموا بقتل الرسول ﷺ ذلك أن عمرو بن أمية الضمري رضى الله عنه الذي نجا من سرية القراء كما تقدم لقي أثناء رجوعه إلى المدينة رجلين من بني عامر، فقتلهما رضي الله عنه وهو يظن أنه أصاب بذلك بعض الثأر من بني عامر الذين غدروا بهم، ولم يشعر بعهدهما الذي لهما من رسول الله ﷺ، فقال له الرسول ﷺ: (لقد قتلت رجلين لأدينهما)[1].

فخرج رسول الله ﷺ إلى بني النضير يستعينهم في دية الرجلين في جماعة من صحابته منهم أبوبكر وعمر وعلي رضى الله عنهم، فلما جاءهم أظهروا له حسن الاستعداد لإجابته، ثم خلا بعضهم إلى بعض فقالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل هذه الحالة – وكان رسول الله ﷺ جالساً إلى جنب جدار لهم – فمن رجل يعلو على هذا البيت، فيلقي عليه صخرة ويريحنا منه؟ فانتدب لذلك الشقي عمرو بن جحاش فقال: أنا لذلك.

فصعد ليلقي الصخرة، فأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما أراد القوم، فقام وخرج راجعاً إلى المدينة، فلما استلبث النبي ﷺ أصحابه قاموا في طلبه حتى انتهوا إليه بالمدينة.

فأخبرهم بما كانت اليهود اعتزمته من الغدر بهم.

فبعث رسول الله ﷺ محمد بن مسلمة رضي الله عنه إليهم يطلب إليهم الخروج من جواره بالمدينة، وأمهلهم عشرة أيام وإلا حاق بهم الهلاك. فأيقنوا أن الله أطلعه على ما أرادوا، وصاروا متحيرين لا يدرون ما يفعلون.

وبينما هم في حيرتهم وترددهم جاءهم رسل أهل النفاق ابن أبي وأتباعه أن اثبتوا وتمنعوا، فإنا لن نسلمكم: إن قُوتلتم قاتلنا معكم، وإن أُخرجتم خرجنا معكم، فقويت عند ذلك نفوسهم، وحمي حيي بن أخطب زعيمهم، وبعثوا

---

(١) لأدفعن الدية إلى أهلهم.

إلى رسول الله أنهم لا يخرجون، ونابذوه بنقض العهود.

وفي ذلك نزل قول الله تعالى: ﴿ **ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرُجنَّ معكم ولا نُطيع فيكم أحداً أبداً وإن قُوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون، لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليُولن الأدبار ثم لا ينصرون، لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون** ﴾[1].

* حصار بني النضير

وأمر رسول الله ﷺ بالتهيؤ لحربهم وقتالهم، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم رضي الله عنه، وسار إليهم في شهر ربيع الأول من السنة الرابعة حتى نزل بدارهم، فحاصرهم ست ليال، وقيل: خمس عشرة ليلة، وقاتلوهم، ثم أمر رسول الله ﷺ بقطع نخيلهم وتحريقها ليكون ذلك أدعى إلى تسليمهم فقطعت، ففزعوا وجزعوا ونادوا: محمد، كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه فما بال قطع النخيل وتحريقها[2]؟! ولم يكن هذا إفساد إنما هو وسيلة لنشر السلام والأمان والتقليل من إراقة الدماء، وكان بأمر الله وإذنه.

وعبثاً انتظر اليهود نصر ابن أبي وجماعته، وخذلهم كما خذل بني قينقاع من قبل، وكان مثله ومثلهم كما قال الله: ﴿ **كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني برىء منك إني أخاف الله رب العالمين، فكان عاقبتهُما أنهما في النار خالدين فيها وذلك جزاؤ الظالمين** ﴾[3].

وملأ الرعب قلوبهم، واشتد الحصار عليهم، وأيقنوا أن حصونهم لاتمنعهم من سوء المصير فسألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم ويؤمنهم على

---

(١) سورة الحشر – الآيات ١١ – ١٣.

(٢) البداية والنهاية ٤/٧٥ وقصة تحريق النخل أخرجها البخاري كتاب المغازي، باب حديث بني النضير ٤/١٤٧٩. (ح/٣٨٠٧ – ٣٨٠٨) وأخرجه مسلم، كتاب الجهاد باب جواز قطع الشجر ٣/١٣٦٥ (ح/١٧٤٦).

(٣) سورة الحشر – الآيات ١٦ – ١٧.

دمائهم، على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة أي السلاح.

فصالحهم رسول الله ﷺ على الجلاء، وعلى أن لكل ثلاثة منهم بعيراً يحملون عليه ما شاؤوا من أموال، فصاروا يخربون بيوتهم بأيديهم ليحملوا منها ما استطاعوا مما يحرصون عليه[1] ولكيلا ينتفع بها المسلمون، فمنهم من خرج إلى خيبر كحيي بن أخطب، وسلام بن أبى الحقيق، وكنانة بن الربيع، ومنهم من ذهب إلى أذرعات بالشام، وتركوا وراءهم للمسلمين مغانم كثيرة من غلال وسلاح وعقار ودور، ولما كان المسلمون قد أخذوها صلحاً بدون حرب ولا قتال، فكانت فيئاً من حق رسول الله ﷺ يتصرف فيها كيف شاء، وقد قسمها على المهاجرين دون الأنصار، بعد أن استبقى منها قسما خصصت غلته لذوى القربى والفقراء والمساكين، وبذلك أغنى الله المهاجرين وأزال فاقتهم، ولم يأخذ من الفيء من الأنصار إلا أبودجانة، وسهل بن حنيف والحارث بن الصمة، فقد شكوا فقراً، ولم يُسلم من بني النضير إلا رجلان فأحرزا أموالهما[2].

---

(1) أخرج البخاري في صحيحه قصة إخراجهم، كتاب المغازي، باب حديث بني النضير ١٤٧٨/٤ (ح/٣٨٠٤) وما بعده. ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب إجلاء اليهود من جزيرة العرب ١٣٨٧/٣ - ١٣٨٨ (ح/١٧٦٦).

(2) السيرة النبوية - ابن هشام - ٢٧٠/٣ بإسناد منقطع.

الدروس والعبر

أولاً : يغدر اليهود بالعهود، ويخلفوا الوعود، فهم قتلة الأنبياء، وسافكي الدماء في كل زمن وحين.

ثانياً: يحمي الله عباده من كيد اليهود ومكرهم إذا تمسك المؤمنون بالإسلام وحققوا متطلباته في حياتهم، وجاهدوا في سبيل الله وإعلاء كلمة الله تعالى.

ثالثاً: يعلم المؤمن أن الله عاصم رسوله محمد ﷺ من الكيد الذي يدبره له البشر فلا يصلون إليه مصداقاً لقوله تعالى **﴿والله يعصمك من الناس﴾**(1).

رابعاً: يُعلن المسلمون الحرب على عدوهم إذا نقض عهده أو وعده معهم وينزلون به ما يستحق من العقوبة.

---

(1) سورة المائدة، آية ٦٧.

غزوة بني المصطلق

* سبب التسمية

سميت الغزوة باسم القبيلة المقصودة بالغزو، وهم بطن من قبيلة خزاعة وكانوا يسكنون قديداً وعسفان على الطريق بين مكة والمدينة(١).

* موقفهم من المسلمين

أول موقف عدائي لبني المصطلق من الإسلام كان في إسهامهم ضمن الأحابيش في جيش قريش في غزوة أحد(٢).

وقد تجرأت بنو المصطلق على المسلمين نتيجة لغزوة أحد كما تجرأت القبائل الأخرى المحيطة بالمدينة(٣)، ولعلها كانت تخشى انتقام المسلمين منها لدورها في غزوة أحد، وكذلك كانت ترغب في أن يبقى الطريق التجاري مفتوحاً أمام قريش لا يهدده أحد لما في ذلك من مصالح لها محققة.

فكانت – بزعامة الحارث بن أبي ضرار – تتهيأ للأمر بجمع الرجال والسلاح، وتأليب القبائل المجاورة ضد المسلمين(٤).

* إطلاع المسلمين على نية بني المصطلق

وقد أرسل الرسول ﷺ بريدة بن الحصيب الأسلمي رضي الله عنه للإطلاع على أحوالهم فأظهر أنه جاء لعونهم وعرف نيتهم في الهجوم على المدينة. فعاد وأخبر الرسول ﷺ بم يبيتون(٥).

* تاريخ الغزوة

خرج رسول الله ﷺ إليهم في شعبان من السنة الخامسة للهجرة

---

(١) قديد تبعد عن مكة ١٢٠ كيلاً، وعسفان تبعد ٨٠ كيلاً فيكون بينهما أربعون كيلاً، السيرة النبوية الصحيحة ٢/٤٠٤.
(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٦١.
(٣) السيرة النبوية الصحيحة ٢/٤٠٥.
(٤) فتح الباري ٧/٤٣٠.
(٥) شرح المواهب اللدنية ٢/٩٦.

النبوية الشريفة. قبل غزوة الأحزاب[1].

* توجه النبي ﷺ والمسلمون إلى بنى المصطلق

وقد توجه النبي ﷺ إلى ديار بنى المصطلق. (.... وأغار عليهم وهم غارون وأنعامهم تسقى على الماء، فقتل مقاتليهم، وسبى ذراريهم، واصاب يومئذ جويرية أم المؤمنين رضى الله عنها)[2].

وسبب إغارة النبي ﷺ عليهم وهم غارون لأنهم ممن بلغتهم دعوة الإسلام، وقد كانوا يعتبرون في حرب مع المسلمين منذ اشتراكهم مع قريش في غزوة أحد، كما كانوا يجمعون الجموع لحرب المسلمين فبوغتوا واضطربوا ولم يتمكنوا من المقاومة طويلاً.

* دور المنافقين في الغزوة

لقد كشف المنافقون عن خبيئتهم في هذه الغزوة، وأظهروا حقدهم على النبي ﷺ وأصحابه، وماتواروا في كيدهم أو تخفوا في موقفهم.

بل هو الحقد في أبشع صوره من خلال ممارساتهم لبعض الأمور في هذه الغزوة.

ومما مارسوه أمران مهمان في حياة المسلمين وفى تصوراتهم العقدية.

الأمر الأول:- قصدوا به وحدة المسلمين وتآخيهم على الإيمان والتقوى.

والأمر الثاني:- قصدوا به قيادتهم المتمثلة في شخص رسول الله ﷺ وصاحبه أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

---

(١) البداية والنهاية ١٥٦/٤. وانظر فتح الباري ٤٣٠/٧.

(٢) اخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العتق، باب من ملك من العرب رقيقاً ٨٩٨/٢ (ح/٢٤٠٣) واخرجه مسلم، كتاب الجهاد، باب جواز الإغارة على الكفار الذين بلغتهم الدعوة ١٣٥٦/٣ (ح/١٧٣٠).

أما الأمر الأول: محاولة التفريق بين المؤمنين

فعن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: كنت في غزاة[1] فسمعت عبدالله ابن أبي يقول: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله، ولئن رجعنا من عنده ليخرجن الأعز منها الأذل، فذكرت ذلك لعمي[2] - أو لعمر - فذكره للنبي ﷺ فدعاني فحدثته، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عبدالله بن أبي وأصحابه فحلفوا ما قالوا. فكذبني رسول الله ﷺ وصدقه، فأصابني همٌ لم يصبني مثله قط، فجلست في البيت، فقال لي عمي: ما أردت إلا أن كذبك رسول الله ﷺ ومقتك؟ فأنزل الله تعالى: ﴿إذا جاءك المنافقون﴾[3] فبعث إليَّ رسول الله ﷺ فقرأ. فقال: (إن الله قد صدقك يا زيد)[4].

وعن جابر بن عبدالله الأنصاري رضي الله عنه قال: كنا في غزاة فكسع[5] رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار. فقال الأنصاري: يا للأنصار وقال المهاجري: يا للمهاجرين. فسمع ذلك رسول الله ﷺ فقال ما بال دعوى جاهلية؟ قالوا: يا رسول الله كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار.

فقال: دعوها فإنها منتنة. فسمع بذلك عبدالله بن أبي فقال: فعلوها؟ أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. فبلغ النبي ﷺ فقام عمر فقال: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال النبي ﷺ دعه. لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه. وكانت الأنصار أكثر من المهاجرين

---

(١) صرحت الروايات الأخرى بأنها غزوة بني المصطلق انظر مسند أحمد ٣٩٢/٣ - ٣٩٣ بإسناد صحيح، وفتح الباري ٦٤٩/٨ من مستخرج الإسماعيلي بزيادة صحيحة، والترمذي ٩٠/٥ وقال هذا حديث حسن صحيح.

(٢) يريد بعمه سعد بن عبادة وهو رأس الخزرج، وليس عمه حقيقة، وأما عمر فهو ابن الخطاب فتح الباري ٦٤٥/٨.

(٣) سورة المنافقين: آية ١ وكان نزولها في طريق العودة من الغزوة. كما ورد عند الترمذي ٤١٥/٥ (ح/٣٣١٢) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله إذا جاءك المنافقون ١٨٥٩/٤ (ح/٤٦١٧) وأخرجه مسلم كتاب صفات المنافقين ٢١٤٠/٤ (ح/٢٧٧٢).

(٥) أي ضربه برجله.

حين قدموا المدينة. ثم إن المهاجرين كثروا بعد[1].

وقد أمر النبي ﷺ بالرحيل طيلة اليوم حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس، ثم نزل بالناس، فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض فوقعوا نياماً، ليشغل الناس عن الحديث في الفتنة.

وقد ضعف مركز عبدالله بن أبي سلول في قومه فكانوا يعنفونه ويلومونه كلما أخطأ[2]. بل إن ابنه عبدالله بن عبدالله بن أبي بن سلول استأذن الرسول ﷺ في قتل أبيه، فنهاه.

فقال: (لا. ولكن بر أباك وأحسن صحبته)[3]. ومنع أباه من دخول المدينة حتى يأذن له رسول الله ﷺ بدخولها[4]. مع شدة بره بأبيه وهيبته له[5] وهو من أعجب المواقف التي تدل على صفاء عقيدة الابن وتخلصه من عصبية الجاهلية رغم قرب عهده بها، مما يبين قوة تأثير الإسلام في أتباعه وإحداثه التغير العميق في مقاييسهم وسلوكهم وقد علل الرسول ﷺ منعه لعبدالله من قتل أبيه بالحرص على سمعة الإسلام فقال: (لا يتحدث الناس أن محمداً قتل أصحابه)[6].

أما الأمر الثاني:- فهو قصة الكذب والافتراء والاعتداء على أعراض المسلمين والمسلمات. وإليك قصة الإفك كما أوردها البخاري رحمه الله[7].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب التفسير، باب قوله سواء عليهم أنذرتهم ١٨٦١/٤ – ١٨٦٢ (ح/٤٦٢٢) وأخرجه مسلم كتاب البر والصلة، باب نصر الأخ ظالماً أو مظلوماً ١٩٩٨/٤ – ١٩٩٩ (ح/٢٥٨٤).

(٢) السيرة النبوية ابن هشام ٢٩٠/٢ – ٢٩٣ من طريق ابن إسحاق عن ثلاثة من شيوخه الثقات مرسلاً، ويؤيده مرسل جيد من مراسيل عروة بن الزبير فتح الباري ٦٤٩/٨ .

(٣) مجمع الزوائد ٣١٨/٩ من رواية البزار، وقال رجاله ثقات، وانظر رواية الطبراني ضمن مراسيل عروة. وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح.

(٤) أخرجه الترمذي في جامعه، كتاب التفسير، باب ومن سورة المنافقين ٤١٨/٥ (ح/٣٣١٥) وقال هذا حديث حسن صحيح.

(٥) السيرة النبوية – ابن هشام ٢٩٣/٢.

(٦) إتحاف المهرة بأطراف العشرة حديث رقم ١٧٢ نقلاً عن البزار بسند رجاله ثقات. انظر السيرة النبوية الصحيحة – ٤٠٨ – ٤٠٩ – بتصرف –

(٧) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب حديث الإفك ١٥١٧/٤ (ح/٢٩١٠) وانظر زاد المعاد ١١٥/٢ – ترى تفصيلاً طيباً .

قال رحمه الله: قالت عائشة: كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين أزواجه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه. قالت عائشة فأقرع بيننا في غزوة غزاها فخرج فيها سهمي، فخرجت مع رسول الله ﷺ بعد ما أنزل الحجاب، فكنت أحمل في هودجي وأنزل فيه. فسرنا، حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك وقفل ودنونا من المدينة قافلين آذن ليلةً بالرحيل، فقمت حين آذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش.

فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي فلمست صدري فإذا عقد لي من جزع ظفار قد انقطع، فرجعت فالتمست عقدي فحبسني ابتغاؤه. قالت وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلوني فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب عليه. وهم يحسبون أنى فيه. وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يهبلن ولم يغشهن اللحم، إنما يأكلن العلقة من الطعام، فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وحملوه، وكنت جاريةً حديثه السن، فبعثوا الجمل فساروا، ووجدت عقدي بعد ما استمر الجيش فجئتُ منازلهم وليس بها منهم داعٍ ولا مجيب. فتيممت منزلي الذي كنت به وظننت أنهم سيفقدونني فيرجعون إلي. فبينما أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت، وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكوانى من وراء الجيش، فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم فعرفني حين رآني. وكان رآني قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني، فخمرت وجهي بجلبابي. ووالله ما تكلمنا بكلمة، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه، وهوى حتى أناخ راحلته، فوطىء على يدها، فقمت إليها فركبتها فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش موغرين في نحر الظهيرة وهم نزول. قالت: فهلك من هلك وكان الذي تولى كبر الإفك عبدالله بن أبي بن سلول. قال عروة: أخبرت أنه كان يشاع ويتحدث به عنده فيقره ويستمعه ويستوشيه. وقال عروة أيضاً: لم يسم من أهل الإفك أيضاً إلا حسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش في ناس آخرين لا علم لي بهم، غير أنهم عصبةٌ – كما قال الله تعالى – وان كِبَر ذلك يُقال عبدالله بن أبي بن سلول.

قال عروة: كانت عائشة تكره أن يسب عندها حسان وتقول إنه الذي قال

فان أبي ووالده وعرضي لعرض محمد منكم وقاءُ

قالت عائشة: فقدمنا المدينة، فاشتكيت حين قدمت شهراً، والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك، لا أشعر بشيء من ذلك، وهو يريبني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين اشتكي، إنما يدخل عليَّ رسول الله ﷺ فيسلم ثم يقول: كيف تيكم؟ ثم ينصرف، فذلك يريبني ولا أشعر بالشر، حتى خرجت حين نقهت، فخرجت مع أم مسطح قبل المناصع – وكان متبرزنا، وكنا لا نخرج إلا ليلاً إلى ليل – وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريباً من بيوتنا، قالت وأمرنا أمر العرب الأول في البرية قبل الغائط وكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا. قالت: فانطلقت أنا وأم مسطح – وهى ابنة أبي رهم بن المطلب بن عبد مناف، وأمها بنت صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق، وابنها مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب – فأقبلت أنا وأم مسطح قبل بيتي حين فرغنا من شأننا، فعثرت أم مسطح في مرطها فقالت: تعس مسطح، فقلت لها بئس ما قلت، أتسبين رجلاً شهد بدراً؟ فقالت: أي هبتاه، ولم تسمعي ما قال؟ قالت: وقلت ما قال؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك. قالت: فازددت مرضاً على مرضي. فلما رجعت إلى بيتي دخل عليَّ رسول الله ﷺ فسلم ثم قال: كيف تيكم؟ فقلت له: أتأذن لي أن آتي أبوي؟ قالت وأريد أن استيقن الخبر من قبلهما. قالت فأذن لي رسول الله ﷺ.

فقلت لأمي: يا أمتاه، ماذا يتحدث الناس؟ قالت: يا بنية، هوني عليك فوالله لقلما كانت امرأةٌ قط وضيئةٌ عند رجل يحبها لها ضرائر إلا أكثرن عليها. قالت فقلت: سبحان الله، أو لقد تحدث الناس بهذا؟ قالت فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، ثم أصبحت أبكي قالت: ودعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي يسألهما ويستشيرهما في فراق أهله. قالت: فأما أسامة فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله وبالذي يعلم لهم في نفسه، فقال أسامة أهلك، ولا نعلم إلا خيراً. وأما عليٌّ فقال: يا رسول الله؛ لم يضيق الله عليك

والنساء سواها كثير، وسل الجارية تصدقك. قالت: فدعا رسول الله ﷺ بريرة فقال: أي بريرة، هل رأيت من شيء يريبك؟ قالت له بريرة: والذي بعثك بالحق، ما رأيت عليها أمراً قط أغمصه، غير أنها جاريةٌ حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله. قالت: فقام رسول الله ﷺ من يومه فاستعذر من عبدالله بن أبي - وهو على المنبر فقال: يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني عنه أذاه في أهلي، والله ماعلمت على أهلي إلا خيراً. ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً، وما يدخل على أهلي إلا معي قالت: فقام سعد بن معاذ - أخو بنى عبد الأشهل - فقال أنا يا رسول الله أعذرك فان كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك. قالت: فقام رجلٌ من الخزرج - وكانت أم حسان بنت عمه من فخذه وهو سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج - قالت: وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً، ولكن احتملته الحمية فقال لسعد: كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله، ولو كان من رهطك ما أحببت أن يقتل. فقام أسيد بن حضير - وهو ابن عم سعد - فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمر الله، لنقتلنه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين، قالت: فثار الحيان الأوس والخزرج - حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ قائم على المنبر. قالت: فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا وسكت. قالت: فبكيت يومي ذلك كله لا يرفأ لي دمع ولا أكتحل بنوم. قالت: وأصبح أبواي عندي وقد بكيت ليلتين ويوماً لا يرفأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، حتى إني لأظن أن البكاء فالق كبدي. فبينما أبواي جالسان عندي وأنا أبكي فاستأذنت عليَّ امرأة من الأنصار، فأذنت لها فجلست تبكي معي. قالت فبينا نحن على ذلك دخل رسول الله ﷺ علينا فسلم ثم جلس. قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل قبلها. ولقد لبث شهراً لا يُوحى إليه في شأني بشيء. قالت: فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس ثم قال أما بعد يا عائشة إنه بلغني عنك كذا وكذا، فان كنت بريئة فسيبرؤك الله وإن كنت ألمت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فان العبد إذا اعترف ثم تاب تاب الله عليه. قالت: فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة، فقلت لأبي: أجب رسول الله ﷺ عني فيما قال، فقال أبي:

والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ فقلت لأمي: أجيبي رسول الله ﷺ فيما قال. قالت أمي والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ من القرآن كثيراً إني والله لقد علمت. لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدّقتم به، فلئن قلت لكم إني بريئة لا تصدقونني، ولئن اعترفت لكم بأمر – والله يعلم أني منه بريئة – لتصدقني. فوالله لا أجد لي ولكم مثلاً إلا أبا يوسف حين قال (فصبرٌ جميل، والله المستعان على ماتصفون) ثم تحولت فاضطجعت على فراشي، والله يعلم أني حينئذ بريئة، وأن الله مبرئي ببراءتي. ولكن والله ما كنت أظن أن الله تعالى منزل في شأني وحياً يُتلى لشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيَّ بأمر. ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرؤني الله بها فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه ولا خرج أحدٌ من أهل البيت حتى أُنزل عليه، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء، حتى إنه ليتحدر منه العرق مثل الجمان – وهو في يوم شات – من ثقل القول الذي أنزل عليه. قالت فسري عن رسول الله ﷺ وهو يضحك، فكانت أول كلمة تكلم بها أن قال يا عائشة، أما الله فقد برأك. قالت فقالت لي أمي. قومي إليه، فقلت: لا والله لا أقوم إليه فإني لا أحمد إلا الله عزوجل. قالت: وأنزل الله تعالى ﴿إن الذين جاءوا بالإفك عُصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم لكل امرىءٍ منهم ما اكتسب من الإثم والذي تولى كِبْرَهُ منهم له عذاب عظيم، لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين، لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون، ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لَمَسَّكُم في ما أفضتم فيه عذاب عظيم، إذ تَلَقَّوْنَهُ بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم، ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم، يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين، ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم، إن الذين يُحِبُّون أن تشيع الفاحشةُ في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون، ولولا فضل الله عليكم

ورحمته وأن الله رؤوف رحيم ﴾[1].

فأنزل الله تعالى هذا في براءتي. قال أبوبكر الصديق – وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره – والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة ما قال. فأنزل الله تعالى **﴿ ولا يَأْتَلِ أولو الفضل منكم والسعة أن يُؤتُوا أولي القُربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليَعفُوا وليَصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم ﴾**[2].

قال أبوبكر الصديق: بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه وقال: والله لا أنزعها منه أبدا. قالت عائشة: وكان رسول الله ﷺ سأل زينب بنت جحش عن أمري، فقال لزينب ماذا علمت أو رأيت؟ فقالت: يا رسول الله أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت إلا خيراً. قالت عائشة: وهى التي كانت تساميني من أزواج النبي ﷺ فعصمها الله بالورع. قالت: وطفقت أختها حمنة تحارب لها، فهلكت فيمن هلك.

ثم قال عروة: قالت عائشة: والله إن الرجل الذي قيل له ما قيل ليقول: سبحان الله فوالذى نفسي بيده ما كشفت من كنف أنثى قط. قالت: ثم قتل بعد ذلك في سبيل الله.

* زواجه ﷺ من جويرية رضى الله عنها

وما أن رجع الرسول ﷺ إلى المدينة حتى جاءته جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار تستعينه في عتق نفسها من ثابت بن قيس بن الشماس الذي وقعت في سهمه، وكانت قد كاتبته، وقد ذكرت للرسول مكانها في قومها، وأنها ابنة سيدهم الحارث بن أبي ضرار، فقضى عنها كتابها وتزوجها.

فلما علم الناس بذلك أطلقوا سائر السبي وقالوا: أصهار رسول الله ﷺ فأعتق مائة أهل بيت فما كانت امرأة أعظم على قومها بركة منها[3] فكان عتقها صداقها.

---

(١) سورة النور الآيات ١١ – ٢٠.

(٢) سورة النور آية ٢٢.

(٣) السيرة النبوية ابن هشام ٢ – ٢٩٤، ٦٤٥ بإسناد صحيح.

وقد جاء الحارث بن أبي ضرار إلى المدينة وطلب من رسول الله ﷺ أن يخلي سبيلها، فأذن له أن يخيرها، فلما خيرها اختارت البقاء مع رسول الله ﷺ[1].

وقد أسلم الحارث بن أبي ضرار وقومه، وجعله الرسول ﷺ يلي صدقات قومه[2] وكان لزواج الرسول ﷺ من جويرية وإطلاق السبي أثر بالغ في تأليف قلوبهم، فبدأوا عهداً جديداً من المشاركة في الجهاد ذوداً عن الإسلام، ومن الطاعة لله والانقياد لأحكامه حتى إذا تأخر مصدق الرسول ﷺ مرة عن موعد دفع الزكاة قلق الحارث بن أبي ضرار وقومه، واعتزموا المضي إلى رسول الله ﷺ لمعرفة السبب.

وكان الرسول ﷺ قد أرسل الوليد بن عقبة ليقبض صدقاتهم، فمضى بعض الطريق ثم خافهم فرجع وزعم أنهم منعوه الزكاة وأرادوا قتله، فأرسل الرسول ﷺ سرية إليهم فحلف لهم الحارث بن أبي ضرار أنه ما رأى الوليد ومضى معهم إلى الرسول ﷺ فوضح موقفه.

فنزلت الآية الكريمة **﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإٍ فتبينوا أن تُصيبوا قوماً بجهالة فتُصبحوا على ما فعلتم نادمين﴾**[3].

وهو من أحسن ما رُوي في سبب نزول هذه الآية كما يقول ابن كثير[4] وقد حدثت هذه الحادثة بعد إسلام الوليد بن عقبة في فتح مكة. مما يشير إلى توطد الإسلام في بني المصطلق وحسن إسلامهم بعد غزوة بني المصطلق بسنوات.

---

(١) تاريخ خليفة بن خياط ص/٨٠ بإسناد رجاله ثقات لكنه من مراسيل ابى قلابة الجرمي.

(٢) مسند احمد ٢٧٩/٤ بإسناد فيه دينار الكوفي وهو مقبول وحديثه يقوى بالمتابعات والشواهد وله شواهد، انظر الطبري: تفسير ٤٧٦/٢٦ بإسناد حسن من مرسل قتادة.

(٣) سورة الحجرات اية ٦.

(٤) السيرة النبوية الصحيحة ٤١٣ – ٤١٤.

الدروس والعبـر

أولاً : يُبلِّغ المؤمن دعوة الله، ويجاهد من وقف في طريقـها ويباغته إذا بلغته الدعوة وعلم بها، فلا يمكنه من الاستعداد والتجميع لمحاربة الإسلام وأهله بل يخمد الفتنة في بدايتها، وقبل انتشارها، فذلك أصوب وأحزم.

ثانياً: يحرص المنافقون على تفريق صف المؤمنين وإيجاد الخلاف بينهم واستغلال المواقف في تضخيم الأحداث المؤدية إلى الخلاف، وعدم جمع الكلمة والتوحد لأنه إذا حدث التوحد انكشف عوارهم، وافتضح أمرهم.

ثالثاً: تظهر دسائس المنافقين وما تضمره قلوبهم من خلال مواقفهم وتفسيرهم للأحداث حسب أهوائهم وما يحقق أغراضهم، فهم أصحاب المواقف الملتوية والتفسيرات السلبية والمنهزمة لكل ما يمت للإسلام والمسلمين بصلة.

رابعاً: يمارس المنافقون تشويه صورة القدوة والقيادة حتى يفكوا الارتباط بين الناس ومن يقتدون به، فيضعف الالتزام، وتهتز المبادىء، ويظهر الملتزمون بالإسلام في صورة مهزوزة لا تدفع إلى الإقتداء بهم، أو السير في طريقهم.

خامساً: يندس المنافقون في الصف المسلم ولا يظهرون ما يضمرون ليخفوا أنفسهم، فلابد من محكات ومصفيات تظهرهم وتخرج ما بطن منهم.

سادساً: يعالج القائد المسلم أو الداعية المواقف بما يناسبها من الحكمة وبعد النظر، ويبحث عن أنجح الأساليب المكافئة لكل حدث حتى يتجاوزه ويُعفي أثره.

سابعاً: يكيد الأعداء للدعوة الإسلامية بالخفاء والعلن، ويشاركون في المخططات المحاربة للإسلام وأهله، لذا لابد من مجازاتهم وتأديبهم والوقوف في وجههم وكشف مخططاتهم وأساليبهم الخبيثة.

ثامناً: يعصم الله المؤمن بإيمانه فإذا عرضت عليه مواقف الفتن انتبه إيمانه

لها وردها واعتصم بالله سبحانه وتعالى فلا يقول ولا يفعل إلا حقاً.

تاسعاً: يغرس الإسلام في نفوس أتباعه الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين، والبراء من الكافرين والمنافقين.

عاشراً: يرزق الله من يشاء من عباده الخير والمكانة الرفيعة في الدنيا والآخرة، حيث تحولت جويرية بنت الحارث من أمة تبحث عن فدية لرقبتها، إلى أم للمؤمنين رضى الله عنها.

الحادي عشر: تظهر بساطة التعامل، وعدم التعقيد في عرض الرسول ﷺ الزواج من جويرية، فلا مانع من عرض الرجل نفسه على المرأة إذا رغب الزواج منها.

* غزوة الخندق أو الأحزاب

* سبب التسمية

- أما الخندق: نسبة إلى الخندق الذي حفره النبي ﷺ وأصحابه شمال المدينة ليمنع به قريشاً ومن حالفهم من دخول المدينة.
- أما الأحزاب: فنسبة إلى العدو الذي تحزّب وتجمع من قريش وغطفان واليهود ضد المسلمين في تلك الغزوة.

* تاريخ الغزوة

وقعت هذه الغزوة في شهر شوال من السنة الخامسة من الهجرة النبوية الشريفة[1].

* أسباب الغزوة

أولاً: دور يهود بني النضير

فبعد إخراج النبي ﷺ ليهود بني النضير من المدينة وطردهم إلى خيبر فكروا في الثأر من المسلمين، وطمعوا في العودة إلى المدينة المنورة مرة أخرى.

فخرج وفد من قيادتهم سلام بن أبي الحقيق، وحيي بن أخطب، وكنانة ابن أبي الحقيق، وغيرهم إلى مكة، ليدعوا قريشاً إلى حرب رسول الله ﷺ ووعدوهم بالقتال معهم حتى يستأصلوه.

ثم خرجوا إلى قبيلة غطفان وأغروها بالتحالف معهم ومع قريش على حرب المسلمين، وأغروهم ببعض تمر خيبر إذا اشتركوا معهم في الحرب فأجابهم زعيم غطفان عيينة بن حصن الفزاري إلى ذلك[2].

ثانياً: استمرارية الصراع بين المسلمين والمشركين، ومحاولة قريش مرة بعد مرة القضاء على قوة المسلمين التى ترى تعاظمها وثباتها وخطرها عليها.

---

(١) البداية والنهاية ٤/١٠٥ – ١٠٦ وانظر ذلك بالتفصيل في فتح الباري ٧/٣٩٢.
(٢) انظر فتح الباري ٧/٣٩٣.

ثالثاً: محاولة حسم الصراع وعدم إطالته أكثر من ذلك، حيث ثبت لقريش أن ما سبق الأحزاب من صراع عسكري لم ينهي الخطر، ولم يوقف النمو عند عدوها محمد ﷺ وأصحابه، فكان لابد من حملة عامة قوية تستأصل المسلمين، وتزيلهم من الوجود.

*** موقف الرسول ﷺ واصحابه رضوان الله عليهم**

علم ﷺ بما أجمع عليه عدوه من كيد ومكر، فاستشار أصحابه في طريقة المواجهة لذلك الخطر.

*** الحكمة ضالة المؤمن**

أفاد سلمان الفارسي رضي الله عنه المسلمين بحكمة من أفعال الفرس في بلادهم إذا دهمهم العدو. فذكر أنهم يحفرون حولهم خندقاً لا يقدر العدو على تجاوزه، والوصول إليهم بسببه، فوافق رسول الله ﷺ والصحابة على الفكرة، وبدأوا تنفيذها.

*** المدينة مساعدة للخندق**

إن موقع المدينة ساعد على تقبل فكرة الخندق حيث أن جهة واحدة – الشمالية – هي التي تحتاج إلى حفر الخندق.

أما الجهات الأخرى فلا تحتاج إلى ذلك لوجود الموانع الطبيعية التي تحول دون اقتحامها.

- فمن الجهات الغربية والشرقية توجد الحرتان، وهي صخور بركانية مدببة لايمكن السير عليها.
- ومن الجهة الجنوبية توجد أشجار النخيل وحوائط البساتين، ويوجد في الجنوب الشرقي – العوالي – يهود بنوقريظة، وبينهم وبين النبي ﷺ حلف وعهد وميثاق – كما مرّ عند ذكر المعاهدة وقت وصول النبي ﷺ المدينة.

*** حفر الخندق**

- بدأ حفر الخندق في ظروف صعبة من الزمان، إذ لابد من الإنجاز السريع

الذي يسبق وصول الجيوش المتحزبة، وكان حال المسلمين وضيق ذات يدهم في الطعام والمال ظاهراً.

- شارك جميع المسلمين بكل فئاتهم في هذا العمل الكبير أسوتهم في ذلك رسول الله ﷺ الذي حمل التراب حتى اغبر بطنه، ووارى التراب جلده.
- كان الطعام قليلاً، والمؤونة شحيحة، ربطوا على بطونهم الحجارة من شدة الجوع.
- حدث أثناء الحفر ما ثبتّ الناس من دلائل النبوة، ونتاج الإيمان والصبر على ما هم فيه من إعداد واستعداد. ومن ذلك:

أولاً: قصة طعام جابر رضي الله عنهما

عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما يقول: لما حفر الخندق رأيت برسول الله ﷺ خمصاً[1]، فانكفأت[2] إلى امرأتي، فقلت لها: هل عندك شيء؟ فإني رأيت رسول الله ﷺ خمصاً شديداً، فأخرجت لي جراباً[3] فيه صاع من شعير[4].

ولنا بهيمة[5] داجن[6] قال فذبحتها وطحنت، ففرغت إلى فراغي فقطعتها في برمتها، ثم وليت إلى رسول الله ﷺ فقالت: لا تفضحني برسول الله ﷺ ومن معه، قال فجئته فساررته. فقلت: يا رسول الله إنا قد ذبحنا بهيمة لنا، وطحنت صاعاً من شعير كان عندنا، فتعال أنت في نفر معك فصاح رسول الله ﷺ وقال: (يا أهل الخندق إن جابرا قد صنع لكم سوراً[7]

---

(١) (خمصاً) الخمص خلاء البطن من الطعام.

(٢) (فانكفأت) أي انقلبت ورجعت.

(٣) (جراباً) هو وعاء من جلد معروف، بكسر الجيم وفتحها، والكسر أشهر.

(٤) أخرجه مسلم، كتاب الأشربة، باب جواز استتباعه غيره إلى دار من يثق برضاه بذلك ١٦١٠/٣ (ح/٢٠٣٩) والتعليقات لمحمد فؤاد عبدالباقي.

(٥) (بهيمة) تصغير بهمة، وهي الصغير من أولاد الضأن، قال الجوهري، وتطلق على الذكر والأنثى كالشاة والسخلة الصغيرة من أولاد المعز.

(٦) (داجن) الداجن ما ألف البيوت.

(٧) (سوراً) بضم السين، وإسكان الواو، غير مهموز، هو الطعام الذي يدعى إليه، وقيل الطعام مطلقاً، وهي لفظة فارسية.

فحيهلا[1] بكم) وقال رسول الله ﷺ (لا تنزلن برمتكم ولا تخبزن عجينتكم حتى أجيء) فجئت وجاء رسول الله ﷺ يقدم الناس. حتى جئت امرأتي فقالت: بك، وبك[2] فقلت قد فعلت الذي قلت لي[3] فأخرجت له عجينتنا فبصق فيها وبارك، ثم عمد إلى برمتنا فبصق فيها وبارك، ثم قال: (ادعي خابزة فلتخبز معك، واقدحي من برمتكم[4] ولا تنزلوها) وهم ألف. فأقسم بالله لأكلوا حتى تركوه وانحرفوا[5] وإن برمتنا لتغط[6] كما هي، وإن عجيننا لتخبز كما هو[7].

ثانياً: اعتراض الصخرة في أثناء الحفر

وقد واجهت المسلمين صخرة عجزوا عن كسرها وإزالتها في أثناء الحفر أخذ ﷺ المعول وضربها الضربة الأولى فقال: (الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام والله إني لأبصر قصورها الحمر الساعة، ثم ضرب الضربة الثانية، فقال: الله أكبر أعطيت مفاتيح فارس، والله إني لأبصر قصر المدائن الأبيض، ثم ضرب الضربة الثالثة فقال: الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذه الساعة)[8].

ثالثاً: ترديد الأناشيد

وقد ردد المسلمون أهازيج التثبيت والأمل ليزرعوه في النفوس، ويحركوا به الهمم، وينشطوا به العمل.

---

(١) (فحيهلاً) بتنوين هَلاً، وقيل: بلا تنوين، على وزن علا. ومعنى حيهل، عليك بكذا، أو ادع بكذا، هكذا قاله أبوعبيد وغيره، وقيل: معناه أعجل به، وقال الهرويّ: معناه هات وعجل به.

(٢) (بك وبك) أي ذمته ودعت عليه، وقيل: معناه بك تلحق الفضيحة وبك يتعلق الذم، وقيل: معناه جرى هذا برأيك وسوء نظرك وتسببك.

(٣) (قد فعلت الذي قلت لي) معناه اني أخبرت النبي ﷺ بما عندنا، فهو أعلم بالمصلحة.

(٤) (واقدحي من برمتكم) أي اغرفي، والمقدح المغرفة، يقال: قدحت المرق اقدحه، غرفته.

(٥) (تركوه وانحرفوا) أي شبعوا وانصرفوا.

(٦) (لتغط) أي تغلي ويسمع غليانها.

(٧) (كما هو) يعود إلى العجين.

(٨) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق ١٥٠٦/٤ (ح/٣٨٧٦ – ٣٨٧٧).

فقالوا:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا

إن الأولى قد بغوا علينا وإن أرادوا فتنة أبينا[1]

ويرددون ساعة أخرى:

نحن الذين بايعوا محمداً على الإسلام ما بقينا أبدا

ويجيب رسول الله ﷺ :

(اللهم إنه لا خير إلا خير الآخرة، فبارك في الأنصار والمهاجرة)[2].

وأنجز المسلمون ذلك العمل قبل وصول الأعداء إلى مجمع الأسيال عند أحد.

*** خطة المواجهة**

- جعل المسلمون ظهورهم إلى جبل سلع المشرف على الخندق وأقاموا نقاط مراقبة تؤدي مهمتين:

الأولى: حماية الخندق من محاولات الردم والدفن.

الثانية: رمي المشركين بالنبل إذا حاولوا الاقتحام، أو اقتربوا من الخندق[3].

- جمع المسلمون النساء والأطفال وأصحاب الأعذار في أحد الحصون توفيراً لحمايتهم من كرة العدو أو دخوله المدينة[4].

---

(١) أخرجه البخارى، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق ١٥٠٦/٤ (ح/٣٨٧٨ - ٣٨٨٠) وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة الأحزاب ١٤٣٠/٣ (ح/١٨٠٣).

(٢) أخرجه البخارى، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق ١٥٠٤/٤ (ح/٣٨٧٣ - ٣٨٧٤) وأخرجه مسلم في صحيحه كتاب الجهاد والسير باب غزوة الأحزاب ١٤٣١/٣ (ح/١٨٠٥).

(٣) السيرة النبوية - ابن هشام - ٣٠٦/٢.

(٤) أخرج ذلك الإمام مسلم في صحيحه كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل طلحة والزبير رضي الله عنهما ١٨٧٩/٤ (ح/٢٤١٦).

* المشركون والخندق

ووصلت الأحزاب المدينة ففوجئوا بوجود الخندق، إلا أنهم قاموا بعدة محاولات لاقتحامه، ولكنهم فشلوا في ذلك لأن حراسات الخندق كانت تمطرهم بوابل النبل عند كل محاولة، وقد نفذ أفراد منهم عمرو بن ود - فارس قريش - اقتحامه.

وقد ذُكر أن علياً رضي الله عنه بارزه بعد اقتحامه للخندق، وأنه قتله.

وفر آخرون راجعين إلى قومهم[1].

وقد ظلت المناوشات بالنبل مستمرة بين المسلمين والمشركين طيلة مدة الحصار حتى إنهم شغلوا المسلمين في يوم من الأيام عن الصلاة[2].

* دور المنافقين في غزوة الأحزاب

الحديث عن المنافقين والدور الانهزامي التشكيكي الذي أدوه يوم الخندق ذكره الله في كتابه تعالى، فقد وردت الآيات في سورة الأحزاب مبينة لنفسية المنافقين بياناً شافياً، وحكت موقفهم وأساليبهم الملتوية في التعامل مع الحدث مما يحسن إيراده فهو أصدق القول وأتمه.

- التكذيب بوعد الله ورسوله في النصر

وهذا دأب النفاق لعدم طمأنينة القلب إلى قضايا الإيمان الغيبية، وعدم القناعة بأساسيات العقيدة الإسلامية القائمة على مبدأ التصديق بما أخبر الله به في كتابه أو أخبرنا به رسوله محمد ﷺ.

قال تعالى ﴿**وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا**﴾[3].

وقال المنافقون: يعدنا محمد بقصور كسرى وقيصر والواحد منا لا يأمن على نفسه إذا قام يريد التبول.

---

(١) السيرة النبوية ٢/٢٢٤.

(٢) أخرجه البخاري بموضعه ٤/١٥٠٩ (ح/٣٨٨٥ - ٣٨٨٦).

(٣) سورة الأحزاب آية ١٢.

- زرع الياس والخذلان بين المسلمين

ولقد مارسوا هذا تعويقاً للأداء، واحباطاً للجهد، ليبرروا من جهة موقف خذلانهم، وليحققوا من الجهة الأخرى النصر لأعداء المسلمين بتضعيف روح المقاومة.

قال تعالى ﴿وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا.. ﴾(1).

وقال تعالى: ﴿قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلمّ إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلاً ﴾(2).

- الاستئذان والتولي من ميدان الصراع

يحاول المنافقون أن يجدوا العذر الذي به يستترون فلا ينفضح حالهم ويبحثون عن العلة التي بسببها يجدون الهرب، لأنهم في حقيقة الأمر ليسوا أصحاب القضية، فعن ماذا يدافعون؟ ولأجل أي قضية يضحون؟ فهم عدو خفي يرجو الانتصار للعدو الظاهر، فلا يُستغرب تصرفهم، بل كان لابد من فضح التواءات نفوسهم من خلال محكات المواقف، ومتطلبات الصراع بين الحق والباطل.

قال تعالى: ﴿... ويستئذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة، إن يريدون إلا فرارا ﴾(3).

وقال تعالى: ﴿ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يُوَلُّونَ الأدبار وكان عهد الله مسؤولاً، قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذاً لا تُمَتَّعُونَ إلا قليلاً ﴾(4).

- فصام تعيس في السلم والحرب

وهذا هو التلون الذي ينتج عنه النفاق، يقابلونكم بوجه في حال، ويكونون بوجه آخر في حال أخرى فهم ذوو الوجهين.

(1) سورة الأحزاب جزء من آية ١٣.
(2) سورة الأحزاب آية ١٨.
(3) سورة الأحزاب جزء من آية ١٣.
(4) سورة الأحزاب الآيتان ١٥ – ١٦.

قال تعالى: ﴿أشحةً عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يُغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنةٍ حدادٍ أشحةً على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيراً ﴾(١).

بل إن المنافقين مستعدون أن يبيعوا ما يظهرون من إيمان لمن طلبه فهو لايمثل عندهم هوية، ولا يتحقق من خلاله عندهم هدف.

قال تعالى: ﴿ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سُئلوا الفتنة لآتوها وما تلبثوا بها إلا يسيرا ﴾(٢).

- تمني مغادرة الموقع الملتهب

إن المنافقين يجدون طلبتهم في وقت السلم والأمان فيبسطون الدعاوي العريضة، ويلفقون المواقف البطولية.

فإذا جدَّ الجد، وحمي الوطيس، وتحددت المواقف تمنوا لو أنهم في غير ذلك الموقع الساخن، وأنهم في غير تلك الدائرة الملتهبة.

قال تعالى ﴿يحسبون الأحزاب لم يذهبوا وإن يأتِ الأحزاب يودُّوا لو أنهم بادُون في الأعراب يسألون عن أنبائكم ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلاً ﴾(٣).

* نقض اليهود عهدهم

وقد نقض يهود بني قريظة عهدهم الذي عاهدوا فيه النبي ﷺ مقدمه من المدينة. وذلك كما يلي:

خرج حيى بن أخطب حتى أتى كعب بن أسد القرظي صاحب عهدهم فلما سمع به كعب أغلق بابه دونه، فاستأذن عليه فأبى أن يفتح به، وقال: يا حيي إنك امرؤ مشؤوم، وإني عاهدت محمداً عهداً فلست بناقض ما بيني وبينه ولم أر منه إلا وفاء وصدقاً، ومازال حيي به حتى فتح له فقال: ويحك يا كعب

---

(١) سورة الأحزاب آية ١٩.
(٢) سورة الأحزاب آية ١٤.
(٣) سورة الأحزاب آية ٢٠.

لقد جئتك بعز الدهر، قال: وما ذاك؟ قال: لقد جئتك بقريش على قادتها وسادتها، وبغطفان على قادتها وسادتها، وقد عاهدوني على أن لا يبرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه، فقال: كعب: دعني يا حيي، فإني لم أر من محمد إلا وفاءً وصدقاً!! وتكلم عمرو بن سعدي القرظي فذكر وفاء الرسول ومعاهدتهم إياه وقال: إذا لم تنصروه فاتركوه وعدوه، ولكن حيياً مازال بكعب يفتله في الذروة والغارب[1] حتى غلبت عليه يهوديته فاستجاب له، ونقض ما بينه وبين الرسول من عهد، ومزقوا الصحيفة التي كان فيها العهد إلا بني سعنة، أسد وأسيد وثعلبة، فإنهم خرجوا إلى رسول الله ووفوا بالعهد[2].

* استجلاء الرسول ﷺ للخبر

فلما انتهى الخبر إلى رسول الله ﷺ بعث سعد بن معاذ سيد الأوس وسعد بن عبادة سيد الخزرج ومعهما عبدالله بن رواحة، وخوات بن جبير رضي الله عنهم وقال: (انطلقوا حتى تأتوا هؤلاء القوم فتنظروا أحق ما بلغنا عنهم؟ فإن كان حقاً فالحنوا لي لحناً أعرفه[3] ولا تفتوا في أعضاد المسلمين وإن كانوا على الوفاء فاجهروا به للناس).

فخرجوا حتى أتوهم فوجدوا الخبر صحيحاً، ووقعوا في رسول الله ونالوا منه، فجعل سعد بن معاذ يشاتمهم فأغضبوه، فقال له سعد بن عبادة دع عنك مشاتمتهم، فما بيننا وبينهم أعظم من المشاتمة، ثم أقبل السعدان ومن معهما فقالوا: عضل والقارة، أي غدر كغدرهم بأصحاب سرية الرجيع، فقال رسول الله ﷺ (الله أكبر، أبشروا يا معشر المسلمين) ثم تقنع بثوبه واضطجع، ومكث طويلاً، فعرفوا أنه لم يأته خبر عن بني قريظة، ثم رفع رأسه وقال: (أبشروا بفتح الله ونصره)[4].

---

(١) هذا مثل يضرب في المراوضة والمخاتلة، وأصله في البعير يستصعب عليك فتأخذ القرادة من ذروته وغارب سنامه وتفتل هناك، فيجد البعير لذة فيأنس عند ذلك.

(٢) السيرة النبوية – ابن هشام – ٣/٣٠٧ – ٣٠٨.

(٣) سورة الأحزاب الآية ٩ وما بعدها.

(٤) الطبقات الكبرى – ابن سعد – ٢/٦٧ معلقاً.

* اشتداد البلاء والخوف

وقد عظم البلاء على المسلمين، واشتد الخوف، فقد أتاهم العدو من فوقهم، ومن أسفل منهم، وتنوعت الظنون، وكثرت الهواجس، فأما المؤمنون المخلصون فازدادوا إيماناً، وأيقنوا أن نصر الله لابد أن يكون، وأما المنافقون وضعفاء الإيمان فقد كشفوا عن خبيئة نفوسهم حتى قال بعضهم: كان محمد يعدنا كنوز كسرى وقيصر وأحدنا لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط!!.

وعزم البعض على الرجوع إلى المدينة، وتعلل بعضهم بأن بيوتهم مكشوفة غير محصنة، واستأذنوا النبي ورجعوا، وهكذا استحكم البلاء، ولاح الشر من كل مكان، ولن تجد أدق في تصوير هذه الحالة من قوله سبحانه:

﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً، إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفلَ منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا، هنالك ابتُلِيَ المؤمنون وزُلْزِلوا زلزالاً شديداً، وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً.. ﴾[1].

وقد اضطر الرسول ﷺ وقد نقضت قريظة العهد أن يرسل مسلمة بن أسلم في مائتين، وزيد بن حارثة في ثلاثمائة لحراسة المدينة خوفاً على النساء والذراري من غدر اليهود[2] وهكذا تضاءل عدد الجيش الواقف للدفاع قبالة الخندق بانسحاب بعض المنافقين أولاً، ثم بهذا العدد الذي وجهه النبي ﷺ لحراسة المدينة.

* محاولة تخفيف الضغط على المسلمين

ثم رأى رسول الله ﷺ أن يخذِّلَ بين الأحزاب ويفرق جمعهم، فبعث إلى عيينة بن حصن، والحارث بن عوف المري - وهما قائدا غطفان - وساومهما على أن يأخذا ثلث ثمار المدينة، على أن يرجعا بمن معهما، فقبلا، ولكن الرسول ما كان ليبرم أمراً لم ينزل فيه وحي حتى يستشير أصحابه رضوان

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٩ وما بعدها.

(٢) الطبقات الكبرى - ابن سعد - ٦٧/٢ معلقاً.

الله عليهم جميعاً.

فأرسل إلى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة فذكر لهما ذلك، فقالا: يا رسول الله أمراً تحبه فنصنعه؟ أم شيئاً أمرك الله به لابد لنا من العمل به؟ أم شيئاً تصنعه لنا؟ فقال: (بل شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا لأنني رأيت العرب رمتكم عن قوس واحد، وكالبوكم - اجتمعوا عليكم - من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم شوكتهم إلى أمر ما) فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرى أو بيعاً، أفحين أكرمنا الله بالإسلام، وهدانا له، وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا؟!!.

والله ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم، فقال رسول الله ﷺ (فأنت وذاك)[1].

* الحرب خدعة

إن الله سبحانه إذا أراد شيئاً هيأ له الأسباب ويسر له الوسائل، وقد ساقت الأقدار نعيم بن مسعود الأشجعي - وهو من غطفان - إلى رسول الله ﷺ وكان صديقاً لقريش واليهود، فقال: يا رسول الله إني قد أسلمت وقومي لا يعلمون بإسلامي، فمرني بأمرك حتى أساعدك.

وتفتق العقل الكبير عن هذا التوجيه الرائع والإيمان إلى العمل السياسي البارع، فقال له: (أنت رجل واحد وماذا عسى أن تفعل؟ ولكن خذل عنا ما استطعت، فإن الحرب خدعة[2]).

وكان نعيم عند حسن ظن النبي ﷺ وأهلاً لتوجيهه، فخرج من عند النبي ﷺ وتوجه إلى بني قريظة فقال: يا بني قريظة تعرفون ودِّي لكم، وخوفي

---

(١) كشف الاستار ١/٣٣١ - ٣٣٢، ومجمع الزوائد ٦/١٣٢ وقال رواه البزار والطبراني ورجال البزار والطبراني فيهما محمد بن عمرو وحديثه حسن، وبقية رجاله ثقات.

(٢) خدعة (بفتح المعجمة وضمها مع سكون المهملة، وبضم أوله وفتح ثانيه) وهي اشهر لغاتها وافصحها الاولى حتى قال ثعلب: إنها لغة النبي، ومعنى الاولى أن الحرب تنتهي بخدعة واحدة، والثانية ان الشأن في الحرب الخداع، والثالثة صيغة مبالغة اي كثيرة الخداع وحديث الحرب خدعة اخرجه مسلم، كتاب الجهاد، باب الحرب خدعة ٣/١٣٦١ (ح/١٧٣٩).

عليكم، وإني محدثكم حديثاً فاكتموه عني، قالوا: نعم لست عندنا بمتهم، فقال: لقد رأيتم ما وقع ببني قينقاع والنضير، وإن قريشاً وغطفان ليسوا مثلكم، فهم إذا رأوا فرصة انتهزوها وإلا انصرفوا لبلادهم، وأما أنتم فتساكنون الرجل - يريد الرسول - ولا طاقة لكم بحربه وحدكم، فأرى أن لا تدخلوا في هذا الحرب حتى تستيقنوا من قريش وغطفان أنهم لن يتركوكم ويذهبوا إلى بلادهم، بأن تأخذوا منهم رهائن سبعين شريفاً منهم يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمداً حتى تناجزوه، فاستحسنوا رأيه وقالوا: قد أشرت بالرأي.

ثم قام من عندهم وتوجه إلى قريش فاجتمع برؤسائهم وقال: أنتم تعرفون ودِّي لكم ومحبتي إياكم، إني محدثكم حديثاً فاكتموه عني، فقالوا نفعل، فقال لهم: إن بني قريظة قد ندموا على ماصنعوا فيما بينهم وبين محمد، وقد أرسلوا إليه أنا ندمنا علي فعلنا، فهل يرضيك أن نأخذ لك من قريش وغطفان جمعاً من أشرافهم، ونعطيكهم فتضرب أعناقهم، ثم نكون معك على من بقي منهم حتى نستأصلهم، فإن طلبوكم أحداً فلا تُعطوهم.

ثم خرج حتى أتى غطفان فقال: يا معشر غطفان إنكم أصلي وعشيرتي وأحب الناس إلي، ولا أظنكم تتهمونني، قالوا: صدقت ما أنت عندنا بمتهم قال لهم: فاكتموا عني قالوا: نفعل، ثم أخبرهم بما أخبر به قريشاً، وحذرهم مثل ما حذرهم.

* نجاح التدبير

فلما كانت ليلة السبت أرسل أبوسفيان بن حرب ورؤوس غطفان وفداً برئاسة عكرمة بن أبي جهل إلى بني قريظة فقالوا لهم: إنا لسنا بدار مقام، قد هلك الخفُّ والحافر - الإبل والخيل - فاغدوا للقتال حتى نناجز محمداً ونفرغ مما بيننا وبينه، فأرسلوا إليهم أن اليوم يوم السبت، ولم يصبنا ما أصابنا إلا من التعدي فيه، ومع ذلك فلا نقاتل معكم حتى تعطونا رُهُناً من رجالكم، فإنا

نخشى إن ضرستكم الحرب[1] واشتد عليكم القتال أن تذهبوا إلى بلادكم وتتركونا، والرجل في بلدنا ولا طاقة لنا به.

فلما رجعت إليهم الرسل بذلك قالوا: والله إن الذي حدثكم نُعيم بن مسعود لحق!! فأرسلوا إلى بني قريظة: إنا والله لا ندفع إليكم رجلاً واحداً من رجالنا، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا، فلما انتهت إليهم الرسل بذلك قالت قريظة: إن الذي ذكر لكم نُعيم بن مسعود لحق!! فأرسلوا إلى قريش وغطفان: إنا لا نقاتل معكم حتى تعطونا رهائن، وهكذا بلغ هذا التدبير المحكم غايته بالتفرقة بين قريظة والأحزاب[2].

*** دعاء وابتهال**

وفي هذه الغمرة من الشدائد والمخاوف كان النبي ﷺ وأصحابه لا ينفكون من الدعاء والتوجه إلى رب السماء ففي الصحيحين أن رسول الله ﷺ دعا يوم الأحزاب فقال: (اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب اللهم اهزمهم وزلزلهم) وفي رواية: (اللهم اهزمهم وانصرنا عليهم)[3].

*** هزيمة الأحزاب**

واستجاب الله لرسوله والمؤمنين، ونزل المدد من السماء، وأرسل الله عليهم ريحاً شديدة في ليلة شاتية باردة، فهدمت خيامهم، وكفأت قدورهم وأطفأت نيرانهم، وفعلت فيهم جنود الله غير المرئية الأفاعيل، فامتلأت قلوبهم رعباً وخوفاً، وساد الهرج والمرج والجلبة والصياح، وقرروا الرحيل[4].

*** تعرف أخبار القوم**

وكان رسول الله ﷺ مستيقظاً لا ينام، وقائماً لا ينفك عن الصلاة، فلما سمع الجلبة قال: (من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع، أسأل الله أن يكون رفيقي في الجنة؟)، فما قام رجل من القوم من شدة الخوف والبرد والجوع، فلما لم يقم أحد دعا حذيفة بن اليمان، قال: فلم يكن لي من بد من

---

(١) ضرستكم: ضعضعتكم ونالت منكم.

(٢) السيرة النبوية - ابن هشام - ٣/٢١٩ - ٢٢٠.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد، باب غزوة الأحزاب ٣/١٤١٤ (ح/١٧٨٨).

(٤) الطبقات الكبرى ٢/٧١.

القيام حين دعاني، فقال: (يا حذيفة اذهب فادخل القوم فانظر ماذا يصنعون ولا تحدثن شيئاً حتى تأتينا).

قال: فذهبت فدخلت في القوم وجنود الله تفعل بهم ما تفعل، فقام أبوسفيان فقال: لينظر كل امرئ من جليسه؟ فأخذ حذيفة بيد الرجل الذي كان جنبه، فقلت: من أنت؟ قال: فلان بن فلان، وتنادى الأعراب بالرحيل، وقام طليحة بن خويلد الأسدي فقال: إن محمداً قد بدأكم بشر فالنجاء النجاء!!

ثم نادى أبوسفيان بالرحيل فقال: يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكُراع والخف[(١)]، وأخلفتنا قريظة، ولقينا من شدة الريح ما ترون، فارتحلوا فإني مرتحل!! ثم قام إلى بعيره وركبه، وسمعت غطفان بما فعلت قريش فأسرعت إلى ديار قومها. ثم رجع حذيفة ورسول الله ﷺ يصلي وعليه كساء يمني، فلما فرغ من صلاته أخبره الخبر، فغطاه رسول الله بطرف كسائه، حتى ذهب عنه القر، فما زال نائماً حتى أصبح[(٢)].

* الأوبة إلى المدينة

ورجع النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، وقد أزال الله الكرب، وكشف الغمة، وعاد الرسول والمسلمون وهم يكبرون ويقولون: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير: آيبون تائبون، عابدون ساجدون، لربنا حامدون، لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، فلا شيء بعده.

قال تعالى: ﴿وردَّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً﴾[(٣)].

وبهذه العودة المخزية لقريش إلى مكة بعد أن ردهم الله خائبين قال رسول الله بعد هذه الغزوة (الآن نغزوهم، ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم)[(٤)]. وقد كان كما قال ﷺ.

---

(١) الكراع: الخيل. الخف: الإبل.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الجهاد، باب غزوة الأحزاب ٣/١٤١٤ - ١٤١٥ (ح/١٧٨٨)، وانظر السيرة النبوية - لابن هشام - ٣/٣٢٢.

(٣) سورة الأحزاب آية ٢٥.

(٤) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق ٤/١٥٠٨ (ح/ ٣٨٨٣ - ٣٨٨٤).

* **الدروس والعبـر**

أولاً : يبتلي الله عباده المؤمنين بالكافرين، فقد اجتمعت القوى الكافرة من اليهود والمشركين على حرب النبي ﷺ وأصحابه، فرموهم من قوس واحدة فى هذه الغزوة.

ثانيـاً: يخرج المؤمنون من الابتلاء والمحن وهم أشد ثباتاً وقوة ومنعة، لأن إيمانهم ينتصر فيزداد بالثبات على الحق، حيث تتجدد الطاعة فترقى بالنفس فى منازل التقوى وتحصيل الأجر من الله تعالى.

ثالثـاً: يتكرر موقف المنافقين فى كل موقع، وينكشف عوارهم عند كل محك فهم البلاء العظيم، لو سلم منهم مجتمع لسلم منهم مجتمع النبي ﷺ وأصحابه الكرام رضوان الله عليهم.

رابعاً: يحذر المؤمن من مسلك المنافقين والوقوع فيه، فالنفاق داء خطير، ووباء مستطير، ما أمنه إلا مصاب به، ولا خافه إلا مؤمن صادق الإيمان.

خامساً: يزداد المؤمن قناعة بصدق دعوته فيثبت عليها كلما رأى موقف المنافقين والتواءهم، وسوْ طويتهم، حيث يترسخ عنده الثبات على المبدأ مهما كانت التضحيات.

سادساً: يثق المؤمن بالله وبنصره، فالثقة بالله ملاذه، والتوكل عليه جل وعلا عقيدته، لأن الإيمان الجازم بالله وأن وعده بالنصر والتمكين للدعوة والدعاة لابد أن يتحقق يجعل المؤمن صامداً ثابتاً لا ينهار ولا يتخاذل.

سابعاً: يتفق أعداء الله على محاربة الإسلام، لا فرق بين مشرك - خائف على أصنامه وعادات جاهليته - وبين يهودي ونصراني - حاقد حاسد محرف لدينه ورسالاته، وبين مرتزق يطلب مصلحة دنيوية فهو مع من يدفع له من حطام الدنيا.

ثامناً: يجب على المؤمنين أن يعاملوا أعداء الله جميعاً معاملة واحدة لا فرق بين مشرك أو كتابي من اليهود والنصارى، فالكفر ملة واحدة.

قال تعالى ﴿والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير﴾[1].

تاسعاً: يطلب المؤمن الحكمة ويستخدمها فهو أحق الناس بها، فيستفيد من كل تجربة، ويطبق كل مفيد في حياته، فهو الوارث للحكمة وما أنتجته العقول وأبدعته التجارب.

عاشراً: يضع المؤمن الخطط المحكمة، ويوفر ما يقدر عليه من وسائل التنفيذ بذلاً للأسباب التي يقدر عليها مع إيمان عميق بأن النصر من الله ينصر من يشاء وهو العزيز الحكيم.

الحادي عشر: تبحث القيادة المسلمة عن الحلول الناجحة لكل القضايا التي تواجهها مهما كانت، فتستخدم النصح والتذكير، والمساومة وتمارس مخادعة العدو، فالحرب خدعة.

الثاني عشر: تظهر البشارات الربانية للمؤمنين أثناء الأداء في ميدان الدعوة والجهاد والصبر، فيزيد ذلك المؤمنين ثباتاً ويقيناً بسلامة منهجهم، وصحة طريقهم، فإذا بالعطاء في تمامه، والتضحية في قمتها، والصبر في قوته وكماله.

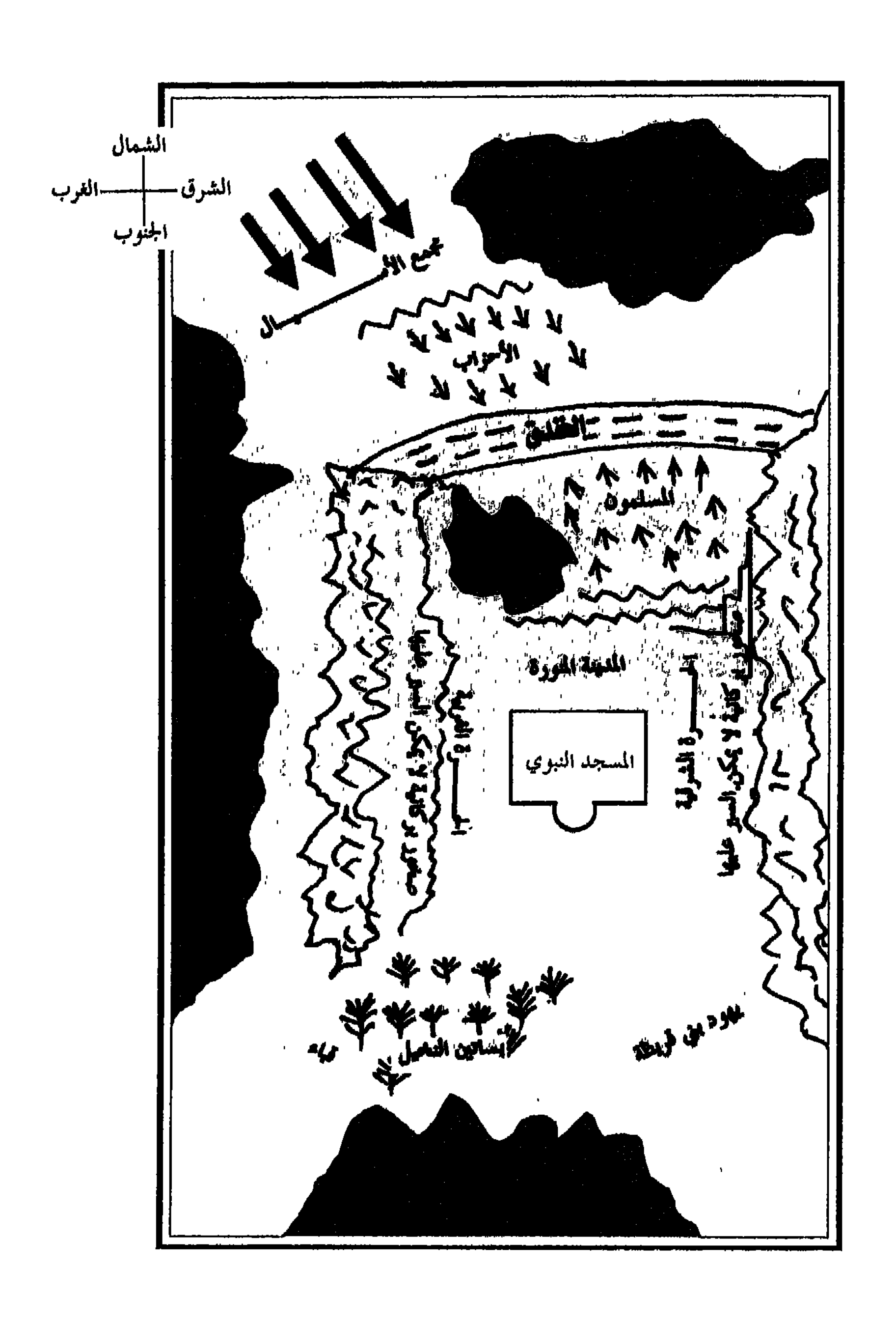
قال تعالى: ﴿... ويومئذ يفرح المؤمنون، بنصر الله ينصر من يشاء...﴾(٢).

الثالث عشر: لا يستقل المؤمن الجهد مهما كان، بل يستفيد من كل طاقة ويبحث عن كل سبب، فإن العبرة بالأداء وتوفيق الله وتسديده لذلك الجهد مهما قلّ في النظر المادي.

---

(١) سورة الأنفال آية ٧٣.

(٢) سورة الروم آيات ٤ – ٥.



موقع الأحزاب والخندق (رسم تقريبى)

* غزوة بني قريظة

* سبب الغزوة

نقض بنو قريظة عهدهم مع النبي ﷺ - كما سبق ذكره في غزوة الأحزاب - وكان ذلك النقض في الوقت العصيب الذي أحاطت بالمسلمين جيوش الأحزاب في المدينة. فقد عرّضوا المسلمين والإسلام للإبادة الجماعية والإنهاء من الوجود بغدرهم ذاك.

* رجوع النبي ﷺ من الأحزاب

رجع النبي ﷺ بعد رحيل الأحزاب، وزوال الخطر المحدق بالمسلمين. وقد خلع النبي ﷺ لبة الحرب، فإذا جبريل عليه السلام يأتيه وعلى ثناياه النقع قائلاً له: أوضعت السلاح فإن الملائكة لم تضع السلاح، إن الله يأمرك بالمسير إلى بني قريظة، وإني عامد إليهم فمزلزل بهم(١).

فأمر النبي ﷺ من يُنادي في المسلمين. (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يصلين العصر إلاّ في بني قريظة)(٢).

* خروج المسلمين إلى بني قريظة

خرج المسلمون بعد سماعهم النداء زرافات ووحدانا تلبية لنداء الجهاد واستجابة لداعي الله، وشفاءً لصدور المؤمنين في تأديب هؤلاء الخونة المجرمين.

وقد أدرك المسلمون وقت صلاة العصر وهم في الطريق إلى بني قريظة فطائفة منهم صلوا في الطريق. وقالوا إنما أراد ﷺ بالأمر بعدم الصلاة إلاّ في بني قريظة، إنما هو الحث على سرعة الخروج، وعدم التخلف عن الغزو وقد حدث المقصود، وليس المقصود تأخير الصلاة عن وقتها. وطائفة منهم لم يصلوا حتى وصلوا إلى بني قريظة، وحملوا الأمر على ظاهره وأن المقصود منه تأخير الصلاة عن وقتها، وأن وقتها هو وقت الوصول إلى ديار بني

---

(١) اخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب مرجع النبي ﷺ من الاحزاب ١٥١٠/٤ (ح/٣٨٩١).
(٢) اخرجه البخاري بالموضع السابق ١٥١٠/٤ (ح/٣٨٩٣).

قريظة. فكان اجتهاداً منهم رضوان الله عليهم عرضوه على النبي ﷺ فلم يُعنف واحداً منهم(١).

* الوصول إلى ديار بني قريظة

وصل المسلمون ديار بني قريظة، وضربوا عليهم الحصار حيث امتد خمساً وعشرين ليلة، وضيق المسلمون عليهم الخناق حتى عظم عليهم البلاء وايقنوا أن رسول الله ﷺ غير منصرف عنهم حتى يناجزهم، فقال لهم سيدهم كعب بن أسد: أرى أن تسلموا فقد استبان لكم انه نبي مرسل، وأنه الذي بشر به كتابكم، فتأمنوا على دمائكم ونسائكم وأبنائكم وأموالكم، فأبوا. فقال لهم فلنقتل أبناءنا ونساءنا ونخرج إلى محمد مستميتين في القتال حتى يحكم الله بيننا وبينه فإن نهلك لم نترك وراءنا شيئاً نخشى عليه، وإن نغلب فلن نعدم النساء والأبناء. فأبوا. فقال: الليلة ليلة سبت، وعسى أن يكون محمد وأصحابه أمنونا فيها، فانزلوا لعلنا نصيب منهم غرة. فأبوا وتخوفوا أن يعدوا في السبت فيصيبهم ما أصاب من قبلهم، فأعرض عنهم ورماهم بقلة الحزم(٢).

* استشارتهم أبا لبابة رضي الله عنه

بعث اليهود إلى النبى ﷺ أن أرسل إلينا أبا لبابة بن عبدالمنذر أخا بني عمرو بن عوف، وكانوا حلفاء الأوس نستشيره فى أمرنا، فأرسله النبى ﷺ إليهم، فلما رأوه قام إليه الرجال وجهش إليه النساء، وبكى الصبيان، فكأنه رقّ لهم.

فقالوا: يا أبا لبابة أترى أن ننزل على حكم محمد؟ قال نعم. وأشار بيده إلى حلقه، يعني الذبح، فاستشعر أبولبابة أنه زل، وندم ندماً تصوره عبارته (فوالله ما زلت قدماي من مكانهما حتى عرفت أني قد خنت الله ورسوله).

* توبة أبي لبابة

فاستحيا أبولبابة أن يقابل الرسول ﷺ وقال: والله لا أنظر في وجه

---

(١) مجمع الزوائد ١٤٠/٦ وقال رواه الطبراني ٧٩/١٩ - ٨٠ وقال رجاله رجال الصحيح غير ابن أبى الهذيل وهو ثقة.

(٢) السيرة النبوية - ابن هشام - ١٤٢/٣ - ١٤٣.

رسول الله ﷺ حتى أحدث توبة نصوحاً يعلمها الله من نفسي، وعاد إلى المدينة فربط نفسه بسارية من سواري المسجد وقال: لا أبرح مكاني حتى يتوب الله علي ما صنعت، فلما علم رسول الله ﷺ قال (أما لو جاءني لاستغفرت له، وإذ قد فعل هذا فلن أطلقه حتى يقضي الله فيه ما يشاء) وأقام على هذه الحال ست ليال أو أكثر كانت تأتيه امرأته في وقت كل صلاة فتحله حتى يتوضأ ويصلي، ثم يرتبط حتى نزلت توبته من السماء في قول الله تعالى: ﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وءاخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم﴾[1].

فتتابع الناس يبشرونه بتوبة الله عليه، وأرادوا أن يحلوه فأبى، وقال لا يحلني إلا رسول الله ﷺ فلما خرج رسول الله ﷺ إلى صلاة الصبح حلّه من رباطه.[2]

* رضاء اليهود بالتحكيم

رضي اليهود بالإستسلام، وجعلوا الحكم في ذلك لسعد بن معاذ رضي الله عنه. وكان قد أصيب في غزوة الخندق في أكحله، فلما رأى الدم يجري منه دعا الله ألا يميته حتى تقرّ عينه من بني قريظة، فوقف الدم.

ورضاء اليهود بحكم سعد بن معاذ أملاً منهم في أن يرحمهم، ويعطف عليهم فهم مواليه في الجاهلية.

وجيء بسعد رضي الله عنه محمولاً على دابة فلما دنا من المسلمين قال النبي ﷺ (قوموا إلى سيدكم)[3] ثم أخبره ﷺ أن اليهود رضوا بأن ينزلوا على حكمه.

فقال سعد: آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم.

---

(١) سورة التوبة آية ١٠٢.

(٢) مجمع الزوائد ١٣٦/٦ - ١٣٨ وقال رواه أحمد، وفيه محمد بن عمرو بن علقمة، وهو حسن الحديث، وبقية رجاله ثقات، انظر صحيح السيرة. للعلي/ ٢٨٣.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب مرجع النبي ﷺ من غزوة الأحزاب ١٥١١/٤ (ح/٣٨٩٥) ومسلم، كتاب الجهاد، باب الحكم فيمن حارب ونقض العهد ١٣٨٨/٣ - ١٣٨٩ (ح/١٧٦٨).

* **الحكم العدل**

قال سعد: حكمي فيهم «أن تُقتل مقاتلتهم، وتسبى ذراريهم، وتقسم أموالهم».

فقال النبي ﷺ (قضيت فيهم بحكم الله تعالى)(1).

ونفذ النبي ﷺ فيهم الحكم، وقتل مقاتلتهم وهم حوالي أربعمائة، حيث خدَّ الأخاديد في سوق المدينة، فسيقوا إليها المجموعة تلو الأخرى لتضرب أعناقهم فيها.(2)

ثم قسمَّ النبي ﷺ أموالهم وذراريهم بين المسلمين، وكان بين القتلى حيي ابن أخطب الذي جمع الأحزاب على المسلمين. وحرّض بني قريظة على نقض العهد، وشجعهم على عدم الإستسلام فلقي جزاءه الذي يستحق.

وفي شأن بني قريظة نزل قول الله تعالى: ﴿وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صَيَاصِيهِمْ وقذف في قلوبهم الرُعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً، وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطؤها وكان الله على كل شيء قديراً﴾(3).

---

(1) أخرجه البخاري بموضعه ١٥١١/٤ (/٣٨٩٥).

(2) فتح الباري ٤١٤/٧.

(3) سورة الأحزاب آيات ٢٦ – ٢٧.

الدروس والعبـر

أولاً : يستغل اليهود الفرص، وينسون عهودهم ومواثيقهم أو يتناسونها، فهم قوم غدر وخيانة وعداء للإسلام وأهله، يحاولون ضرب عدوهم بمقتل.

ثانياً: يتعاون اليهود مع كل أفاك أثيم، ويمارسون كل رذيلة، ويتنازلون عن كل دعاويهم بالتدين، فالغاية عندهم تبرر الوسيلة كيفما كان ذلك، فهم مشركون مع المشركين، ونصابون مع النصابين... الخ، لا يكّفون عن الكيد لمخالفيهم، والتأليب عليهم ومحاربتهم.

ثالثاً: يستجيب المؤمنون لنداء الله ولنداء رسوله ﷺ فطاعتهم موفورة والتزامهم تام، وتضحيتهم بارزة، واستعدادهم كامل حاضر.

رابعاً: ينزل العقاب على قدر الجرم سواء بسواء فلا ظلم ولا عدوان.

فقد عرّض اليهود المدينة والإسلام والمسلمين للإستباحة والقتل والزوال من الوجود، فكان الجزاء من جنس العمل بحكم سعد بن معاذ رضى الله عنه فيهم.

خامساً: يُوفق الله عباده المؤمنين للصواب في أقوالهم فيتوافق قولهم مع قول الله، ويتطابق حكمهم مع حكم الله تعالى، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء. والله ذو الفضل العظيم.

سادساً: يعرف اليهود أن محمداً ﷺ رسول الله، وأنه خاتم النبيين والمرسلين بشرّ به عيسى عليه السلام، وأخبر به موسى عليه السلام، إلا أنهم حسدوه وأنكروا نبوته، وحاربوه ظلماً وعدواناً.

سابعاً: يحرص المؤمن على الجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمة الله تعالى لا تأخذه في الله لومة لائم.

ثامناً: يفيء المؤمن لدينه وإسلامه؛ ولا يخون ذلك أبداً.

تاسعاً: يتوب المسلم إذا وقع في الخطأ، ويُسرع في العودة إلى الله مصمماً على عدم المعصية مرة أخرى، والله تواب رحيم.

* غزوة الحديبية

* سبب التسمية

سميت بالحديبية لاسم البئر التي تقع على بُعد اثنين وعشرين كيلاً إلى الشمال الغربي من مكة المكرمة – وتعرف اليوم بالشميسي، وهي المنطقة التي لا يسمح لغير المسلمين بتجاوزها إلى مكة –

وعند وصول الرسول ﷺ وأصحابه إليها وجدوا ماءها قليلاً، فشكوا ذلك للنبي ﷺ فأعطاهم سهماً من كنانته فغرزوه في البئر فكثر الماء.(١)

* تاريخها

كانت في السنة السادسة من الهجرة النبوية في يوم الاثنين مستهل شهر ذي القعدة(٢).

* رؤيا النبي ﷺ حق

أخبر النبي ﷺ أصحابه في المدينة أنه رأى في المنام أنه يطوف معهم حول البيت الحرام، ورؤيا الأنبياء صدق وحق فهي وحي(٣)، لذا قال له عمر رضي الله عنه وهو يراجعه في أمر الرجوع من الحديبية بعد كتابة كتاب الصلح:

أو ليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال (بلى، أفأخبرتك أنك تأتيه العام؟) قال عمر: لا، قال: (فإنك آتيه ومطوف به)(٤).

* خروج المسلمين من المدينة

– خرج المسلمون من المدينة، وعندما وصلوا إلى ذي الحليفة – ميقات أهل المدينة – احرموا بالعمرة، وقلّد النبي ﷺ الهدي وأشعره وكان عدده سبعين بدنة(٥).

---

(١) اخرجه البخارى، كتاب الشروط، باب الشروط فى الجهاد ٢/٩٧٤ (ح/٢٥٨١ – ٢٥٨٢).
(٢) فتح البارى ٧/٤٤٠، وزاد المعاد ٣/٢٨٦، والسيرة النبوية – ابن كثير – ٣/٣١٢.
(٣) ومن ذلك رؤيا ابراهيم عليه السلام بذبح ولده إسماعيل، وإرادته التنفيذ لولا أن الله فداه. وقد مرّ ذكر ذلك عند الحديث عن بدء الوحي بالتفصيل.
(٤) اخرجه البخاري، كتاب الشروط – تقدم – ٢/٩٧٤ – ٩٧٨ (ح/٢٥٨١ – ٢٥٨٢).
(٥) اخرجه البخاري، كتاب المغازى، باب غزوة الحديبية ٤/١٥٢٧ (ح/٣٩٢٦) ولم يذكر عدد الهدى.

سار النبي ﷺ وأصحابه حتى وصل إلى عسفان[1] حيث جاءهم بسر ابن سفيان الكعبي بخبر قريش قائلاً: «يا رسول الله: هذه قريش قد سمعت بمسيرك فخرجوا معهم العوذ المطافيل[2]، قد لبسوا جلود النمور، وقد نزلوا بذي طُوى يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبداً، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قدموا كُرَاع الغميم»[3].

شاور النبي ﷺ أصحابه في الطريق في الإغارة على ديار من ناصر قريشاً واجتمعوا معها لصد المسلمين عن مكة فقال أبوبكر رضي الله عنه:

«يا رسول الله خرجت عامداً لهذا البيت لا تريد قتل أحدٍ ولا حرب أحدٍ فتوجه له، فمن صدّنا عنه قاتلناه»[4].

* تغيير الطريق

لما علم النبي ﷺ بقرب خيل قريش قرر تغيير الطريق حتى يتفادى الاشتباك مع خيل قريش، فاتجه غرباً إلى جهة الساحل إلى الحديبية. وعندما أحس خالد بتغيير الطريق، رجع إلى مكة.

* الوصول إلى الحديبية

عندما وصل النبي ﷺ إلى الحديبية بركت ناقته القصواء، فقال الصحابة رضوان الله عليهم «خلأت القصواء»[5].

فقال النبي ﷺ (ما خلأت القصواء، وما هو لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل).

ثم قال: (والذي نفسي بيده، لا يسألونني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها) ثم زجرها فوثبت، وسار حتى نزل بأقصى الحديبية على

(١) عسفان: بلدة قريبة من مكة على بعد ٨٠ كيلاً من جهة الشمال من مكة.
(٢) العوذ: جمع عائذ - وهو من الإبل الحديثة النتاج، والمطافيل: جمع مطفل، التي معها أولادها وهو استعارة ان قريشاً خرجت جميعاً معها نساؤها وأولادها لربك.
(٣) كراع الغميم: واد أمام عسفان على بعد/ ٦٤ كيلاً من مكة.
(٤) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية ١٥٣٢/٤ (ح/ ٣٩٤٤).
(٥) اي بركت فلم تبرح مكانها، والقصواء اسم ناقة النبي ﷺ .

بئر ماء[1].

*** الموقف من قريش**

قال النبي ﷺ (يا ويح قريش، أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر الناس، فإن أصابوني كان الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وهم وافرون، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فماذا تظن قريش، والله إني لا أزال أجاهدهم على الذي بعثني الله له حتى يظهره الله، أو تنفرد هذه السالفة)[2].

*** توضيح الموقف وتبادل الرسل بين النبي ﷺ وأهل مكة**

كان لابد من توضيح الموقف لقريش، وأن النبي ﷺ إنما قدم لتعظيم البيت الحرام وزيارته، وهو حق للناس جميعاً في عُرف قريش نفسها، فأرسل إليهم من يوضح لهم مقصده الذي جاء من أجله، فمن ذلك:

*** تقليد البدن وإشعارها**

قلد المسلمون الإبل بقلادات وأشعروها ليراها الناس جميعاً وأنها وقفت على الحرم وهي هدية له. وقد بعثت قريش فيمن بعثت الحليس بن علقمة الكناني سيد الأحابيش، فلما رآه النبي ﷺ قال: «إن هذا من قوم يتألهون فأبعثوا الهدي في وجهه حتى يراه».

فلما رأى الحليس الهدي يسيل عليه من عرض الوادي في قلائدة، رجع إلى قريش قبل أن يصل إلى النبي ﷺ وذلك إعظاماً لما رأى، وقال لقريش رأيت البدن قد قلدت وأشعرت، فما أرى أن يصدوا عن البيت[3].

*** إرسال عثمان رضي الله عنه إلى مكة**

دعا النبي ﷺ عثمان رضي الله عنه وبعثه إليهم، فنزل عثمان في حماية وجوار أبان بن سعيد بن العاص الأموي حتى أدّى رسالته التي كلفه

---

(١) أخرجه البخارى، كتاب الشروط، تقدم – ٢/٩٧٤ (ح/٢٥٨١ – ٢٥٨٢).

(٢) المصدر الذى قبله بموضعه. والسالفة: صفحة العنق.

(٣) المصدر الذى قبله بموضعه.

النبي ﷺ بها، وهي إبلاغ أشراف قريش ما جاء له النبي ﷺ وأصحابه من زيارة البيت وتعظيمه(١).

* وفد خزاعة

وقد جاء بديل بن ورقاء في رجال من خزاعة، وكانوا عيبة نصح(٢) لرسول الله ﷺ. فأوضح لهم النبي ﷺ سبب مجيئه، ونقلوا ذلك إلى قريش وقالوا لهم: يا معشر قريش إنكم تعجلون على محمد، إن محمداً لم يأت لقتال وإنما جاء زائراً هذا البيت(٣).

* موقف قريش

اتسم موقف قريش بالعناد والتصميم على عدم الموافقة على دخول النبي ﷺ مكة، إذ نظروا إلى ذلك نظرة سياسية عسكرية لا دينية، فرأوا أن دخوله يمثل اعتداءً عليهم، وذهاباً لوجودهم وكيانهم، فقالوا:

«وإن كان إنما جاء زائراً للبيت، فلا والله لا يدخلها علينا عنوة أبداً، ولا تتحدث العرب بذلك»(٤).

إلا أنهم مالوا إلى حل يضمن لهم ما أرادوا ويُبعدهم عن القتال وويلاته فبدأوا في إرسال الوفود إلى النبي ﷺ وكان منهم:

* عروة بن مسعود الثقفي

وقد أبان له النبي ﷺ هدفه من المجيء فقال للنبي ﷺ أي محمد، أرأيت إن استأصلت أمر قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك؟ وإن تكن الأخرى، فإني والله لا أرى وجوهاً ، وإني لأرى أشواباً من الناس خليقاً أن يفروا ويدعوك.

فقال أبوبكر «امصص بَظر اللات(٥)، أنحن نفرُعنه وندعه»؟

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عثمان رضي الله عنه ١٣٥٢/٣ (ح/ ٣٤٩٥).

(٢) أي خاصته، وأصحاب سره، والعياب: مستودع الثياب، فشبه به، النهاية ٣٢٧/٣.

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٣٢٤/٤ بإسناد حسن.

(٤) أخرجه أحمد في المسند ٣٢٤/٤ بإسناد صحيح.

(٥) البظر بفتح الباء – الهَنة التي تقطعها الخافضة من المرأة عند الختان. النهاية ١٣٨/١، واللات صنم من أصنامهم، فهو يُعيره بذلك.

وقد رأى عروة من تعظيم أصحاب النبي ﷺ له الشيء الذي دعاه أن يقول لقريش عند رجوعه:

«أي قوم، والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي والله ما رأيت ملكاً قط يُعظمه أصحابه مثل ما يعظم أصحاب محمدٍ محمداً»[1].

* مكرز بن حفص

فلما رآه النبي ﷺ قال: (هذا مكرز وهو رجل فاجر) فجعل يكلم النبي ﷺ فبينما هو في الكلام قدم سهيل بن عمرو.

* بيعة الرضوان في الحديبية

عندما أرسل النبي ﷺ عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى مكة ليبلغهم هدف رسول الله ﷺ من المجيء، احتبسته قريش عندها.

فبلغ رسول الله ﷺ أن عثمان قد قتل[2].

فدعا النبي ﷺ أصحابه للبيعة تحت شجرة سمرة فبايعوه جميعاً على الموت[3].

وقد أثنى النبي ﷺ على أصحابه المبايعين فقال: (أنتم خير أهل الأرض)[4].

وقال: (لا يدخل النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة أحد الذين بايعوا تحتها)[5].

وقد وضع رسول الله ﷺ يده عن عثمان وقال، وهذه عن عثمان[6].

---

(١) أخرجه البخارى، كتاب الشروط - وتقدم - ٢/٩٧٤ (ح/ ٢٥٨١ - ٢٥٨٢).

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٤/٣٢٤ وتقدم.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية ٤/١٥٢٩ (ح/ ٣٩٣٦).

(٤) أخرجه البخارى - الموضع السابق - ٤/١٥٢٦ (ح/٣٩٢٣).

(٥) أخرجه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل الصحابة ٤/١٩٤٢ (٢٤٩٦).

(٦) أخرجه البخاري فى صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عثمان ٣/١٣٥٢ - ١٣٥٣ (ح/٣٤٩٥).

وقد عرفت هذه البيعة ببيعة الرضوان لأن الله تعالى أخبر بأنه رضي عن أصحابها في قوله تعالى ﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً، ومغانمَ كثيرةً يأخذونها وكان الله عزيزاً حكيماً﴾[1].

وقبل أن تتطور الأمور عاد عثمان رضي الله عنه بعد البيعة مباشرة.

* سهيل بن عمرو

وعندما رآه النبي ﷺ قال متفائلاً (لقد سهل لكم أمركم)[2].

وقال: (قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل)[3] وكانت تعليمات قريش صارمة لوفد الصلح. حيث قالت لسهيل:

ائت محمداً فصالحه، ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا فوالله لا تحدث العرب عنا أنه دخل علينا عنوة أبداً[4].

* شروط صلح الحديبية[5]

وقد اشتمل صلح الحديبية على الأمور التالية:-

أولاً: أن تعلن هدنة بين المسلمين والمشركين لمدة عشر سنين، ونص ذلك «...وضع الحرب عشر سنين، يأمن فيها الناس، ويكف بعضهم عن بعض، وأن بينهم عيبة مكفوفة، فلا إسلال ولا إغلال»[6].

ثانياً: أن يعود النبي ﷺ وأصحابه، ويأتوا من العام القادم. ونص ذلك «... لا تتحدث العرب أنا أُخذنا ضغطة[7]، ولكن ذلك في العام المقبل، فنخرج عنك فتدخلها بأصحابك، فأقمت فيها ثلاثاً معك سلاح الراكب لا

---

(١) سورة الفتح – آيات ١٨ – ١٩.
(٢) أخرجه أحمد في المسند ٣٢٤/٤ وتقدم.
(٣) السيرة النبوية – ابن هشام – ٤٣٩/٣، بإسناد حسن.
(٤) المصدر السابق وبنفس الإسناد.
(٥) انظرها مفصلة في السيرة النبوية – ابن هشام – ٤٤٠/٣ – ٤٤١. وأخرجها أحمد في المسند ٣٢٥/٤ من طريق ابن إسحاق بإسناد حسن.
(٦) العيبة: أي صدر خال من الغل والخداع، والإسلال – السرقة، والإغلال – الخيانة.
(٧) ضغطة: أي قهراً.

تدخلها بغير السيوف في القرب»[1].

ثالثاً: من أراد أن يدخل في حلف محمد دخل، ومن أراد أن يدخل في حلف قريش دخل. وكان تطبيق ذلك كالتالى «... فتواثبت خزاعة فقالوا: نحن مع عقد رسول الله ﷺ. وتواثبت بنوبكر فقالوا: نحن في عقد قريش وعهدهم».

رابعاً: من جاء إلى النبي ﷺ مسلماً من مكة ردّه إلى قريش، ومن جاء إلى قريش لا يردوه، ونص ذلك: «... ثم قال سهيل: وعلى أن لا يأتيك منا رجل - وإن كان على دينك - إلا رددته إلينا».

وتأويل ذلك في قول رسول الله ﷺ إذ قال (نعم، إنه من ذهب إليهم أبعده الله، ومن جاءنا منهم سيجعل الله له فرجاً ومخرجاً)[2].

*** أحداث في الحديبية**

أولها: اعتراض سهيل بن عمرو على كتابة البسملة وإصراره على كتابة - باسمك اللهم - إذ هي عبارة الجاهلية التي يدين بها، ورفض المسلمون ذلك إلا أن النبي ﷺ وافق على ذلك، تقريباً لوجهات النظر، ولأنها لا تمثل مشكلة تعيق الاتفاق والصلح.

ثانياً: اعتراضه أيضاً على عبارة (محمد ﷺ) إذ قال لو علمنا أنك رسول الله لما قاتلناك، واعتذر علي رضي الله عنه كاتب الصحيفة عن محو ذلك فقال له النبي ﷺ أرني مكانها فمحاها بيده الشريفة[3].

ثالثها: خروج أبي جندل بن سهيل بن عمرو رضي الله عنه من مكة يرسف في قيوده حتى رمى بنفسه بين المسلمين، وعندما رآه أبوه سهيل قال: هذا يا محمد أول من أقاضيك عليه أن ترده إليّ.

فقال النبي ﷺ (إنا لم نقض الكتاب بعد)، فقال سهيل: «والله إذاً لن أصالحك على شيء أبداً».

---

(١) القرب: القرية وعاء من الجلد يكون لحفظ الماء وغيره.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الجهاد، باب صلح الحديبية ١٤١١/٣ (ح/ ١٧٨٤).

(٣) أخرجه مسلم بموضعه ١٤١٠/٣ - ١٤١١ (ح/ ١٧٨٤) ولم يذكر قصة المحو، أنظرها فى صحيح السيرة للعلي/٣٢٠.

وألحَّ النبي ﷺ على سهيل أن يستثني أبا جندل، فرفض، على الرغم من موافقة مكرز بن حفص صاحب سهيل على طلب رسول الله ﷺ فقرر النبي ﷺ رده إلى سهيل.(1)

- أبو جندل يستغيث

صرخ أبوجندل: يا معشر المسلمين، أتردونني إلى أهل الشرك فيفتنوني في ديني؟ والرسول ﷺ يقول (يا أبا جندل، اصبر واحتسب، فإن الله عزوجل جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً)(2).

رابعها: أمر العودة يبدأ بفك الإحرام

لقد أمر النبي ﷺ أصحابه أن ينحروا هديهم، ويحلقوا رؤوسهم إيذاناً برحلة العودة إلى المدينة المنورة، إلا أن الصحابة رضوان الله عليهم لم يقم منهم أحد إلى ذلك، أملاً في تغيير نتيجة الصلح بوحي ينزل أو رؤيا يراها رسول الله ﷺ. فدخل النبي ﷺ إلى أم سلمة رضي الله عنها أم المؤمنين وأخبرها بما حدث من المسلمين، فأشارت عليه بأن يبدأ هو بالحلق والنحر ففعل، فقاموا ونحروا وحلقوا(3).

خامسها: تذمر الصحابة رضوان الله عليهم من أمر الصلح

وظهر ذلك جلياً فيما نُقِلَ عن عمر رضي الله عنه فقد روى وقال: أتيت نبي الله، فقلت: «ألست نبي الله حقاً؟ قال: (بلى).

قلت: فَلِمَ نُعطي الدنية فى ديننا إذاً؟

قال: (إني رسول الله، ولست أعصيه وهو ناصري).

وأتى أبابكر رضي الله عنه وقال له مثل ما قال للنبي ﷺ فقال له أبوبكر: إنه لرسول الله ﷺ وليس يعصي ربه، وهو ناصره، فاستمسك بغرزه، فوالله إنه على الحق(4).

---

(1) أخرجه البخارى، كتاب الشروط، باب الشروط فى الجهاد ٢/٩٧٧ (ح/ ٢٥٨١ - ٢٥٨٢).

(2) المسند ٤/٣٢٥ - بإسناد حسن. والسيرة النبوية - ابن هشام - ٣/٤٤٢ باسناد حسن.

(3) أخرجه البخاري - وتقدم - كتاب الشروط.

(4) المصدر السابق بموضعه. وأخرجه مسلم، كتاب الجهاد، باب صلح الحديبية، ٣/١٤١٢ - ١٤١٣ (ح/ ١٧٨٥).

ولم يذهب ما وقع في نفوسهم إلا عندما نزلت سورة الفتح وهم عائدون لى المدينة، وإخبار النبي ﷺ أن ذلك فتحاً.

سادسها: استثناء المؤمنات من شرط الرد

وذلك لقول الله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن وآتوهم ما أنفقوا .... الآية ﴾[1].

وهذا الاستثناء بُني على حكم عدم جواز زواج المسلمة من الكافر المشرك. حيث لا تحل له[2].

العودة إلى المدينة

مكث رسول الله ﷺ مدة عشرين يوماً في الحديبية ثم رجع إلى المدينة المنورة.

وقد جاع المسلمون في الطريق حتى كادوا أن يذبحوا رواحلهم، فدعا النبي ﷺ بأزواد الجيش، فلم يتجاوز ربضة العنز[3]، وهم أربع عشرة مائة أكلوا حتى شبعوا جميعاً وحشوا جربهم، ثم جيء له بإداوة وضوء فيها نطفة ماء فأفرغها في قدح، فتوضأ منها كل الجيش[4].

ونزلت على رسول الله ﷺ وهم في طريق العودة سورة الفتح «إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً».

قال عنها الرسول ﷺ (لقد أنزلت عليّ الليلة سورة لهي أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس)[5].

---

(١) سورة الممتحنة آية ١٠.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية ١٥٣٢/٤ - ١٥٣٣ (ح/ ٣٩٤٥ - ٣٩٤٦) وانظر تفسير ابن كثير ٣٥١/٤.

(٣) ربضة العنز: أي جثتها إذا بركت/ النهاية ١٨٤/٢ - والعنز: الأنثى من المعز إذا أتى عليها الحول، وهو إشارة إلى قلته.

(٤) أخرجه مسلم، كتاب اللقطة، باب استحباب خلط الأزواد إذا قلت ١٣٥٤/٣ (١٧٢٩).

(٥) أخرجه البخاري، كتاب المغازي باب غزوة الحديبية ١٥٣١/٤ (ح/ ٣٩٤٣).

وقال عمر متعجباً أو فتح هو؟

قال رسول الله ﷺ (نعم، والذي نفسي بيده إنه لفتح).

* نتائج صلح الحديبية

وأفردت هذا عن فقه الغزوة ودروسها لما يحتاج إليه من بيان تلك النتائج وتتبعها، ثم معرفة تلك الدروس والعبر بعد ذلك.

أولاً: فتح الله على المؤمنين بهذا الصلح، فقد سماه النبي ﷺ فتحاً، وقد كان كذلك فيما ظهر له من نتائج في حياة المسلمين لاحقاً.

ثانياً: استطاع الرسول ﷺ أن ينتزع من قريش اعترافها بالمسلمين، وأنهم أصبحوا قوة تتفاوض معهم وتخافهم، وتعترف لهم بحقوق ما كانت تراها من قبل. وهذا بُعدٌ سياسي وعسكري كان له أثره في حياة العرب جميعاً.

ثالثاً: تحالفت خزاعة مع النبي ﷺ وقد أصبح هذا الحلف سبباً في فتح مكة بعد ذلك – كما سيأتي في أسباب فتح مكة –.

رابعاً: أعطى صلح الحديبية فرصة لنشر الدعوة الإسلامية والاهتمام بالجانب الدعوي، حيث كاتب النبي ﷺ الملوك والأمراء ومشائخ القبائل، وأرسل إليهم الرسل يدعوهم إلى الله والإيمان به تعالى، والتصديق بأن محمد ﷺ رسول الله.

خامساً: تفرغ النبي ﷺ لليهود في خيبر شمال المدينة، فكانت غزوة خيبر – كما سيأتي – .

سادساً: بدأت شروط صلح الحديبية تتهاوى وكان أولها شرط إعادة من آمن من أهل مكة إذا جاء المدينة.

وسبب ذلك ما حدث لأبي بصير رضي الله عنه فقد قدم أبوبصير رضي الله عنه هارباً من مكة إلى المدية فأقبل رجلان من مكة يطلبانه من النبي ﷺ كما اقتضت ذلك شروط صلح الحديبية.

فأعاده النبي ﷺ وسلّمه لهما. فانطلق معهما فلما كان ببعض الطريق عدا على حارسيه وقتل أحدهما وفرّ الآخر.

ثم أقبل يشتد إلى المدينة، وقال للنبي ﷺ قد أوفى الله ذمتك، قد رددتني إليهم ثم نجاني الله منهما: فقال النبي ﷺ (ويل أمه، مُسْعِرُ حَرْبٍ لو كان معه أحد) ففهم أبوبصير نية رسول الله ﷺ في رده إلى المشركين إن طلبوه فانطلق إلى ناحية العيص قريباً من ساحل البحر(١)، وكاتب المستضعفين بمكة ففروا من مكة ولحقوا به وكان على رأسهم أبوجندل بن سهيل بن عمرو.

وتكونت منهم عصابة قريباً من الستين أو السبعين(٢)..

فأخذوا يتعرضون لقوافل قريش في ذهابها إلى الشام ورجوعها فأرسلت قريش إلى النبيﷺ تعرض عليه التنازل عن هذا الشرط. وأن يقبل من قدم من مكة، وأن يؤي أبا بصير وجماعته فلا يقطعون طريق تجارتها(٣).

سابعاً: نقضت قريش شرطاً اخر حيث أعانت بني بكر على خزاعة، فقتلت بنو بكر خزاعة بسبب تلك المعونة مما كان سبباً في فتح مكة - مما سيأتي تفصيله عند الحديث عن فتح مكة -.

---

(١) اخرجه البخاري، كتاب الشروط - وتقدم -.
(٢) السيرة النبوية - ابن هشام - ٣/٤٤٩.
(٣) اخرجه البخاري، كتاب الشروط، وتقدم.

* **الدروس والعبر**

أولاً : يُعظِّم المؤمن شعائر الله، لأن ذلك دليل تقوى قلبه، وتصديق نفسه لما امن به وخاصة البيت الحرام، فيؤمه ويقصده لأداء شعائر الحج والعمرة والعبادة فيه. أداءً للعبادة، وتقرباً إلى الله تعالى. وطلباً لمضاعفة الأجر العظيم على ذلك.

ثانياً: يحرص المؤمن على أن تكون كلمة الله هي العليا فيجاهد في سبيل الله لإعلائها، ويُظهرها في كل موقع، ويدعو الناس جميعاً للإيمان بها والرضا بها في حياتهم، لأن الإيمان بها فيه سعادتهم فى الدنيا والآخرة.

ثالثاً: لا يصالح المؤمن أعداء الإسلام وهو في موقف الذل والاستسلام لهم فإن ذلك هو الهوان الذي تضيع في خضمه المبادىء والأهداف التي يؤمن بها، وتنتصر مبادىء الكفر والظلم والشرك.

إذ لابد أن يكون في موقع القوة والعلو كما ورد في قوله تعالى ﴿**وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم**﴾[1].

رابعاً: يكنُّ المؤمنون الحبَّ للنبي ﷺ ويقدمون حبه على حب ذواتهم وأهلهم وأولادهم.

وما مظاهر الحب التي راها عروة إلا دليل على تطبيق ذلك وممارسته من قبلهم رضوان الله عليهم تجاه حبيبهم محمد ﷺ.

خامساً: يفدي المؤمن دينه فقد اشترى الله منه نفسه التي بين جنبيه، فالموت في سبيل الله هو أسمى غايات المؤمن، يبذل نفسه في سبيل تحقيق مبادىء الإسلام، ونشر رسالته والجهاد في سبيل الله تعالى.

سادساً: يسلك المؤمن طرائق عديدة لقهر المشركين والكافرين، وإنزال الهزيمة بكل أصنافها بهم، فلم يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً فالإسلام يعلوا ولا يُعلى عليه أبداً. قال تعالى ﴿**ولا تهنوا ولا تحزنوا**

---

(١) سورة الأنفال اية ٦١.

(٢) سورة ال عمران اية ١٣٩.

﴿وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾[٢] ورحم الله امرءاً أراهم من نفسه قوة.

سابعاً: يثبت المؤمن على إيمانه مهما واجهته الصعاب، ولا يستسلم للظروف المحيطة به أو الطارئة عليه، فهو صاحب العقيدة المكافحة في كل موقع وموطن، يصبر ويحتسب أجره على الله في مقاومته تلك وتحمله للشدائد والبلاء.

ثامناً: يحرص المؤمن على إخوانه المؤمنين، ويشير بالرأي السديد الذي يحصل به التوفيق وجمع الكلمة والابتعاد عن الذنب وتجنب عثرات الطريق في الدنيا والآخرة.

تاسعاً: يُنفّذ المؤمن أمر الله وأمر رسول الله ﷺ فلا رأي له في مقابلة النص الوارد بل هو مطيع مستسلم له.

وما تردد الصحابة رضوان الله عليهم في تنفيذ الأمر إلا طمعاً في وحي ينزل أو أمر يظهر، فلما رأوا جدية القضية وانتهائها بفعل رسول الله ﷺ الحلق والذبح فعلوا ذلك ونفذوه، حاشاهم أن يخالفوا أمره، أو ينكصوا عن توجيهه.

عاشراً: يظهر ولاء المؤمن لدينه، فلا تؤثر على هذا الولاء مظاهر الحياة فالأرض أو المكان أو الدار أو الأهل ما هي إلا مشاعر حنين في نفس المؤمن لا يأبه بها إذا تعارضت مع مبادىء دينه أو دعوته.

* عمرة القضاء

- تنفيذاً لشروط صلح الحديبية فقد رجع النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة بعد حلق رؤوسهم وذبح هديهم فلما كان من العام القادم توجهوا إلى مكة لأداء العمرة.

* تاريخها

خرج النبي ﷺ والمسلمون إلى مكة، في ذي القعدة من العام السابع الهجري لأداء مناسك العمرة[1].

وقد بلغ عدد من شهد عمرة القضاء ألفين سوى النساء والصبيان، منهم من شهد الحديبية[2].

* إشاعة الوهن والضعف

أشاعت قريش أن المسلمين ضعفاء قد وهنتهم حمّى يثرب، فلما علم النبي ﷺ أمر أصحابه أن يرملوا ويسارعوا بالعدو في الأشواط الثلاثة الأولى من الطواف، وأن يسعوا بين الصفا والمروة ليراهم المشركون، وأن بهم قوة ففعلوا.

فلما رأتهم قريش تعجبوا من قوتهم، وقالوا: هؤلاء الذين زعمتم أن الحمّى قد وهنتهم، هؤلاء أجلد من كذا وكذا[3].

* الرسول ﷺ وأصحابه بمكة

أدّى المسلمون مناسك العمرة بطوافهم حول الكعبة التي حُرموا منها فترة من الزمن، وأظهروا عبادتهم ودينهم في البلد الذي حاربهم زمناً طويلاً، بل خرجوا يوماً منه وهم متخفّون بسبب إيمانهم، فها هم أصحاب الأمر والنهي لا يخافون أحداً غير الله.

---

(١) فتح الباري ٧/٥٠٠ والسيرة النبوية لابن هشام - ٤/١٨ - ١٩.
(٢) فتح الباري ٧/٥٠٠.
(٣) أخرجه البخارى، كتاب المغازى، باب عمرة القضاء ٤/١٥٥٣ (ح/٤٠٠٩) وأخرجه مسلم كتاب الحج، باب استحباب الرمل فى الطواف والعمرة ٢/٩٢٣ (ح/١٢٦٦)

ثم دخل النبي ﷺ إلى الكعبة ومكث بها إلى الظهر، وأمر بلال فأذن من فوق ظهر الكعبة[1].

ثم وفّى رسول الله ﷺ وأصحابه عهدهم، وأنجزوا وعدهم فخرجوا بعد ثلاث ليال من وصولهم مكة[2].

ولو لم يخرج ﷺ وأصحابه من مكة لما قدرت قريش على إخراجهم.

(١) الطبقات الكبرى – ابن سعد – ١٢٢/٢.
(٢) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب عمرة القضاء ١٥٥٢/٤ (ح/٤٠٠٦).

* الدروس والعبر

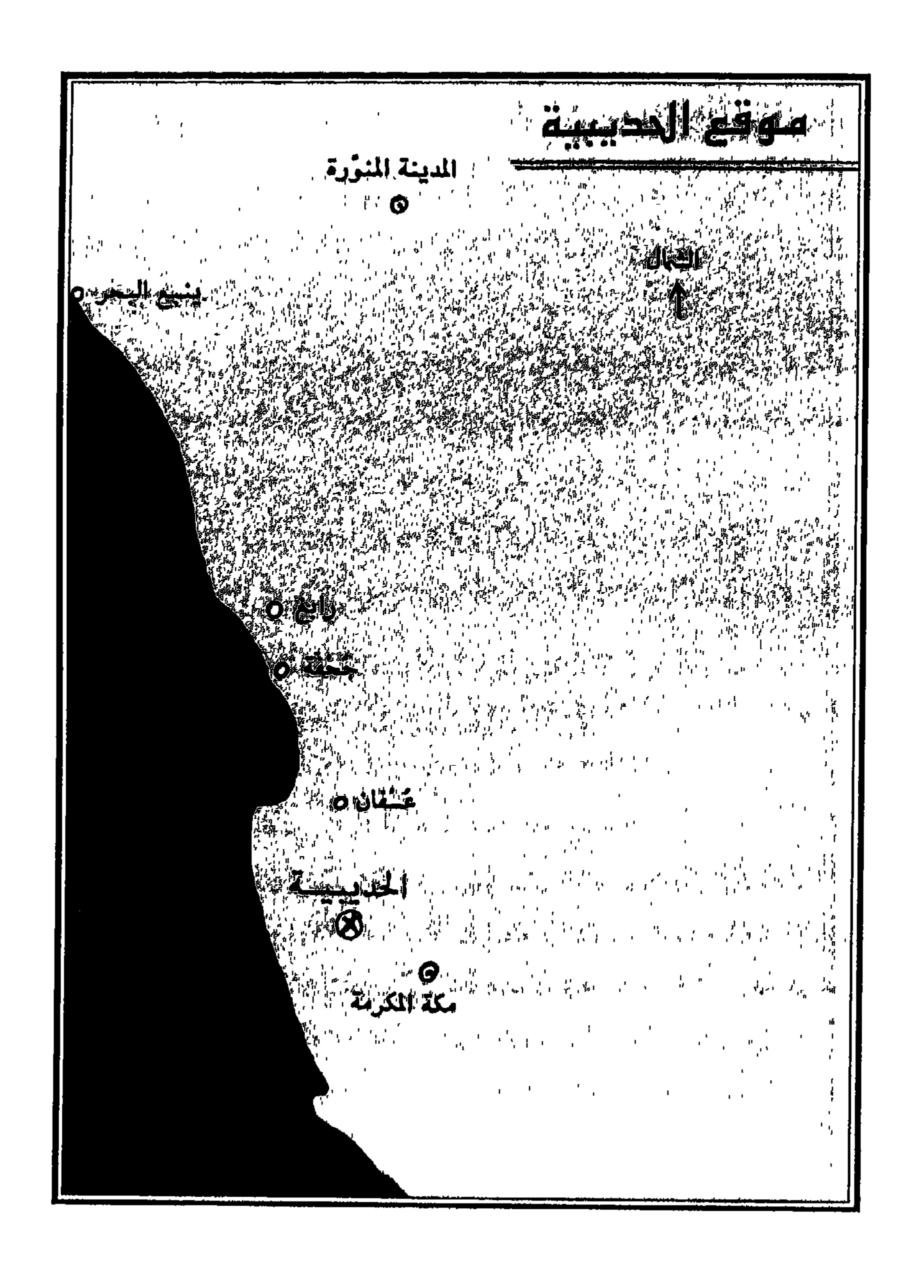
أولاً : يطمئن المؤمن إلى وعد الله ووعد رسوله ﷺ فقد تحقق لهم ما وعدوا به من زيارة البيت الحرام وأداء العمرة، وذلك بفضل الله تعالى عليهم وكرمه ومنّه.

ثانياً: يحرص أعداء الله على وصف المؤمنين بالضعف والعجز وعدم الاستطاعة، وذلك في إطار الحرب النفسية للمسلمين بنشر روح الهزيمة في صفوفهم، وتيئيسهم بأنهم لا يقدرون على شيء ولا يملكون شيئاً.

ثالثاً: يُظهر المؤمن قوته أمام عدوه ليرهبه ويرعبه، فالمؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير.

رابعاً: يفي المؤمن بالوعد والعهد، فالالتزام الأخلاقي عنده جزء من إيمانه ودينه فلا يغدر، ولا يتفلت من كلمته مهما كانت الظروف.

خامساً: يعلم المسلم أن الدعوة الإسلامية قبل أن تكون فتحاً للأرض أو دحراً للباطل من خلال المحاربة والصراع، فإنها علاج النفوس من أمراضها، وفتح للقلوب من أقفالها، فهي دعوة المبادىء التي تطلبها فطرة الإنسان، ودعوة الأخلاق والقيم التي لا تستقيم الحياة إلا بها.


موقع الحديبية
المدينة المنوّرة
الشمال
ينبع البحر
رابغ
عسفان
الحديبية
مكة المكرمة

غـزوة خيبـــر

* سبب التسمية

سـميت بالمكان المسمى إلى يومنا هذا بهذا الاسم خـيبر، وهى واحة زراعية ذات نخل كثير، شمال المدينة المنورة تبعد عنها حوالي (١٦٥/كم).

* سبب الغزوة

بعد إجلاء بنى النضير إلى خيبر، كان أبرز زعماء بنى النضير الذين خرجوا من المدينة ونزلوا خيبر سلام بن أبى الحقيق وحيي بن أخطب حيث خضع أهل خيبر لهم(١).

وقد جعلوا من خيبر مركز نشاط ضد المسلمين، حيث جعلوا حقدهم نحو الإسلام، وأملهم في قهره، وعودتهم إلى المدينة. أهدافاً يسعون إلى تحقيقها والوصول إلى تنفيذها.

فهم الذين أقنعوا قريشاً وغطفان على المجيء في غزوة الأحزاب، كما سعوا إلى إقناع بنى قريظة في نقض عهدهم والانضمام إلى الأحزاب(٢) كما مرَّ ذكره.

إضافة إلى خطر اليهود فإنه كان لابد لدعوة الله أن تجاهد وأن تزيل كل خطر وعائق يقف في طريقها، أو يحول بين الناس وبينها.

وخيبر وعد الله الذي وعده المؤمنين بعد صلح الحديبية.

قال تعالى **﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً، ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزاً حكيماً، وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فَعَجَّل لكم هذه وكفَّ أيدي الناس عنكم ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطاً مستقيماً، وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على شيء قديرا﴾**(٣).

---

(١) السيرة النبوية – ابن هشام – ٢٧٢/٣ معلقا.

(٢) السيرة النبوية – ابن هشام – ٢٥٣/٣ بسند مرسل.

(٣) سورة الفتح آية ١٨ – ٢١.

* تاريخ الغزوة

كانت غزوة خيبر في المحرم من السنة السابعة من الهجرة النبوية [1].

* المسير إلى خيبر

سار المسلمون إلى جهة الشمال في طريق وسط بين خيبر وغطفان. وذلك لما ذُكر أن بعض غطفان قدم إلى خيبر لمساعدة اليهود في حمايتها.

فأراد النبي ﷺ أن يشعر غطفان أنه متجه إلى بلادهم ليعود من ذهب منهم إلى دياره ليحمي نفسه وأهله، وليحول بين اليهود وغطفان فلا يمدوهم بمعونة عند حصارهم. كما يُشعر اليهود بالأمان بأنه متجه إلى غطفان وليس خيبراً[2].

* مباغته اليهود

نزل المسلمون بساحة اليهود في خيبر قبل بزوغ الفجر، وقد صلوا الفجر قربها، ثم هجموا عليها بعد طلوع الشمس، وقد فوجيء أهلها بذلك، وهم خارجون إلى أعمالهم إذ قالوا – محمد والخميس –.

فقال الرسول ﷺ (الله أكبر خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين)[3] فرجعوا إلى حصونهم فزعين.

* أرض خيبر

تميزت أرض خيبر بكثرة نخيلها، وعيون مائها، ووجود حرات بركانية فيها، وقد نزلها اليهود في انبعاثهم إلى الجزيرة العربية ظناً منهم أنها مهاجر نبي آخر الزمان وقد استغل اليهود طبيعة تلك الأرض فبنوا فيها حصوناً منيعة في مواقع رئيسة تتوفر فيها الحماية الأمنية والغذائية لهم إن دهمهم

---

(١) السيرة النبوية – ابن هشام – ٤٥٥/٣، ورجحه ابن حجر في فتح الباري ٤٦٤/٧، وانظر زاد المعاد ٣١٧/٣.

(٢) السيرة النبوية – ابن هشام – ٤٥٨/٢.

(٣) اخرجه البخاري في صحيحه. كتاب المغازي، باب غزوة خيبر ١٥٣٨/٤ (ح/٣٩٦٢) ومسلم في كتاب الجهاد والسير، باب غزوة خيبر ١٤٢٦/٣ (ح/١٣٦٥) والخميس، اي الجيش.

خطر، أو غزاهم غاز، وقد جلبوا الطعام والماء فيها تحسباً لما قد ينزل بهم من خطر.

* بداية الصراع

أخذ المسلمون في مطاردتهم واللحوق بهم، وكان أول ما سقط من حصونهم ناعم والصعب بمنطقة النطاة، وهو في الشمال الشرقي من خيبر.

- ثم حصن القموص المنيع، وهو حصن سلام بن أبى الحقيق أحد زعماء بنى النضير الذين نزحوا إلى خيبر.

ثم اسقطوا حصني منطقة الوطيح والسلالم[١]

وكان من أشد الحصون الأول ناعم حيث استغرق فتحه عشرة أيام[٢] واستشهد تحته محمود بن مسلمة الأنصارى، حيث ألقى عليه مرحب - أحد قادة اليهود - رحى من أعلى الحصن[٣].

وعند حصار المسلمين لهذا الحصن برز لهم سيده مرحب المذكور وطلب المبارزة فخرج له علي بن أبى طالب رضى الله عنه فبارزه فقتله[٤] وكان قتل مرحب سبباً في هزيمة اليهود وضعف معنوياتهم.

ثم توجه المسلمون إلى حصن الصعب بن معاذ بعد فتح حصن ناعم وأبلى حامل رايتهم الحباب بن المنذر بلاء حسنا حتى افتتحوه بعد ثلاثة أيام ووجدوا فيه الكثير من الطعام والمتاع، يوم كانوا في ضائقة من قلة الطعام، ثم توجهوا بعده إلى حصن قلعة الزبير الذي اجتمع فيه الفارون من حصن ناعم والصعب وبقية ما فتح من حصون يهود - فحاصروه وقطعوا عنه مجرى الماء الذي يغذيه، مما اضطرهم إلى النزول للقتال، فهزموهم بعد ثلاثة أيام، وبذلك تمت السيطرة على آخر حصون منطقة النطاة التي كان فيها أشد اليهود.

ثم وجهوا إلى حصن منطقة الشق، وبدأوا بحصن أبيٍّ، فاقتحموه، وأفلت

---

(١) السيرة النبوية - ابن هشام - ٣/٤٦١ - ٤٦٢.
(٢) مغازي الواقدي ٢/٦٥٧.
(٣) السيرة النبوية - ابن هشام - ٣/٤٦٤ بإسناد حسن.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد، باب غزوة ذي قرد ٣/١٤٣٣ - ١٤٤١ (ح/١٨٠٧).

بعض مقاتلته إلى حصن تزار، وتوجه إليهم المسلمون فحاصروهم ثم افتتحوا الحصن، وفرَّ بقية أهل الشق من حصونهم وتجمعوا في حصن القموص المنيع وحصن الوطيح وحصن السلالم، فحاصرهم المسلمون لمدة أربعة عشر يوماً حتى طلبوا الصلح(١).

وكان النبي ﷺ قد قال في ليلة الفتح (لأعطين الراية غداً رجلاً يحبه الله ورسوله، ويحب الله ورسوله).

فلما أصبح أعطاها لعلي رضي الله عنه ففتح الله عليه يومئذ.

وكان علي يشتكى من رمد في عينيه عندما دعاه الرسول ﷺ، فبصق رسول الله ﷺ في عينيه ودعا له فبريء(٢).

ولقد أوصى الرسول ﷺ علياً بأن يدعو اليهود إلى الإسلام قبل أن يداهمهم، وقال له: (فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم)(٣).

وعندما سأله علي: يا رسول الله على ماذا أقاتل؟ قال: (قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإذا فعلوا ذلك منعوا منك دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله)(٤).

وهكذا فتحت خيبر عنوة(٥) استناداً إلى النظر في مجريات الأحداث، من أن رسول الله ﷺ غزا خيبر وافتتحها عنوة.

فلما فرغ رسول الله ﷺ من خيبر قذف الله الرعب في قلوب أهل فدك شمال خيبر فبعثوا إلى رسول الله ﷺ يصالحونه على النصف من فدك فقبل

---

(١) مغازي الواقدي ٦٥٨/٣ - ٦٧١.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر ١٥٤٢/٤ (ح/ ٣٩٧٣) ومسلم كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل علي رضي الله عنه ١٨٧٢/٤ (ح/ ٢٤٠٦).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل علي (١٨٧١/٤ - ١٨٧٢ (ح/ ٢٤٠٤ - ٢٤٠٥).

(٤) المصدر نفسه بموقعه، مسلم ١٨٧١/٤ (ح/٢٤٠٤ - ٢٤٠٥).

(٥) جزم به ابن القيم في زاد المعاد ٣٥٢/٣ - ٣٥٤.

ذلك منهم. فكانت فدك لرسول الله ﷺ خالصة لأنه لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب[1].

وقتل من اليهود في معارك خيبر ثلاثة وتسعون رجلا[2]. وسبيت النساء والذراري، منهن صفية بنت حيي بن أخطب، التي اشتراها الرسول ﷺ من دحية حيث وقعت في سهمه فأعتقها وتزوجها[3] وقد دخل عليها في طريق العودة إلى المدينة.

وقد تطوع لحراسته في تلك الليلة أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه خوفاً على رسول الله ﷺ من صفية أن تعمل له شيئاً[4].

واستشهد من المسلمين عشرون رجلاً فيما ذكر ابن إسحاق[5] وخمسة عشر فيما ذكر الواقدي[6].

- وممن استشهد من المسلمين راعي غنم أسود كان أجيراً لرجل من يهود. وخلاصة قصته أنه أتى رسول الله ﷺ وهو محاصر لبعض حصون خيبر ومعه غنم يرعاها لبعض يهود خيبر، فطلب من الرسول ﷺ أن يعرض عليه الإسلام، فعرضه عليه، فأسلم ثم استفتاه في أمر الغنم، فطلب منه الرسول ﷺ أن يضرب وجوهها، فسترجع إلى أصحابها، فأخذ الراعي حفنة من الحصى فرمى بها في وجوهها، فرجعت إلى أصحابها وتقدم ليقاتل فأصابه حجر فقتله، وما صلى لله صلاة قط، فجيء به إلى رسول الله ﷺ فسجي بشملة، فالتفت إليه الرسول ﷺ ثم أعرض عنه، وعندما سئل عن إعراضه قال: (إن معه الآن زوجتيه من الحور العين)[7].

(١) السيرة النبوية - ابن هشام ٣-٤٩٠-٤٩١. وأخرجه أبوداود في سننه كتاب الخراج، باب ما جاء في حكم أرض خيبر ٣/٤١٤ (ح/٣٠١٦) وقال المنذري في مختصر سنن أبي داود ٤/٢٣٩ وهذا مرسل.
(٢) مغازي الواقدي ٢/٧..
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر ٤/١٥٤٣ (ح/٣٩٧٤ - ٣٩٧٦) ومسلم كتاب النكاح، باب فضيلة اعتاقه أمة ثم يتزوجها ٢/١٠٤٥ - ١٠٤٦ (ح/١٤٢٧).
(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/٢٨ وصححه، ووافقه الذهبي.
(٥) السيرة النبوية - ابن هشام - ٣/٤٧٨ معلقا.
(٦) مغازي الواقدي ٢/٧٠٠.
(٧) السيرة النبوية - ابن هشام - ٣/٤٧٩ - ٤٨٠ وأخرجه الحاكم في المستدرك ٢/١٣٦ من غير طريق ابن إسحاق وصححه، ولم يقره الذهبي لأن في إسناده شرحبيل بن سعد وهو متهم وذكره البيهقي في الدلائل ٤/٢١٩ - ٢٢٠ من طريق موسى بن عقبة مرسلاً، ومن حديث عروة مرسلاً، وهذا يدل على أن للقصة أصلاً.

- واستشهد أعرابي له قصة دلت على وجود نماذج فريدة من المجاهدين.

وخلاصة قصته أنه جاء إلى النبي ﷺ فأسلم، وطلب أن يهاجر مع الرسول ﷺ فلما كانت غزوة خيبر - وقيل حنين - غنم رسول الله ﷺ وأخرج له سهمه، وكان غائباً حين القسمة، يرعى ظهرهم، فلما جاء دفعوا إليه سهمه، فأخذه وجاء به إلى النبي ﷺ وقال: ما هذا يا محمد؟ قال النبي ﷺ (قسم قسمته لك). قال: وما على هذا اتبعتك، ولكن اتبعتك على أن أرمى هاهنا وأشار إلى حلقه بسهم، فأدخل الجنة قال: (إن تصدق الله يصدقك) ولم يلبث قليلاً حتى جيء به وقد أصابه سهم حيث أشار. فقال الرسول ﷺ (صدق الله فصدقه) فكفنه الرسول ﷺ في جبة للنبي ﷺ ودفنه[1].

وبعد الفراغ من هذه الغزوة حاول اليهود قتل الرسول ﷺ بالسم. فقد أهدته امرأة منهم شاة مشوية مسمومة، وأكثرت السم في ذراع الشاة عندما عرفت أنه يحبه فلما أكل من الذراع أخبرته أنه مسموم فلفظ اللقمة، واستجوب المرأة فاعترفت بجريمتها، فلم يعاقبها[2] في حينها، ولكنه قتلها عندما مات بشر بن البراء بن معرور رضى الله عنه من أثر السم الذي ابتلعه مع الطعام عندما أكل مع الرسول ﷺ[3].

- وتم الصلح في النهاية بين الطرفين وفق الأمور الآتية:

- بالنسبة للأراضي والنخيل، أي الأموال الثابتة: دفعها لهم الرسول ﷺ على أن يعملوا عليها ولهم شطر ما يخرج منها[4].

(١) أخرجه النسائي في سننه، كتاب الجنائز، باب الصلاة على الشهداء ٦/٤، وأخرجه الحاكم في المستدرك ٥٩٥/٣ - ٥٩٦ وسكت عليه ووافقه الذهبي ورواه عبدالرزاق في المصنف ٢٧٦/٥ بإسناد صحيح.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الهبة، باب قبول الهدية من المشركين ٩٢٣/٢ (ح/ ٢٤٧٤) وأخرجه مسلم، كتاب السلام، باب السم ١٧٢١/٤ (ح/ ٢١٩٠).

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢٢٠/٣. وعبدالرزاق في المصنف بإسناده إلى أبي بن كعب كما ذكر ابن حجر في الفتح ٤٧٧/٧ - ٤٧٨.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب في معاملة النبي ﷺ لأهل خيبر ١٥٥١/٤ (ح/ ٤٠٠٢) وأخرجه مسلم كتاب المساقاة، باب المساقاة والمعاملة بجزء من الثمر ١١٨٦/٣ - ١١٨٧ (ح/١٥٥١).

- أن ينفقوا من أموالهم على خدمة الأرض[1].

- أما بالنسبة لوضعهم القانوني فقد تم الاتفاق على أن بقاءهم بخيبر مرهون بمشيئة المسلمين، فمتى شاءوا أخرجوهم منها، وقد أخرجهم عمر بن الخطاب إلى تيماء وأريحا[2] استناداً إلى قول الرسول ﷺ في مرض موته (أخرجوا المشركين من جزيرة العرب)[3].

وتكرر منهم الاعتداء على المسلمين. ففي المرة الأولى اتهمهم الرسول ﷺ في قتل عبدالله بن سهل فأنكروا. فلم يعاقبهم، فوداه رسول الله ﷺ من عنده[4] وفي المرة الثانية التي أكدت الأولى - كما أشار عمر - انهم اعتدوا على عبدالله بن عمر وفدعوا يديه[5].

- واتفقوا على إيفاد مبعوث من قبل النبي ﷺ إلى أهل خيبر ليخرص ويقبض حصة المسلمين[6].

أما بالنسبة للأموال المنقولة، فقد صالحوه على أن له الذهب والفضة والسلاح والدروع، ولهم ما حملت ركائبهم على الا يكتموا ولا يغيبوا شيئا فإن فعلوه فلا ذمة لهم ولا عهد. فغيبوا مسكاً لحيي بن أخطب، وقد كان قتل قبل غزوة خيبر، وكان قد احتمله معه يوم بني النضير حين أجليت.

وعندما سأل الرسول ﷺ سعية - عم حيي - عن المسك، قال: «أذهبته

---

(١) عند مسلم في الموضع الذي قبله (ح/ ١٥٥١).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فرض الخمس، باب ما كان صلى الله عليه وسلم يعطي المؤلفة قلوبهم ١١٤٩/٣ (ح/٢٩٨٣) وأخرجه مسلم، كتاب المساقاة، باب المساقاة والمعاملة بجزء من الثمر ١١٨٨/٣ (ح/١٥٥١).

(٣) الطبقات الكبرى - ابن سعد - ٢٤٢/٢ بإسناد صحيح، ورواه أحمد في المسند ٦-٢٧٥ بإسناد صحيح.

(٤) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب إكرام الكبير ٢٢٧٥/٥ (ح/ ٥٧٩١) ومسلم، كتاب القسامة، باب القسامة ١٢٩١/٣ (ح ١٦٦٩).

(٥) أخرجه أحمد في المسند ٩٠/١ (ح/٩٠) بتحقيق شاكر بإسناد صحيح. وقوله فدعوا: أي زوال المفاصل عن أماكنها - النهاية ٤٢٠/٣.

(٦) أخرجه أحمد في المسند ٧/٧ بتحقيق شاكر بإسناد صحيح. وقوله ليخرص أي: يقدر ويحرز - النهاية ٢٢/٢.

الحروب والنفقات».

فقال الرسول ﷺ (العهد قريب والمال أكثر من ذلك) فدفعه النبي ﷺ إلى الزبير فمسه بعذاب فاعترف بأنه رأى حيياً يطوف في خربة هاهنا فوجدوا المسك فيها، فقتل لذلك ابني أبى الحقيق وسبى نساءهم وذراريهم، وقتل محمد ابن مسلمة ابن عم كنانة هذا الذي دلَّ على المال، قتله بأخيه محمود بن مسلمة[1].

وبالنسبة للطعام فقد كان الرجل يأخذ حاجته منه دون أن يقسم بين المسلمين، أو يخرج منه الخمس ما دام قليلاً[2].

وكانت غنائم خيبر خاصة بمن شهد الحديبية من المسلمين، كما في قوله تعالى ﴿ **سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم يريدون أن يبدلوا كلام الله قل لن تتبعونا كذلك قال الله من قبل فسيقولون بل تحسدوننا بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا** ﴾[3].

---

(١) أخرجه أبوداود في سننه، كتاب الخراج، باب ما جاء في حكم أرض خيبر ٤٠٨/٣ (ح/٣٠٠٦) بإسناد صحيح. والمسك بسكون السين: الجلد (يوضع به المال كما ورد هنا) النهاية ٣٣١/٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فرض الخمس، باب ما يصيب في أرض العدو ١١٤٩/٣ (ح/٢٩٨٤ – ٢٩٨٥) وأخرجه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب جواز الأكل من طعام الغنيمة في دار الحرب ١٣٩٣/٣ (ح/١٧٧٢).

(٣) سورة الفتح آية ١٥.

الدروس والعبـــر

أولاً : يتآمر اليـهود مع كل عدوٍ للمسلمين، فيـجمعون الجمـوع، ويجيشون الجيوش للنيل من الإسلام وأهله.

ثانياً: يجب على المسلمين أن يلاحقوا أعداء الله في ديارهم فلا يمكنوهم من الإعداد والتجهيز بل يبطلوا كيدهم وإعدادهم في وقت مبكر.

ثالثاً: يضع المسلم الخطط ، وينفذ الأساليب التي تحول بين الكفار وتحقيق مقاصدهم من جمعهم لكلمتهم ضد المسلمين.

رابعاً: يبنى اليهود القلاع والحصون المنيعة ليحتموا فيها من أي خطر وذلك لجبنهم وخوفهم الشديد.

خامساً: يواسي المسلم من يستحق المواساة إذا أسلم بعد هزيمته، فجبر القلوب هدف يسعى الإسلام إلى تحقيقه في حياة الناس.

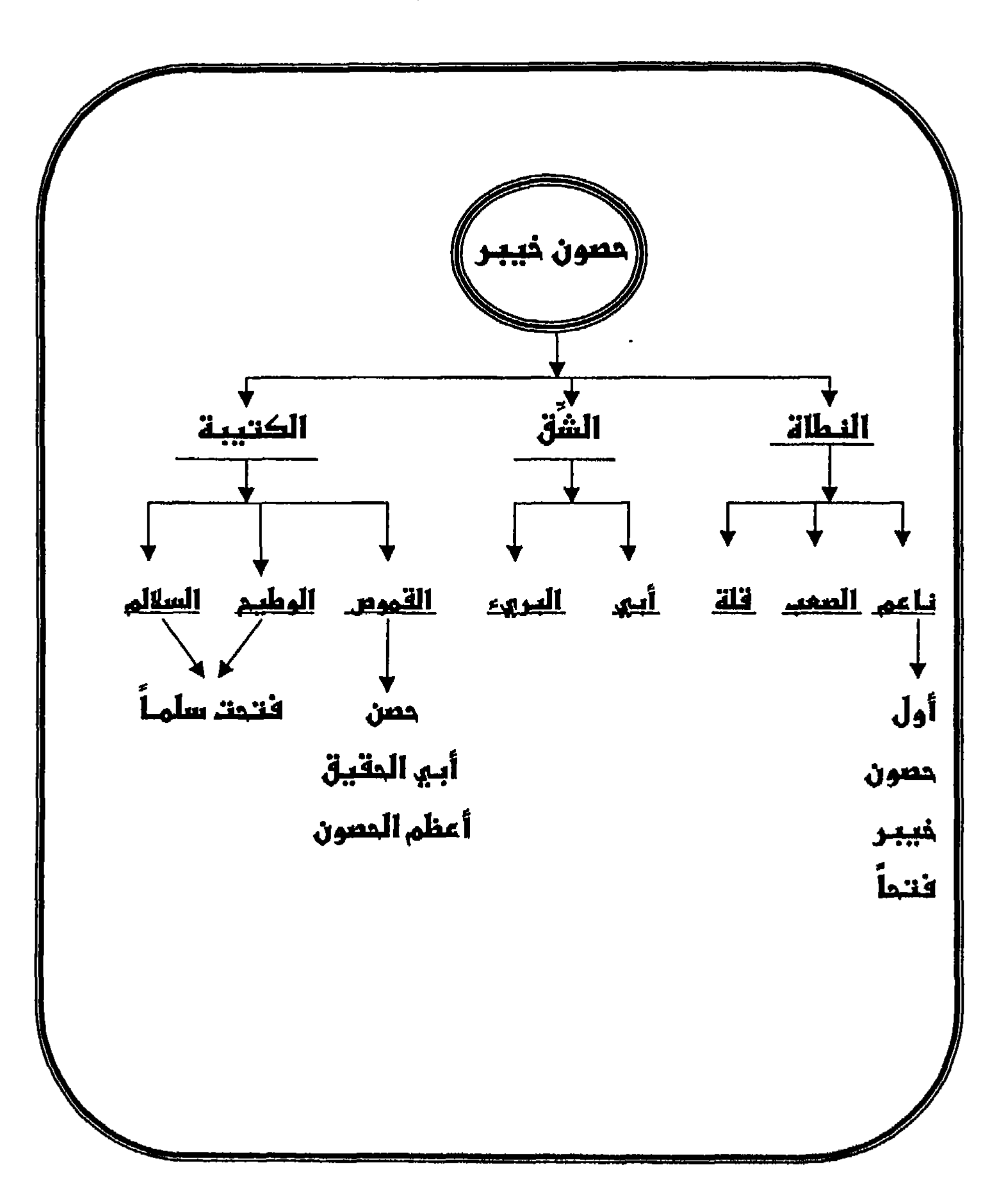
سادساً: لا ينفك اليـهود عن الغدر والعدوان مـهمـا أظهروا من هدوء أو استسلام، فهم محللوا كل وسيلة تُوصلهم إلى أهدافهم.

سابعاً: يعلم المؤمن أن الله يُحب عباده المؤمنين كما أن العباد يحبون ربهم، مع علمه أن حبَّ الله يليق بجلاله وعظمته، وحب المخلوقين يليق بضعفهم وبشريتهم. فالاتفاق في الاسم مع الاختلاف في المسمى.

ثامناً: يصدق المؤمن في إيمانه فيعطيه الله تعالى على حسب نيته، وفضل الله واسع وعطاؤه عظيم سبحانه وتعالى.

تاسعاً: يتصالح المؤمنون مع أعدائهم ويؤاجروهم الأرض، إذا كان الصلح أو المؤاجرة فيـها مصلحة للمسلمين، بشرط أن يكون الأمر في ذلك للمسلمين.

حصــون خيبــر



كتب النبي ﷺ إلى الملوك والأمراء

وقد كتب النبي ﷺ كتباً إلى الملوك والأمراء يدعوهم فيها إلى الإسلام ويرغبهم في الدخول فيه إقامة للحجة، وبياناً للواجب في تبليغ الدعوة إلى الناس جميعاً، حيث أن رسالة الإسلام للناس جميعاً.

قال تعالى ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس﴾(1).

وقال تعالى ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾(2).

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ أراد أن يكتب إلى رهط أو أناس من الأعاجم. فقيل له: إنهم لا يقبلون كتاباً إلا عليه خاتم، فاتخذ النبي ﷺ خاتماً من فضه، نقشه محمد رسول الله.

وعنه رضي الله عنه «.... وكان نقش الخاتم ثلاثة أسطر. محمد سطر ورسول سطر، والله سطر»(3).

وعن انس بن مالك رضي الله عنه قال: إن نبي الله ﷺ كتب إلى كسرى(4) وإلى قيصر(5) وإلى النجاشي(6) وإلى كل جبار يدعوهم إلى الله تعالى. وليس بالنجاشي الذي صلى عليه النبي ﷺ عندما أبلغه جبريل عليه السلام بموته في الحبشة.

* كتابه ﷺ إلى هرقل وما جرى في ذلك

عن ابن عباس، أن أبا سفيان أخبره من فيه إلى فيه. قال: انطلقت في

---

(1) سورة سبأ آية ٢٨.

(2) سورة الأعراف آية ١٥٨.

(3) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب اللباس باب نقش الخاتم ٥/٢٢٠٤-٢٢٠٥ (ح/ ٥٥٣٤ - ٥٥٤٠) ولم يذكر الأسطر.

= صورة الخاتم – والله أعلم –.

(4) (كسرى) بفتح الكاف وكسرها، وهو لقب لكل من ملك من ملوك الفرس.

(5) (قيصر) لقب من ملك الروم.

(6) (النجاشي) لقب لكل من ملك الحبشة.

المدة التي كانت بيني وبين رسول الله ﷺ[1]. قال: فبينا أنا بالشام إذ جيء بكتاب من رسول الله ﷺ إلى هرقل. يعنى عظيم الروم. قال: وكان دحية[2] الكلبي جاء به. فدفعه إلى عظيم بصرى[3]. فدفعه عظيم بصرى إلى هرقل فقال هرقل هل ههنا أحدٌ من قوم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ قالوا: نعم. قال فدعيت في نفر من قريش فدخلنا على هرقل. فأجلسنا بين يديه.

فقال: أيكم أقرب نسباً من هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟

فقال أبوسفيان: فقلت أنا. فأجلسوني بين يديه. وأجلسوا أصحابي خلفي. ثم دعا بترجمانه[4].

فقال له: قل لهم إني سائل هذا عن الرجل الذي يزعم أنه نبي. فإن كذبني فكذبوه. قال: فقال أبوسفيان: وايم الله! لولا مخافة أن يؤثر عليَّ الكذب[5] لكذبت.

ثم قال لترجمانه: سله كيف حسبه فيكم؟ قال قلت: هو فينا ذو حسب.

قال فهل كان في آبائه ملكٌ؟ قلت: لا.

قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا.

قال: ومن يتبعه؟ أشراف الناس[6] أم ضعفاؤهم؟ قال قلت: بل ضعفاؤهم.

قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قال قلت: لا، بل يزيدون.

---

(١) يقصد بها (صلح الحديبية).

(٢) (دحية) وهو بكسر الدال وفتحها.

(٣) (عظيم بصرى) هي مدينة حوران، ذات قلعة وأعمال قريبة من طرف البرية التي بين الشام والحجاز. والمراد بعظيم بصرى، أميرها.

(٤) (بترجمانه) هو بضم التاء وفتحها والفتح افصح. وهو المعبر عن لغة بلغة أخرى والتاء فيه أصلية.

(٥) (لولا مخافة أن يؤثر علي الكذب) معناه: لولا خفت أن رفقتي ينقلون عني الكذب إلى قومي ويتحدثون به في بلادي، لكذبت عليه لبغضي إياه ومحبتي نقصه. وفي هذا بيان أن الكذب قبيح في الجاهلية، كما هو قبيح في الإسلام.

(٦) (أشراف الناس) يعنى بأشرافهم كبارهم وأهل الأحساب فيهم. فيه إسقاط همزة الاستفهام.

قال: هل يرتد أحدٌ منهم عن دينه، بعد أن يدخل فيه، سخطة له؟

قال قلت: لا.

قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم.

قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قال قلت: تكون الحرب بيننا وبينه سجالاً[1] يصيب منا ونصيب منه.

قال: فهل يغدر؟ قلت: لا. ونحن منه في مدةٍ لا ندرى ما هو صانعٌ فيها.

قال: فوا لله! ما أمكنني من كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه.

قال: فهل قال هذا القول أحدٌ قبله؟ قال قلت: لا.

قال لترجمانه: قل له: إني سألتك عن حسبه فزعمت أنه فيكم ذو حسب وكذلك الرسل تبعث في أحساب قومها.

وسألتك: هل كان في آبائه ملكٌ؟ فزعمت أن لا. فقلت: لو كان من آبائه ملك قلت رجلٌ يطلب ملك آبائه.

وسألتك عن أتباعه، أضعفاؤهم أم أشرافهم؟ فقلت: بل ضعفاؤهم. وهم أتباع الرسل.

وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فزعمت أن لا فقد عرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ثم يذهب فيكذب على الله.

وسألتك: هل يرتد أحدٌ منهم عن دينه بعد أن يدخله سخطة له؟ فزعمت أن لا. وكذلك الإيمان إذا خالط بشاشة القلوب[2].

وسألتك: هل يزيدون أو ينقصون؟ فزعمت أنهم يزيدون. وكذلك الإيمان حتى يتم .

وسألتك: هل قاتلتموه؟ فزعمت أنكم قد قاتلتموه. فتكون الحرب بينكم وبينه سجالاً. ينال منكم وتنالون منه. وكذلك الرسل تُبتلى ثم تكون لهم العاقبة[3].

---

(١) (سجالاً) اي نوباً، نوبة لنا ونوبة له.

(٢) (بشاشة القلوب) يعنى انشراح الصدور، وأصلها اللطف بالإنسان عند قدومه وإظهار السرور برؤيته. يقال: بش به وتبشبش.

(٣) (وكذلك الرسل تبتلى ثم تكون لهم العاقبة) معناه يبتليهم الله بذلك ليعظم اجرهم بكثرة صبرهم، وبذلهم، وسعيهم في طاعة الله.

وسألتك: هل يغدر؟ فزعمت أنه لا يغدر. وكذلك الرسل لا تغدر.

وسألتك: هل قال هذا القول أحدٌ قبله، فزعمت أن لا. فقلت: لو قال هذا القول أحد قبله، قلت رجلٌ ائتم بقول قيل قبله.

قال: ثم قال: بم يأمركم؟ قلت: يأمرنا بالصلاة والزكاة والصلة والعفاف[1].

قال: إن يكن ما تقول فيه حقاً، فإنه نبي. وقد كنت أعلم أنه خارجٌ. ولم أكن أظنه منكم، ولو أني أعلم أني أخلص إليه، لأحببت لقاءه. ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه. وليبلغن ملكه ما تحت قدمي.

قال: ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ فقرأه. فإذا فيه بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم. سلام على من اتبع الهدى. أما بعد. فإني أدعوك بدعاية الإسلام. اسلم تسلم. وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين. وإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين و ﴿... يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾[2].

فلما فرغ من قراءة الكتاب ارتفعت الأصوات عنده وكثر اللغط[3]. وأمر بنا فأخرجنا.

قال: فقلت لأصحابي حين خرجنا: لقد أَمِرَ أَمْرُ ابن أبي كبشة[4]. إنه ليخافه ملك بني الأصفر[5]. قال: فما زلت موقناً بأمر رسول الله ﷺ أنه

---

(١) (والصلة والعفاف) أما الصلة فصلة الأرحام وكل ما أمر به أن يوصل. وذلك بالبر والإكرام وحسن المراعاة. وأما العفاف فالكف عن المحارم وخوارم المروءة.

(٢) سورة آل عمران آية ٦٤ وأولها (قل يا أهل الكتاب ... الآية).

(٣) (اللغط) هو بفتح الغين وإسكانها؛ وهي الأصوات المختلفة.

(٤) (لقد أمر أمر ابن أبي كبشة) أما أمر فبفتح الهمزة وكسر الميم، أي عظم. وأما قوله: ابن أبي كبشة، فقيل: هو رجل من خزاعة كان يعبد الشعرى، ولم يوافقه أحد من العرب في عبادتها. فشبهوا النبي ﷺ به لمخالفته إياهم في دينهم، كما خالفهم أبوكبشة.

(٥) (بني الأصفر) بنو الأصفر هم الروم.

سيظهر، حتى أدخل الله عليّ الإسلام[1].

*** كتابه ﷺ إلى كسرى**

ووجه رسول الله ﷺ عبدالله بن حذافة السهمي بكتاب إلى كسرى ملك الفرس وأمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين، فدفعه هذا إلى كسرى ونصه: (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس. سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأدعوك بدعاء الله فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة، لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين، فإن تسلم تسلم، ولئن أبيت فإن إثم المجوس عليك) فلما قرئ الكتاب عليه مزقه[2].

فلما بلغ رسول الله ﷺ ذلك دعا عليه قائلاً: (اللهم مزق ملكه) وقد استجاب الله لنبيه، فقتله ابنه شيرويه.

ولم تقف حماقة كسرى عند تمزيق الكتاب بل أرسل إلى - باذان - عامله على اليمن: ابعث من عندك رجلين إلى هذا الرجل الذي بالحجاز، ففعل باذان. فلما قدما على النبي ﷺ قال: (ابلغا صاحبكما أن ربي قتل ربه في هذه الليلة)! وكان ذلك ليلة الثلاثاء لعشر مضين من جمادى الآخرة سنة سبع من الهجرة فخرجا من عند النبي ﷺ حتى قدما على باذان فأخبراه بمقتل كسرى، وقالا له يقول لك: إن أسلمت أعطيتك ما تحت يديك، وملكتك على قومك من الأبناء.

ثم لم ينشب باذان أن جاءه كتاب شيرويه يخبره بقتل أبيه، وأوصاه أن لا يهيج النبي ﷺ حتى يأتيه أمره فيه، فقال باذان: إن هذا الرجل لرسول فأسلم وأسلم الأبناء من فارس الذين كانوا باليمن[3].

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل ١٣٩٣/٣ (ح/١٧٧٣)وقوله (في المدة التي كانت بيني وبين رسول الله ﷺ) يعني الصلح يوم الحديبية في أواخر سنة ست من الهجرة.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب كتاب النبي ﷺ إلى كسرى ١٦١٠/٤ (ح/٤١٦٢).

(٣) تاريخ الطبري ٩٠/٣ - ٩١ والسيرة النبوية - ابن كثير - ٥٠٨/٣ - ٥٠٩، وحسنه الألباني في تعليقه على فقه السيرة للبوطي/ ٣٨٩.

* كتابه ﷺ إلى المقوقس عظيم مصر

وأوفد عليه الصلاة والسلام حاطب بن أبى بلتعة رضي الله عنه إلى المقوقس عظيم مصر وأميرها من قبل الروم بكتاب ونصه: بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله ﷺ إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، وإن توليت فإنما عليك إثم القبط.

﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضا أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾(١).

فوفد حاطب على المقوقس وكان بمدينة الإسكندرية، فناوله الكتاب، فقبله وأكرم حاطباً وأحسن نزله.

ثم بعث إلى وفد جمع بطارقته، وقال: إني سائلك عن كلام، فأحب أن تفهم عني قال: قلت هلمّ، قال: أخبرني عن صاحبك أليس هو نبي؟ قلت: بلى. هو رسول الله قال: فما له حيث كان هكذا لم يدع على قومه حيث أخرجوه من بلده إلى غيرها؟

قال: فقلت: عيسى بن مريم أليس تشهد أنه رسول الله قال: بلى. قلت: فما له حيث أخذه قومه فأرادوا أن يصلبوه ألا يكون دعا عليهم بأن يهلكهم الله حيث رفعه الله إلى السماء الدنيا؟!.

فسرّ منه وقال له: أنت حكيم قد جاء من عند حكيم(٢).

ثم قال إني نظرت في أمر هذا النبي فوجدت أنه لا يأمر بمزهود فيه، ولا ينهى عن مرغوب فيه، ولم أجده بالساحر الضال، ولا الكاهن الكذاب وسأنظر. ثم كتب رد الخطاب، فقال فيه:

«لمحمد بن عبدالله من المقوقس عظيم القبط، سلام عليك أما بعد: فقد

---

(١) السيرة النبوية - ابن هشام - ٤/٢١٦، والدلائل ٤/٣٩٥ ورجال إسناده ثقات، والآية من سورة آل عمران/ ٦٤.

(٢) البداية والنهاية ٤/٢٧٢.

قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه، وما تدعوا إليه، وقد علمت أن نبياً قد بقى وكنت أظنه بالشام، وقد أكرمت رسولك، وبعثت لك بجاريتين لهما مكان عظيم في القبط وبثياب وأهديت إليك بغلة تركبها والسلام».

وإحدى الجاريتين مارية التي تسراها رسول الله ﷺ وولدت له إبراهيم والأخرى أعطاها حسان بن ثابت، فولدت له عبدالرحمن بن حسان. وقيل أربع جوار، ومما أهدى غلام خصي اسمه - مابور - وحمار اسمه عفير ويعفر، وقد أسمى النبي ﷺ البغلة دلدلاً. وكانت فريدة ببياضها بين البغال التي عرفتها بلاد العرب.

وخطاب المقوقس هذا يدل على إكباره لرسول الله ﷺ كما يدل على أنه لم يسلم، ولم يبعد. والذى يبدو أن الرجل خاف على ملكه، ولولا هذا لآمن ونال حظه من الإسلام.

* كتابه ﷺ إلى النجاشي

وبعث رسول الله ﷺ بكتاب إلى النجاشي ملك الحبشة مع عمرو بن أمية الضمري ونصه: (بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى النجاشي عظيم الحبشة، سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، لم يتخذ صاحبة ولا ولدا، وأن محمداً عبده ورسوله، وأدعوك بدعاية الله، فإني أنا رسوله، فأسلم تسلم:

(يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون» فإن أبيت فعليك إثم النصارى من قومك)[1].

ولما وصله الكتاب احترمه وكرمٌ حامله وقال له: إني أعلم والله أن عيسى بشرٌ به ولكن أعواني بالحبشة قليل، فأنظرني حتى أكثر الأعوان، وألين القلوب. وفى بعض الروايات أنه أسلم، والصحيح خلافه، ففي صحيح مسلم عن أنس أن النبي ﷺ كتب إلى كسرى، وإلى قيصر الروم، وإلى النجاشي

---

(١) البداية والنهاية ٨٣/٣، وانظر السيرة النبوية من مصادرها الأصلية ٢١١ - ٢١٢.

وإلى كل جبار يدعوهم إلى الله تعالى، وليس النجاشي الذي صلى عليه النبي ﷺ(١).

ثم بعث إليه رسول الله بكتاب آخر مع عمرو أيضاً بشأن مساعدة مهاجري الحبشة على الخروج إلى المدينة، فأعد لهم سفينتين حملتاهم إليها فوصلوا عقب فتح خيبر كما سيأتي إن شاء الله.

- بقية الكتب

* كتاب المنذر بن ساوى

ووجه عليه الصلاة والسلام العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى ملك البحرين، يدعوه وقومه إلى الإسلام، فأقره النبي ﷺ على إمارته وأوصاه النصح والطاعة والإصلاح، وأن لا يكره أحداً على الإسلام، ومن أقام على يهوديته أو مجوسيته فعليه الجزية.

* كتاب أمير بصرى

وأرسل عليه الصلاة والسلام الحارث بن عمير الأزدى بكتاب إلى أمير بصرى فلما بلغ مؤتة - قرية بمشارف الشام - تعرض له شرحبيل بن عمرو الغساني، قال له أين تريد؟ قال: الشام. قال: لعلكَ من رسل محمد؟ قال: نعم فأمر به فضربت عنقه، ولم يقتل لرسول الله ﷺ غيره من الرسل.

* كتاب أمير دمشق

ووجه عليه الصلاة والسلام شجاع بن وهب الأسدي إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى أمير دمشق من قبل هرقل، يدعوه إلى الإسلام، ويعده ملكه إن أسلم، فلما وصله الكتاب رمى به، وقال: من ينتزع مني ملكي؟ واستعد ليرسل جيشاً لحرب النبي ﷺ وقال لشجاع: أخبر صاحبك بما ترى. ثم أرسل إلى قيصر يستأذنه في ذلك، وصادف ذلك مجيء دحية بكتاب رسول الله إلى هرقل، فكتب إليه يثنيه عن عزمه، فلما رأى الحارث كتاب قيصر صرف شجاعاً بالحسنى ووصله بنفقة وكسوة.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الجهاد، باب كتب النبي ﷺ إلى ملوك الكفار ١٣٩٧/٣ (ح/١٧٧٤).

* كتاب ملك اليمامة

ووجه النبي ﷺ سليط بن عمرو العامرى بكتاب إلى هوذة بن على ملك اليمامة يدعوه إلى الإسلام، ووعده أن يجعل له ما تحت يديه إن أسلم فكتب في رد الكتاب: ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله، وأنا شاعر قومي وخطيبهم والعرب تهاب مكاني، فاجعل لي بعض الأمر أتبعك، فلما بلغ كتابه الرسول ﷺ قال: (لو سألني قطعة من الأرض ما فعلت، باد وباد ما في يديه) فلم يلبث أن مات منصرف ﷺ الرسول من فتح مكة.

* كتب أخرى

وكذلك أرسل النبي إلى جبلة بن الأيهم الغساني.

وإلى الحارث بن عبد كلال الحميرى ملك اليمن.

وإلى جيفر وعبد ابني الجلندي ملكي عمان.

وإلى غيرهم من الملوك والأمراء، فمنهم من أجاب وأسلم ومنهم من رد رداً سيئاً.

ويلاحظ على هذه الكتب الخبرة الدقيقة بنفوس من أرسل إليهم، وحسن تخير الألفاظ المناسبة لكل، والمثير للعواطف والمشاعر، كما يلاحظ أن بعض من لم يسلم كان رده رداً جميلاً رقيقاً مما يدل على قوة الإسلام وسطوته وسماحة دعوته، فلا تعقيد فيها ولا غموض، وأن الصحابة رضوان الله عليهم الذين حملوا الكتب كانوا عند حسن ظن الرسول ﷺ بهم، ووفوا بما عاهدوه عليه من الإقدام، وأن لا ينكصوا كما نكص بعض رسل عيسى عليه السلام كما كان عجيباً أن لم يقتل من الرسل على كثرتهم إلا واحد، وهذا يدل على أن العالم حينئذ كان يستشرف إلى دين جديد سمح، ينقذه من الحضيض الذي هوى إليه فكان هذا الدين هو الإسلام(١).

---

(١) السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة ٢/٣٦٠ – ٣٦٥.

الدروس والعبـر

أولاً : يجب تبليغ الدعوة إلى الناس جميعاً، لأن رسالة الإسلام عالمية يسعد بها البشر جميعاً في الدنيا والآخرة، ولإقامة الحجة عليهم بالتبليغ.

ثانياً: يجب معاملة أهل الزعامة والتقدم على قومهم بما يليق بهم من العبارات والألفاظ دون التنازل عن المبادئ والأساسيات، ففيه معاملة أهل الفضل بما يستحقون تأليفاً لقلوبهم، وتقريباً لهم إلى الإيمان.

ثالثاً: يدعو المؤمن غيره بأسلوب الترغيب والترهيب فهو أجدى إيقاعاً فى النفس البشرية إذ الحكمة التي أمر بها الداعية تقتضي ذلك، فالهدف الذي يسعى إلى تحقيقه هداية الناس للإسلام.

رابعاً: يمارس بعض أهل الجاهلية قديماً بعض الأخلاق الإنسانية ويتحرجون من اقتراف ما يخالفها، بخلاف ما يراه المسلم اليوم من تجاوز يحقق الأهداف بأي وسيلة كانت، دون مراعاة للثوابت، بل الاعتماد على المصالح وإن تعارضت مع المبادئ.

خامساً: يعلم المؤمن أن دينه حق، وأن نبيه حق وأن المشركين والنصارى وغيرهم يعرفون محمداً ﷺ كما يعرفون أهلهم وأبنائهم إلا أنهم حسدوه وحقدوا عليه، فلم يؤمنوا به ويتبعوه، بل عادوه واعتدوا عليه وعلى أصحابه وأتباعه إلى يومنا هذا.

سادساً: تظهر صفات النبي ﷺ وأخلاقه من أسئلة هرقل النصراني وإجابات أبوسفيان المشرك يومئذ عنه، وفى هذا شهادة من خصوم محمد ﷺ بأنه النبي الحق المرسل من ربه جل وعلا.

سابعاً: يرى المؤمن أثر الكبر والمتكبرين فلا كسرى اليوم أبداً. فيجتنب المسلم هذا الخلق الرديء، ولا يتعامل به مع إخوانه المسلمين، فالأرض والجنس واللون والمال لا تُقَدس أحداً، فأكرم الناس عند الله المؤمن التقى.

ثامناً: يهدي الله لدينه من يشاء فيُدخل الإيمان إلى قلوب بعض عباده دون مشقة ولا عناء ولا جهاد وقتال، كما حدث لباذان وأهل اليمن، فقد آمنوا بسبب رسالة وصلتهم من النبي ﷺ، فاستحقوا وصف الإيمان (الإيمان يمان، والحكمة يمانية).

تاسعاً: يستخدم المؤمن ذكاءه وفطنته عند التحاور والمناظرة حتى يظهر الحق ويتضح الباطل. فالدعوة يحملها الأذكياء النجباء، ولا يحملها الضعفاء البلداء.

سرية مؤتة

* سبب التسمية

سميت بالمكان الذى حدثت عنده المعركة، ومؤتة جنوب الكرك بيسير من بلاد الشام.

- سببها

بعد انتهاء الصراع في الجزيرة العربية كان لابد من الجهاد في سبيل الله لإبلاغ دعوة الله.

وقد تناثرت في أطراف الجزيرة العربية الدويلات العربية النصرانية الموالية للروم، فكان لابد من إخضاعها، وإيصال الدعوة إليها وبسط سلطان الإسلام عليها.

ثم لابد من عمل عسكري وسياسي في هذه المنطقة يسبق أي تفكير للروم في الاعتداء على الدولة الإسلامية الفتية في الجزيرة العربية.

* عدد المسلمين وقادتهم

أرسل النبي ﷺ جيشاً قوامه ثلاثة الاف، وعيّن زيد بن حارثة رضي الله عنه أميراً على الجيش، ثم اخبرهم انه إذا أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب رضي الله عنه فإن أصيب جعفر فعبدالله بن رواحة رضي الله عنه[1].

* تاريخها

خرج المسلمون من المدينة، وساروا حتى نزلوا معان من أرض الشام وكان ذلك في جمادي الأولى من السنة الثامنة.

وبلغ المسلمون أن هرقل جمع لهم الجموع، وأنه نزل مآب من أرض البلقاء في مائة الف، وانضم إليه مائة الف من غير الروم.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة مؤتة ١٥٥٤/٤ (ح/٤٠١٣).

* مشورة الصحابة رضوان الله عليهم

أقام المسلمون ليلتين في معان وهم يفكرون في الموقف ويتشاورون.

وقد انحصر النقاش والتشاور في رأيين:

أحدهما:- الاستمرار في المهمة، والدخول في المعركة مهما كانت الكلفة.

الثاني:- الكتابة إلى النبي ﷺ وانتظار أمره وتوجيهه فيما يعملون.

لقد استند أصحاب الرأي الأول على أدلة منها:

- أنهم خرجوا في سبيل الله والجهاد لإعلاء كلمة الله فلا ينبغي أن يردهم راد، فهم لا يقاتلون الناس بعَددهم ولا عُددهم.
- أنهم خرجوا طلباً للشهادة وها هي بين أيديهم، بل قال عبدالله بن رواحة رضي الله عنه «يا قوم، والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون الشهادة وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنين، إما ظهور وإما شهادة»(١).

فقال الناس: قد والله صدق ابن رواحة.

بينما كان الرأي الثاني يستند على أن الموقف يحتاج إلى مشاورة النبي ﷺ أو إرسال المدد للمساعدة، ولكن حظي الرأي الأول بالرجحان بعد كلام ابن رواحة رضي الله عنه.

* الدخول في المعركة

لقد مضى المسلمون إلى لقاء العدو فإنها الشهادة التي تحفزوا لها وأرادوا طلبها. والتقى الناس، وحمي الوطيس، واقتتلوا فاستشهد زيد بن حارثة رضي الله عنه، وأخذ الراية جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، وقد نزل إلى ميدان القتال وهو يردد:

---

(١) السيرة النبوية - ابن هشام - ٢٤/٤ بسند مرسل.

يا حبـذا الجنـة واقترابـها　　طيبـةً وبـارداً شـرابـها

الـروم روم قد دنـا عذابهـا　　كافـرةٌ بعيـدةٌ أنسـابها

عليَّ إذ لاقيتها ضِرابُها[1]

لقد قاتل جعفر رضي الله عنه قتال الأبطال فقطعوا يده اليمنى، فأخذ الراية بيده اليسرى فقطعوها، ثم احتضنه بعضديه حتى قتل، وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، فأثابه الله بذلك جناحين في الجنة يطير بهما حيث يشاء[2].

ثم أخذ الراية عبدالله بن رواحة رضي الله عنه وتقدم وهو على فرسه، ثم تردد بعض التردد، ثم قال مرتجزاً:

أقسـمت يا نفـس لتنزلنـه　　لتنـزلن أو لتـكرهنـه

إن أجلب الناس وشدوا الرنة　　مالي أراك تكـرهين الجـنة

قد طـال ما قد كنت مطمئـنة　　هل أنت إلا نطفـة في شـنة

وقال أيضاً:

يا نفـس إلا تُقْتَلي تمـوتي　　هذا حمـام المـوت قـد صَلِيت

وما تمنيـت فقـد أعطيـت　　إن تفعـلي فعلهمـا هُـديت[3]

ثم نزل إلى ميدان القتال وقاتل حتى استشهد رضي الله عنه[4]

فأخذ الراية بعده ثابت بن أقرم رضي الله عنه، وطلب من المسلمين أن يصطلحوا على رجل منهم، فرشحوه فرفض، فأصطلحوا على خالد بن الوليد رضي الله عنه فأخذ الراية وتولى القيادة.

---

(١) السيرة النبوية - ابن هشام - ٢٦/٤ - ٣٠، والطبقات الكبرى ١٢٨/٢ - ١٢٩. وقال ابن حجر في الفتح ٥١١/٧ اسناده حسن.

(٢) مجمع الزوائد ١٥٩/٦ - ١٦٠ وقال رواه الطبراني ورجاله ثقات.

(٣) معاني المفردات:

- (الجلب): ارتفاع الأصوات والصياح والاجتماع - . (الرنة) : صوت فيه ترجيع شبيه بالبكاء. - (نطفة): نقطة الماء. - (شنة): قربة الماء من الجلد. - (فعلهما): يقصد زيداً وجعفراً رضوان الله عليهم جميعاً.

(٤) أخرجه احمد فى المسند ٢٥٦/١ وقال الساعاتى فى الفتح الربانى ١٦/١٤ سنده لا بأس به.

* خطة خالد رضي الله عنه في مواجهة الموقف

لقد نفذ خالد رضي الله عنه خطتين:

الأولى: الدخول في القتال.

الثانية: الترتيب للإنسحاب من ميدان المعركة.

أما الأولى: فقد غيّر خالد رضي الله عنه في مواقع الجند في ميدان المعركة ليلاً. فجعل مقدمته ساقته، وساقته مقدمته، وميمنته ميسرته، وميسرته ميمنته. وجعل فرقة من الخيالة تأتي من خلف المسلمين مثيرة للغبار والجلبة وأمر بعض المسلمين كلما رأوا ذلك أن يصرخوا – الله أكبر جاء المدد – حتى يسمعهم الروم فيصابوا بالرعب والخوف، فلما جاء الصباح أنكر الروم ماكانوا يعرفون من رايات وهيئة المسلمين، ووجوه من قابلهم في المرة الأولى من القتال فقالوا: قد جاءهم المدد فرعبوا، فانكشفوا منهزمين، فقتلوا مقتلة لم يقتلها قوم.

وكان قتال ذلك اليوم شديداً فقد انكسرت تسعة أسياف في يد خالد بن الوليد رضي الله عنه[١].

وقتل رجل من أهل اليمن رومياً وأخذ سلبه، فاستكثره خالد رضي الله عنه فأخذه، فشكاه اليمني إلى رسول الله ﷺ فأعطاه إياه، وردّه له[٢].

أما الثانية: فقد انسحب خالد رضي الله عنه بالجيش من خلال حركة الكر والفر. حيث جعل بعض الفرق تُشاغل الروم بالقتال وينسحب الآخرون خاصة وأنه قد قتل من الروم العدد الكبير في اليوم الأول فلم يجرؤا على الخروج جميعاً إلى ميدان القتال حيث ظنوا أن المسلمين قد أعدوا لهم كمائن تصدادهم إذا خرجوا.

فانسحب المسلمون ولم يخسروا سوى اثنى عشر شهيداً[٣].

---

(١) اخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة مؤتة ١٥٥٥/٤ (ح/ ٤٠١٧).

(٢) اخرجه مسلم، كتاب الجهاد، باب استحقاق القاتل سلب القتيل ٣/-١٣٧٣ – ١٣٧٤ (ح/١٧٥٣).

(٣) السيرة النبوية – ابن هشام – ٤٤/٤ – ٤٥.

* **خبر المعركة في المدينة**

أطلع الله تعالى نبيه محمد ﷺ بخبر الغزوة فقام فقال: (أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذها جعفر فأصيب، ثم أخذها ابن رواحة فأصيب - وعيناه تذرفان - حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم)(1).

ثم جاء الخبر بما حدث به النبي ﷺ الناس متطابقاً، وجيء بأبناء جعفر رضي الله عنه فداعبهم رسول الله ﷺ، وأمر بحلق رؤوسهم، ودعا لهم، وقال لأمهم عندما جاءته تذكر يتمهم (العيلة - أي الفقر - تخافين عليهم وأنا وليهم في الدنيا والآخرة)(2).

ثم قال ﷺ عندما جاء نعي جعفر رضي الله عنه (اصنعوا لآل جعفر طعاماً، فقد أتاهم أمر يشغلهم، أو أتاهم ما يشغلهم)(3).

* **شهداء مؤته نالوا المكانة الكريمة**

فقد قال رسول الله ﷺ (ما يسرني أو قال ما يسرهم أنهم عندنا)(4).

* **هل حدث فرار في هذه السرية؟**

وجواب ذلك كما يلي:

خرج الرسول ﷺ والمسلمون للقاء الجيش، فجعل الناس يحثون التراب على الجيش ويقولون لهم يا فُرَّار، فررتم في سبيل الله، ولكن الرسول ﷺ العليم ببواطن الأمور، والمقدر لموقف الجيش قال لهم: «ليسوا بالفُرَّار، ولكنهم الكُرَّار إن شاء الله».

ومع منافحة الرسول ﷺ عن أصحاب مؤته قد اعتزل بعض المسلمين في بيته خشية سماع هذه الكلمة الثقيلة على أسماع المؤمنين الشجعان «يافرار»، روى ابن إسحاق عن أم سلمة زوج النبي ﷺ أنها قالت لامرأة

---

(1) اخرجه البخاري بالموضع السابق ١٥٥٤/٤ (ح/٤٠١٤).
(2) اخرجه احمد في المسند ١٩٢/٣ - ١٩٤ (ح/١٧٥٠) تحقيق شاكر وصححه.
(3) اخرجه احمد في المسند ١٩٤/٣ (ح/ ١٧٥١) تحقيق شاكر وصححه، واخرجه الحاكم في المستدرك ٣٧٢/١ وصححه ووافقه الذهبي.
(4) اخرجه البخاري، كتاب الجهاد، باب من تامر في الحرب من غير إمرة ١١١٥/٣ (ح/٢٨٩٨).

سلَمة بن هشام بن المغيرة: مالي لا أرى سلَمة يحضر الصلاة مع رسول الله ﷺ ؟ فقالت: ما يستطيع أن يخرج، كلما خرج صاح به الناس: يا فُرَّار فررتم في سبيل الله، حتى قعد في بيته ما يخرج.

*** وتحقيق المسألة يرد كالتالي[1]:**

أما ما روى ابن إسحاق[2] من أن الناس قالوا لجيش مؤتة: «يا فرار فررتم في سبيل الله...»، فقد قال ابن كثير[3] عن هذه الرواية: «وعندي أن ابن إسحاق قد وهم في هذا السياق، فظن أن هذا الجمهور الجيش، وإنما كان للذين فروا حين التقى الجمعان، وأما بقيتهم فلم يفروا، بل نصروا كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ المسلمين، وهو على المنبر في قوله: (ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله، ففتح الله على يديه) فما كان المسلمون ليسموهم فراراً بعد ذلك، وإنما تلقوهم إكراماً وإعظاماً، وإنما كان التأنيب وحثي التراب للذين فروا وتركوهم هناك، وكان فيهم عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.

وساق ابن كثير أدلة على أن جمهور المسلمين لم يفروا، بل فرت مجموعة من المسلمين، من ذلك حديث عبدالله بن عمر عند أحمد[4] الذي فيه أنه كان ممن فر وخشوا القتل إن هم دخلوا المدينة، فهموا أن يركبوا البحر، ثم أخيراً قرروا عرض أنفسهم على الرسول ﷺ واعترفوا بفرارهم، فقال لهم: (لا. بل أنتم العكارون[5]، أنا فيئتكم، وأنا فيئة المسلمين) وفي رواية قال لهم: (لا بل أنتم الكرارون).

---

(١) السيرة النبوية من مصادرها الأصلية/ ٥٤٨.

(٢) بإسناد حسن إلى عروة، لكنه مرسل ضعيف - ابن هشام ٣٧/٤ وقال ابن كثير في البداية ٢٧٦/٤ وهذا مرسل من هذا الوجه وفيه غرابة.

(٣) البداية ٢٧٦/٤.

(٤) المسند ٢٠٣ (ح/٥٣٨٤) وصحح شاكر إسناده، وقال ابن كثير في البداية ٢٧٧/٤ رواه الترمذي وابن ماجه من حديث يزيد بن أبي زياد، وقال الترمذي: «حسن لا نعرفه إلا من حديثه».

(٥) العكارون: أي الكرارون إلى الحرب، والعاطفون نحوها. النهاية ٢٨٣/٢.

* **الدروس والعبـر**

أولاً : يعلم المؤمن أن ميزان التفاضل في التعامل إنما هو الإيمان والتقوى وليس هو ميزان الجاهلية الذي يقوم على موازين الأرض من نسب ومال وموقع، لذا يطيع لمن تولى الأمر ما دام أنه متقياً لله طائعاً له.

ثانياً: يدرك المؤمن أن القوة الحقيقية هي قوة الإيمان والرغبة في لقاء العدو حيث أن ذلك هو الذي يدفع إلى التضحية والفداء، فتتضاعف القوة به ويكمل الأداء.

ثالثاً: يجب على المسلمين أن يعدوا ما استطاعوا من القوة بكل معناها إعداداً للخطط العسكرية والسياسية والإدارية، ليواجهوا من خلالها الباطل وأهله.

رابعاً: يحرص المسلمون على وجود القيادة والإمرة لتصريف أمورهم، وإتباعاً لسنة نبيهم ﷺ، حيث لا تستقيم أمورهم فى الحياة إلاَّ بوجود القيادة المبصرة القادرة على تصريف متطلبات الوجود.

خامساً: يتحمل المؤمن المسؤولية إذا أنيطت به ويتعيَّن عليه توليها، رغم المعرفة بأنها تكليف لا تشريف، ولا يبخل على إخوانه بجهد أو رأي.

سادساً: يجاهد المسلم نفسه، ويتخذ من الأسباب ما ينتصر به على هوى النفس ورغبتها في الدنيا فإنها قد تثبطه وقت الجد عن فعل الخير.

سابعاً: يجب تربية الأجيال على الإيمان الذي يزرع في قلوبهما الفداء والتضحية وحب الاستشهاد.

ثامناً: ينسحب المسلم من الموقف غير المتكافىء، وانسحابه ليس جبناً أو خوفاً ولكنه لإعداد الكرة في مقاومة العدو.

تاسعاً: نتأمل قدرة خالد رضي الله عنه في الإنسحاب وإنقاذ هذا الجيش من بين فكي عدوه فنترضى عليه وندعوا له بالخير، ونقتدى ببراعته وذكائه وقوة تدبيره.

* فتح مكـة

* سببه

تمهيـــد :

كان من شروط الحديبية أن من أراد الدخول في حلف محمد ﷺ دخل ومن أراد أن يدخل في حلف قريش دخل، فدخلت خزاعة في حلف النبي ﷺ ودخلت بكر في حلف قريش – كما سبق ذكره في صلح الحديبية – وكانت ديار خزاعة قريبة من مكة.

ومكث الناس في تلك الهدنة نحو السبعة عشر أو الثمانية عشر شهراً.

إلا أن بني بكر وثبوا على خزاعة ليلاً على ماء يقال له «الوتير» قريب من مكة فقاتلوهم وقتلوهم.

* موقف قريش

قالت قريش: وما يعلم بنا محمد وهذا الليل ما يرانا أحد، فأعانوا بكراً على خزاعة بالكراع والسلاح، وقاتلوا معهم.

* نجدة خزاعة بالرسول ﷺ

لقد استنجدت خزاعة بحليفها محمد ﷺ حيث ذهب عمرو بن سالم الخزاعي إلى المدينة المنورة مستنجداً ومخبراً.

فلما قدم خاطب النبي ﷺ بقوله:

يـــارب إنـــي ناشـــد محمــداً	حلـــف أبيه وأبينـــا الأتلـدا
فانصر رسول الله نصراً اعتدا[1]	وادع عبـــاد الله يأتـــوا مـدداً
في فيلـــق كالبحـر يجري مزبـدا	إنّ قريشـــاً أخلفـوك الموعـدا
وزعموا أن لســت أدعـوا أحـدا	فهـــم أذلُّ وأقـــلُّ عـــددا
هــم بيتونـــا بالوتيـر هجـــدا	وقتلونـــا ركعـــاً وســـجداً

(١) اعتدا: حاضرا.

فقال رسول الله ﷺ (نُصرت يا عمرو بن سالم)، فما برح حتى مرت بهم سحابة فقال رسول الله ﷺ (إن هذه السحابة لتستهل بنصر بني كعب)[1].

* خوف قريش من نقض العهد

لقد خافت قريش من فعلتها تلك فبادرت بإرسال أبي سفيان إلى المدينة قبل أن يبلغ المسلمين الخبر، ليؤكد المعاهدة، ويوثق الشروط[2].

ووصل أبوسفيان إلى المدينة، ودخل على ابنته أم حبيبة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ[3].

فلما ذهب ليجلس على فراش رسول ﷺ طوته عنه، فقال: يا بنية، ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش، أم رغبت به عني؟

قالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت رجل مشرك نجس، ولم أحب أن تجلس على فراش رسول الله ﷺ.

قال: والله لقد أصابك يا بنية بعدي شر، ثم خرج[4].

* محاولة ابي سفيان ان يؤدي مهمته في المدينة

ثم كلم رسول الله ﷺ في العهد وإطالة المدة فلم يحظ منه بطائل، فخرج قاصداً أبا بكر فكلمه أن يكلم رسول الله فقال: ما أنا بفاعل، ثم أتى عمر بن الخطاب فكلمه فقال له: أنا أشفع لكم إلى رسول الله ﷺ؟! فوالله لو لم أجد لكم إلا الذر لجاهدتكم به.

ثم خرج فدخل على علي بن أبي طالب وعنده فاطمة بنت رسول الله ﷺ والحسن غلام يدب بين يديه، فقال: يا علي، إنك أمس القوم بي رحماً وأقربهم

---

(١) السيرة النبوية – ابن كثير – ٥٢٦/٣، والإصابة ٥٢٩/٢، وسنده صحيح.
(٢) المصنف ٣٧٥/٥ بإسناد صحيح.
(٣) أم حبيبة: رملة بنت ابي سفيان هاجرت من مكة مع زوجها عبيد الله بن جحش إلى الحبشة فراراً بدينهم من اذى قريش، فلما وصلوا الحبشة تنصّر زوجها وارتد عن الإسلام فحرمت عليه، فأرسل النبي ﷺ إلى النجاشي ملك الحبشة يطلب تزويجها وقد دفع لها النجاشي مالاً، وأرسل بها إلى المدينة المنورة فرضي الله عنها فرغم غيبتها عن ابيها هذه المدة إلا أن المبادىء لا تؤثر عليها العواطف – كما سيأتي في الدروس والعبر – .
(٤) السيرة النبوية لابن هشام ٥٥/٤.

قرابة، وقد جئتُ في حاجة فلا أرجعن كما جئت خائباً، فاشفع لي إلى رسول الله، فقال له: ويحك يا أبا سفيان، والله لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه، فالتفت إلى فاطمة فقال: هل لك أن تأمري بنيك هذا فيُجير بين الناس، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر، فقالت: والله ما يبلغ بني ذلك أن يجير بين الناس، وما يجير أحد على النبي ﷺ فقال: يا أبا الحسن إني أرى الأمور قد اشتدت عليّ فانصحني، فقال علي: والله ما أعلم لك شيئاً يغني عنك شيئاً، ولكنك سيد بني كنانة، فقم فأجر بين الناس ثم الحق بأرضك فقال: أو ترى ذلك مغنياً عني شيئاً؟ فقال: لا والله، ولكن لا أجد لك غير ذلك فقام أبوسفيان فقال: إني قد أجرت بين الناس، ثم ركب بعيره وعاد من حيث أتى، فلما قدم على قريش أخبرهم بما كان وإجارته بين الناس، فقالوا له: هل أجاز ذلك محمد؟ قال: لا، قالوا ويحك ما زاد الرجل على أن لعب بك فما يغني عنا ما قلت[1].

* طلب أخذ العيون

قال رسول الله ﷺ بعد أن تجهز للخروج (اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها)[2].

إلا أن اجتهاداً فردياً خاطئاً كاد أن يُفسد خطة المباغتة، فقد أرسل حاطب بن أبي بلتعة البدري – أي من أهل غزوة بدر – رضي الله عنه كتاباً مع امرأة إلى ناس بمكة من المشركين يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ فبعث النبي ﷺ علياً والزبير والمقداد في أثرها، وقال لهم: (انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها). وعندما أدركوها في المكان المشار إليه، طلبوا منها إخراج الكتاب فأنكرت وجوده معها، فقالوا لها: «لتخرجن الكتاب أو لنلقين بالثياب» فأخرجته، فأرسل الرسول ﷺ إلى حاطب، فقال له: (يا حاطب، ما هذا؟) قال: «يا رسول الله، لا تعجل علي، إني كنت امرءاً ملصقاً في قريش حليفاً، ولم أكن من أنفسها، وكان من معك من

(١) السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة ٢/٤٣٦ – ٤٣٧.
(٢) البداية ٤/٣١٥ بإسناد حسن، والسيرة النبوية – ابن هشام – ٤/٥٦ – ٥٧.

المهاجرين من لهم قرابات يحمون أهليهم، وأموالهم، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يداً يحمون بها قرابتي، ولم أفعله ارتداداً عن ديني ولا رضا بالكفر بعد الإسلام». فقال رسول الله ﷺ (أما إنه قد صدقكم)، فقال عمر: «يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق»، فقال النبي ﷺ (إنه قد شهد بدراً، وما يدريك لعلَّ الله اطلع على من شهد بدراً وقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم)، فأنزل الله الآيات: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعَدُوَّكُم أولياءَ تُلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق**»، إلى قوله «**فقد ضل سواء السبيل**﴾[1] وفي رواية: فدمعت عينا عمر وقال: «الله ورسوله أعلم»[2].

* تاريخ الغزوة

خرج رسول الله ﷺ وأصحابه من المدينة المنورة في طريقهم إلى مكة المكرمة، في رمضان سنة ثمان من الهجرة[3].

* عدد جيش المسلمين

بلغ عدد جيش المسلمين عشرة آلاف مقاتل خرجوا مع رسول الله ﷺ[4].

* طريق الفتح بُدئت بإسلام بعض قادة قريش

وفي الطريق إلى مكة لقيه بعض زعماء قريش وأعلنوا إسلامهم منهم:

- ابن عم رسول الله ﷺ أبوسفيان بن الحارث بن عبدالمطلب وهو أخو النبي ﷺ من الرضاعة.

وكان أبوسفيان هذا من ألد أعداء المسلمين فقد ظل على مدى عشرين

---

(١) سورة المتحنة آية ١.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الفتح (١٥٥٧/٤) (ح/٤٠٢٥) وأخرجه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أهل بدر ١٩٤١/٤ (ح/ ٢٤٩٤).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب فضل من شهد بدرا ١٤٦٣/٤ (ح/٣٧٦٢).

(٤) أخرجه البخاري قبله ١٥٥٨/٤ (ح/ ٤٠٢٧).

(٥) أخرجه البخاري بموضعه قبله ١٥٥٨/٤ (ح/ ٤٠٢٧).

سنة يهجو المسلمين ويقاتلهم في كافة الحروب، فلما أسلم كانت له مواقف الجهاد والثبات، كما سيأتي في قصة ثباته يوم حنين(١).

– عبدالله بن أبي أمية بن المغيرة:

وهو أخو أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها، وكان من ألد خصوم المسلمين بمكة، فلما أسلم دافع عن الإسلام بقوة، واستشهد في حصار الطائف(٢).

– العباس بن عبدالمطلب عم رسول الله ﷺ والخلاف في وقت إسلامه بين أهل السير مشهور(٣)، والذي أقصده هنا أنه لقي النبي ﷺ بالجحفة وهو قاصد الهجرة إلى المدينة مع أهله وعياله(٤).

– أبوسفيان بن حرب، وقد أسلم قبل دخول النبي ﷺ إلى مكة، ويأتي تفصيله بعده.

* نيران الرعب قرب مكة

وصل النبي ﷺ ومعه المسلمون إلى منطقة مر الظهران – مكان بين مكة والمدينة – فأمر ﷺ كل فرد من أفراد المسلمين أن يشعل ناراً لوحده، فإذا بعشرة آلاف نار في ذلك الوادي قد أضاءت، وذلك قصداً لإنزال الرعب في قلوب قريش ومن حالفها حول مكة من العرب.

أخذ الله الأنباء عن قريش فلم يصلها خبر عن النبي ﷺ ولما تعلم ما هو رده على نقضها لمعاهدة الحديبية وعونها لبني بكر على خزاعة، إلا أن بعض زعماء مكة خرج يتحسس الأخبار، وكان تلك الليلة ابوسفيان بن حرب، وحكيم ابن حزام وبُديل بن ورقاء خارج مكة لذلك، وكانوا يتحدثون في أمر الجيش المعسكر بمر الظهران وكثرة نيرانه ومن هو؟ ... الخ.

---

(١) السيرة النبوية ابن هشام ٦١/٤، والحاكم في المستدرك ٤٣/٣ – ٤٥. وصححه ووافقه الذهبي.
(٢) الاستيعاب – ابن عبدالبر ٢٦٣/٢.
(٣) منهم من يرى أنه أسلم قبل هذا الوقت، وكان مخفياً إسلامه عن قومه ليكون عيناً لرسول الله ﷺ عليهم بمكة. انظر الاستيعاب ٩٥/٣ – والبداية ٢٤٢/٤ – والفتح الرباني ١٢٢/٢١ وغيره.
(٤) السيرة النبوية – ابن هشام – ٦٠/٤.

عند وصول النبي ﷺ أخذ العباس رضي الله عنه بغلة رسول الله ﷺ وأخذ يتجول عليها بعيداً عن المعسكر فلعله يجد من يرسله إلى مكة لإخبارهم حتى يخرجوا لمصالحة النبي ﷺ قبل أن يدخل عليهم مكة.

إلا أنه سمع حديث الثلاثة «أبوسفيان وصاحبيه» فنادى العباس أباسفيان، قال نعم، أبا الفضل قال نعم. قال ما هذه النيران؟

قال العباس: هذا محمد قد أقبل بما لا قبل لكم به، انطلق معي حتى آخذ لك الأمان منه. فانطلقا، وقد أردف العباس أبا سفيان على بغلة النبي ﷺ وكان كلما مرّ بنار لأحد من المسلمين قال: هذه بغلة رسول الله ﷺ وهذا عمه حتى مرّ على نار عمر بن الخطاب رضي الله عنه فرأى أباسفيان فقال: عدو الله قد أمكن الله منه، ثم انطلق يستأذن رسول الله ﷺ في قتله، فلما قال له: هذا أبوسفيان قد أمكن الله منه مُرني فلأضرب عنقه، قال العباس: قد أجرته يا رسول الله.

* أبوسفيان في مجلس النبي ﷺ

جلس أبوسفيان فقال له النبي ﷺ (أما أن لك يا أباسفيان أن تُسلم وتعلم أن ما جئتُ به من عند الله حق؟) فأسلم أبوسفيان.

قال العباس: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً.

فقال: (من دخل دار أبي سفيان فهو آمن)[1].

* عرض عسكري أمام أبي سفيان

أراد النبي ﷺ أن ينهي علائق الشرك أو التردد في قلب أبي سفيان وأن يرسخ في نفسه الإيمان فلا يفكر بمقاومة أو خديعة، وأراد أن يُريه قوة المسلمين وانتظام صفوفهم، فقال للعباس خذ أبا سفيان واحبسه عند مضيق الجبل حتى تمرّ به جنود الله فيراها. ففعل.

---

(١) مجمع الزوائد ٦/١٦٤ – ١٦٧ وقال رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح.

ومرت به القبائل والكتائب حتى إذا مرت كتيبة المهاجرين والأنصار وفيهم رسول الله ﷺ قال ابو سفيان: والله لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيماً فقال العباس: ويحك يا أبا سفيان، إنها النبوة، قال: نعم إذاً[1].

* دخول النبي ﷺ مكة

وقد طلب أبوسفيان من قومه عدم المقاومة لأنهم لا يقدرون على ذلك وأعلمهم بأن محمداً قال (من دخل دار أبي سفيان فهو آمن).

فقالوا له: ويحك وما تغني عنا دارك، فأخبرهم أن من أقفل عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن[2].

* مقاومة الهالك

وقد جمعت قريش جموعاً من قبائل شتى ومن اتباعها لحرب المسلمين وقالوا نُقدِّمُ هؤلاء فإن كان لهم شيء كنا معهم، وإن أصيبوا أعطينا الذي سئلنا، فأمر رسول الله ﷺ بقتالهم، وسارت جيوشه حتى انتهت إلى الصفا ما يعرض لهم أحد إلا قتلوه[3].

وقد قاد جمع المشركين صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو[4].

ودخل النبي ﷺ مكة من أعلاها خاشعاً مكبراً، يقرأ سورة الفتح ويرجع في قراءتها وهو على راحلته، ودخل خالد بن الوليد من أسفلها[5].

وقد تعرض المشركون لخالد فقاتلهم حتى ولوا الأدبار.

ووصل النبي ﷺ إلى المسجد الحرام وكان على رأسه المغفر غير محرم

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب اين ركز النبي ﷺ الراية يوم الفتح ١٥٥٩/٤ (ح/٤٠٣٠).
(٢) تقدم تخريجه في مجمع الزوائد – قبله – .
(٣) أخرجه مسلم، كتاب الجهاد، باب فتح مكة ١٤٠٥/٣ (ح/١٧٨٠).
(٤) السيرة النبوية – ابن هشام – ٦٢/٤.
(٥) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب أين ركز.... ١٥٦٠/٤ (ح/ ٤٠٣١).

ثم لبس عمامة سوداء، واستلم الحجر الأسود، ثم طاف بالبيت[1].

وقد أمر الرسول ﷺ بتطهير البيت الحرام بإزالة الأصنام عنه، وشارك بيده في تكسيرها، وهو يقرأ ﴿قل جاء الحق وما يُبدِئُ الباطل وما يُعِيدُ﴾[2].

﴿قل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً﴾[3][4].

وكان عددها ستين وثلاثمائة صنم[5].

وأمر بتطهير الكعبة وكان بداخل الكعبة صور لإبراهيم وإسماعيل وإسحاق وهم يستقسمون بالأزلام، قد لطخت بالزعفران، وقال (قاتلهم الله ما كان إبراهيم يستقسم بالأزلام)[6] يقصد من صوّر تلك الصور.

ثم دخل وصلى بها ركعتين[7].

* العفو عند المقدرة فتح للقلوب

وأعلن النبي ﷺ العفو العام عن أهل مكة عندما اجتمعوا حول الكعبة يسمعون له إذ قال: (ما تظنون أني فاعل بكم؟).

قالوا: خيراً، أخ كريم، وابن أخ كريم.

فقال: (لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم – وفي رواية – اذهبوا فأنتم الطلقاء)[8].

---

(١) اخرج بعضه البخاري، كتاب المغازي، باب اين ركز .. ١٥٦١/٤ (ح/٤٠٣٥) واخرجه مسلم كتاب الحج، باب جواز دخول مكة بدون احرام ٩٩٠/٢ (ح/١٣٥٨).

(٢) سور سبأ آية ٤٩.

(٣) سورة الإسراء آية ٨١.

(٤) اخرجه البخاري، بموضعه قبله ١٥٦١/٤ (ح/٤٠٣٦) ومسلم، كتاب الجهاد، باب ازالة الاصنام ١٤٠٨/٣ (ح/١٧٨١).

(٥) اخرجه البخاري، بالموضع السابق ١٥٦١/٤ (ح/٤٠٣٦)، ومسلم كذالك ١٤٠٨/٣ (ح/١٧٨١).

(٦) اخرجه البخاري، بالموضع السابق، ١٥٦١/٤ (ح/٤٠٣٧).

(٧) اخرجه البخاري، كتاب الجهاد، باب الردف على الحمار ١٠٨٩/٣ – ١٠٩٠ (ح/٢٨٢٦) ومسلم، كتاب الحج باب استحباب دخول الكعبة ٩٦٦/٢ (ح/١٣٢٩).

(٨) السيرة النبوية ابن هشام ٧٨/٤.

ونزل رسول الله ﷺ بقبة ضربت له في منطقة الحجون، في المكان الذي تعاقدت فيه قريش على مقاطعة بني هاشم والمسلمين قديماً بمكة، وذلك لأن النبي ﷺ لا يملك داراً فقد باع عقيل وطالب بيوت بني هاشم حيث قال النبي ﷺ (وهل ترك لنا عقيل من دار) عندما سئل اين تنزل غداً يا رسول الله![1].

واجتمع الناس لمبايعة رسول الله ﷺ على السمع والطاعة لله ورسوله وبايع الرجال والنساء، ولم تمس يده يد امرأة لا تحل له[2].

ودخل الناس في دين الله أفواجاً.

عن عمر بن سلمة الجرمي رضي الله عنه قوله: «وكانت العرب تلوم بإسلامها الفتح، يقولون: انظروا فإن ظهر عليهم فهو صادق وهو نبي، فلما جاءتنا وقعة الفتح بادر كل قوم بإسلامهم»[3].

وهذا مصداق قوله تعالى:

﴿إذا جاء نصر الله والفتح، ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً﴾[4].

---

(١) أخرجه البخاري، بالموضع السابق ٤/١٥٦٠ (ح/٤٠٣٢).
(٢) أخرجه الإمام مسلم، كتاب الإمارة، باب كيفية بيعة النساء ٣/١٤٨٩ (ح/١٨٦٦).
(٣) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب من شهد الفتح ٤/١٥٦٥ (ح/٤٠٥١).
(٤) سورة النصر.

* الدروس والعبـر

أولاً : يفي المؤمن بوعده وعهده فلا ينقض عهداً ولا حلفاً، بل ينصر حلفاءه ضد عدوهم إذا نقض عهده معهم واعتدى عليهم.

ثانياً: يتوجه المؤمن بالدعاء لله أن ينصره، وأن يوفق أساليبه ووسائله في مقاومته لعدوه، ومباغتته في عقر داره.

ثالثـاً: يخطىء المؤمن في بعض الحالات فالكل خطاء، لكن خير الخطائين التوابون يعودون إلى الله تعالى ويستغفرونه ويتوبون إليه.

رابعاً: يُيئس المؤمنون الكفار بأساليب الحرب النفسية، فلا يؤملون في إيذاء المسلمين أو مقاومة الإسلام ومحاربته. لذلك حاول النبي ﷺ محاربتهم نفسياً فلا يؤملون بعدها في إيذاء المسلمين وذلك من خلال:

أ – إشعال النيران لكل جندي.

ب – حبس أبا سفيان على طرف الجبل فيرى العَدد والعُدد.

خامساً: يعفو المسلم عن عدوه عند القدرة عليه إذا رأى أن العفو أنجح الأساليب في معالجة نفس عدوه، وتقريبه إلى الإسلام.

سادساً: لا يحقد المؤمن على من آذاه أو حاول قتله إذا أسلم ذلك المعتدى، بل يتجاوز ويعفو، ويدخر ذلك عند الله تعالى.

سابعاً: يعلم المسلم أن النبي ﷺ كان يدرك أن هذه الدعوة وقد جعلها الله تعالى في العرب وهم حملتها، ومكة هي المنطلق الذي يجب أن يكون رديفاً مساعداً للمدينة في تبليغ الإسلام إلى الناس لذا كان يوم الفتح يوم تعظم فيه الكعبة وتعز قريش، وكان يدرك ﷺ أن هؤلاء القوم «قريش» سيشاركون في الدفاع عن الدعوة فهم أشراف الناس. ولو أنه قتلهم فستهدر دماء وستضيع جهود وطاقات.

ثامناً: يكرم المسلم أهل الفضل فلقد أكرم النبي ﷺ أبا سفيان.. فالناس منازل فلابد من إكرام الكرماء، والمحافظة على مواضع المؤثرين في المجتمعات..

تاسعاً: يعلم المؤمن مبايعة المؤمنين للنبي ﷺ .. بجوار الصفا .. بايعوه على الإيمان .. (من مات وليس في عنقه بيعه مات ميتة جاهلية)(١).

عاشراً: يبرز التحول والتغير من الجاهلية إلى الإسلام، من الشر والوحشية إلى الخير والرحمة، فما إن يستقر الإسلام ويرسخ الإيمان إلا وتتشكل النفوس وتصاغ الأرواح، فتسموا بالمسلم في مدارج الإنسانية عبر سلم العبودية لترقى به إلى الكمال الإنساني.

الحادى عشر: يلتزم المسلم بالإيمان لأنه يحول النفوس الشريرة الحاقدة إلى نفوس مطمئنة راضية بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً، فيندفع للأداء في أعلى صوره وأشكاله.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين ١٤٧٨/٢ (ح/١٨٥١).

غزوة حنين والطائف

* سبب التسمية

سميت بحنين وذلك باسم الوادي الذي وقعت فيه المعركة وهو: واد بجنب ذي المجاز قريب من الطائف، بينه وبين مكة بضعة عشر ميلاً من جهة عرفات(١).

* سبب الغزوة

سمعت ثقيف بخروج النبي ﷺ من المدينة، فظنوا أنه إنما يريدهم فلما بلغهم أنه نزل مكة، أخذوا في الاستعداد وحشد القوات لمواجهته قبل أن يهاجمهم.

خرجت ثقيف بقيادة مالك بن عوف النصرى في جيش مقداره عشرون ألفاً، وحشدوا معهم الأموال والنساء والأبناء حتى لا يفر أحدهم ويترك أهله وماله، وكان هذا رأي مالك بن عوف وقد خالفه دريد بن الصمة، حيث حدث بينه وبين مالك خلاف وكان دريد بن الصمة على رأس بني جشم يومذاك وكان شيخاً كبيراً، ليس فيه شيء إلا التيمن برأيه، لأنه كان شيخاً مجرباً عارفاً بالحرب، فأنكر على مالك النصري الخروج بالنساء والأطفال والأموال، إذ يرى أن المنهزم لا يرده شيء، فلم يعمل مالك برأي دريد. بل اتهم مالك دريداً بأنه كبر وقلَّ علمه، وأقسم على هوزان بأن تطيعه هو وإلا انتحر.

فأطاعوه، فأمرهم أن يكسروا جفون سيوفهم إذا رأوا المسلمين، ثم يشدوا شدة رجل واحد(٢).

* توفير المعلومات والاستعداد للمعركة

فلما سمع بهم رسول الله ﷺ بعث عبدالله بن أبى حدرد الأسلمي رضى الله عنه ليأتيهم ويدخل فيهم ويعلمه خبرهم، فجاءهم ومكث فيهم يوماً

---

(١) فتح الباري ٢٧/٨.
وذكر الجاسر أن وادي حنين يعرف الآن بالشرائع على بعد عشرين ميلا من مكة، تعليقه على كتاب المناسك للحربي. انظر كتاب (قلب جزيرة العرب لفؤاد حمزة - ٠٤٧١).
(٢) انظر السيرة النبوية فى ضوء المصادر الأصلية /٥٨٢.

أو اثنين، ونقل خبرهم إلى الرسول ﷺ .

وبعد جمع المعلومات العسكرية المطلوبة استعد الرسول ﷺ لمواجهتهم فاستعار من يعلى بن أمية ثلاثين بعيراً «أسلم يوم الفتح وشهد حنيناً والطائف وتبوك»[1].

واستعار مائة درع من صفوان بن أمية «وكان من المؤلفة قلوبهم» وأعادها إليه بعد غزوة حنين، وشكره على ذلك[2]. ويُروى أنه استقرض من حويطب بن عبدالعزى أربعين ألف درهم[3]، وتقبل معونة قدرها ثلاثة آلاف رمح من نوفل ابن الحارث بن عبدالمطلب[4].

* تاريخ الغزوة

وبعد أن أقام الرسول ﷺ بمكة تسعة عشر يوما، خرج إلى حنين لست خلت من شوال، وقيل لليلتين بقيتا من رمضان، وجمع بعضهم بأنه بدأ بالخروج في أواخر رمضان وسار سادس شوال وكان وصوله إليها في عاشره واستعمل عتاب بن أسيد بن أبي العيص أميراً على مكة.

* تبشير النبي ﷺ للمسلمين

قال رسول الله ﷺ عندما بلغه خبر خروج مالك ومعه الأموال والأهل والأولاد. (تلك غنيمة المسلمين غداً - إن شاء الله)[5].

---

(١) انظر ترجمته في الاستيعاب ٦٦١/٣ - ٦٦٥ والإصابة ٦٦٨/٣ وروى خبر الإعارة: أبوداود في السنن في كتاب البيوع، باب تضمين العارية ١٤٦٠/٢ وقال صاحب الجوهر النقي في شرح السنن الكبرى للبيهقي ٩٠/٦ عن هذا الخبر: (قال ابن حزم: حديث حسن ليس في شيء مما روي في العارية خبر يصح غيره، وأما ما سواه فليس يساوي الاشتغال به..) إشارة إلى حديث الاستعارة من صفوان بن أمية، انظر ابن حزم: المحلى ١٧٣/٩ وانظر تخريجه في الإرواء ٣٤٨/٥ - ٣٤٩ وقد صحح الألباني إسناده من سياق، ورواية أبي داود عن طريق همام عن قتادة به عن عطاء بن أبي رباح عن صفوان بن يعلى عن أبيه.

(٢) من رواية ابن إسحاق بإسناد حسن: رواها الذهبي في المغازي ص/٥٧٢، والحاكم في المستدرك ٤٩/٣ وصححها ووافقه الذهبي.

(٣) الاستيعاب ٣٨٥/١ معلقاً.

(٤) الاستيعاب ٥٣٧/٣ معلقاً.

(٥) أخرجه أبوداود في السنن، كتاب الجهاد، باب في فضل الحرس في سبيل الله ٢٠/٣ - ٢١ (ح/٢٥٠١) وهو حديث صحيح الإسناد.

* عدد جيش المسلمين

خرج رسول الله ﷺ إلى حنين، ومعه أصحابه الذين قدم بهم من المدينة المنورة لفتح مكة وهم عشرة آلاف، وقد انضم إليهم من أسلم يوم الفتح وهم ألفان، فأصبحوا اثني عشر ألفا. وهو أكبر جيش إسلامي يخرج في حياة الرسول ﷺ حتى ذلك الوقت، لذا ساد شعور عند بعض المسلمين أنهم لن يغلبوا من قلة وقد ذكر الله ذلك، فقال تعالى: ﴿ ... **ويوم حُنين إذ أعجبتكم كثرتُكم فلم تُغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رَحُبت ثم وليتم مُدبرين** ﴾(1).

وفي الطريق رأى بعض من لم يتمكن الإسلام في قلبه من مسلمة الفتح شجرة يعلق عليها المشركون أسلحتهم تعرف بذات أنواط(2).

فقالوا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط.

فقال النبي ﷺ سبحان الله. هذا كما قال قوم موسى لموسى ﴿**اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة**﴾(3).

والذي نفسي بيده لتركبن سنن من كان قبلكم(4).

* خطة هوازن

بادرت هوازن فدخلوا إلى الوادي بالليل، وفرقوا كمائنهم في الطرق والمداخل والشعاب والمضايق. وكانت التعليمات الصادرة لهم:

- أن يرشقوا المسلمين بالسهام عند دخولهم وادي حنين المنحدر.

- أن يشدوا عليهم شدة رجل واحد، وأن يباغتوهم.

* خطة المسلمين

عبأ رسول الله ﷺ الجيش بالسحر، وعقد الألوية والرايات، ورتب الجند

---

(1) سورة التوبة آية ٢٥.

(2) شجرة عظيمة كانت لكفار قريش ومن سواهم من العرب، يأتونها كل سنة فيعلقون عليها أسلحتهم، ويذبحون عندها، ويعكفون عليها يوماً.

(3) سورة الأعراف آية ١٣٨.

(4) أخرجه الترمذي في جامعة، كتاب الفتن، باب ما جاء لتركبن سنن من قبلكم ٤/٤٧٥ (ح/٢١٨٠) وقال حسن صحيح.

في هيئة صفوف منتظمة، واستقبل بجيشه وادي حنين في عماية الصبح وانحدروا في ذلك الوادي، تتقدمهم على المجنبة الخيالة بقيادة خالد بن الوليد رضي الله عنه.

* مباغتة هوازن للمسلمين

بعد دخول المسلمين إلى الوادي حملوا على هوازن فانكشفوا، فأكب المسلمون على ما تركوه من الغنائم ثم رمتهم ثقيف بالسهام بعد ذلك

(... وإنا لما حملنا عليهم انكشفوا، فأكببنا على الغنائم فاستقبلونا بالسهام)[1].

وكان أول من أدبر خيالة المسلمين، ثم المشاة وفر معهم الذين أسلموا حديثاً بمكة ولم يكن المسلمون يتوقعون هذا، فضاقت عليهم الأرض بما رحبت فولوا مدبرين لا يلوى أحد على أحد.

* ثبات النبي ﷺ[2]

قال العباس بن عبدالمطلب رضى الله عنه: شهدت مع رسول الله ﷺ يوم حنين. فلزمت أنا وأبوسفيان بن الحارث بن عبدالمطلب رسول الله ﷺ فلم نفارقه، ورسول الله على بغلة له بيضاء.

فلما التقى المسلمون والكفار، ولىّ المسلمون مدبرين.

فطفق رسول الله يركض بغلته قبل الكفار. قال عباس: وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ. أكفها إرادة أن لا تسرع. وأبوسفيان آخذ بركاب رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ (أي عباس! ناد أصحاب السمرة). فقال عباس وكان رجلاً صيتاً فقلت بأعلى صوتي: أين أصحاب السمرة؟.

قال: فوالله! لكأنّ عطفتهم، حين سمعوا صوتي، عطفة البقر على أولادها فقالوا: يا لبيك! يا لبيك! قال: فاقتتلوا والكفار، والدعوة في الأنصار، يقولون

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب ويوم حنين ٤/١٥٦٨ (ح/٤٠٦٣) وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير باب في غزوة حنين ٣/١٤٠١ (ح/١٧٧٦).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب في غزوة حنين ٣/١٣٩٨-١٣٩٩ (ح/١٧٧٥).

يا معشر الأنصار! قال: ثم قصرت الدعوة على بني الحارث بن الخزرج فقالوا: يا بني الحارث بن الخزرج[1].

فنظر رسول الله ﷺ وهو على بغلته، كالمتطاول عليها إلى قتالهم، فقال رسول الله ﷺ (هذا حين حمي الوطيس).

قال: ثم أخذ رسول الله ﷺ حصيات فرمى بهن وجوه الكفار، ثم قال (انهزموا ورب محمد!) قال: فذهبت أنظر فإذا القتال على هيئته فيما أرى. قال فوالله! ما هو إلا أن رماهم بحصياته. فمازلت أرى حدهم كليلاً وأمرهم مدبراً.

وفي رواية أنه قال:

(انهزموا. ورب الكعبة! انهزموا. ورب الكعبة!) وزاد في الحديث: حتى

---

(١) معاني المفردات: من تعليقات محمد فؤاد عبدالباقي على صحيح مسلم.
(ابوسفيان بن الحارث) ابوسفيان هذا هو ابن عم رسول الله ﷺ. قال جماعة من العلماء: اسمه هو كنيته. وقال اخرون: اسمه المغيرة.
(على بغلة بيضاء) كذا قال في هذه الرواية ورواية اخرى بعدها إنها بغلة بيضاء. وقال في اخر الباب على بغلته الشهباء. وهي واحد. قال العلماء: لا يعرف له بغلة سواها، وهي التي يقال لها: دلدل.
(يركض بغلته) اي يضربها برجله الشريفة على كبدها لتسرع.
(اصحاب السمرة) هي الشجرة التي بايعوا تحتها بيعة الرضوان. ومعناه: ناد اهل بيعة الرضوان يوم الحديبية.
(صيتا) اي قوي الصوت. ذكر الحازمي في المؤتلف ان العباس رضي الله تعالى عنه كان يقف على سلع فينادي غلمانه في اخر الليل، وهم في الغابة فيسمعهم، قال: وبين سلع والغابة ثمانية اميال.
(لكان عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على اولادها) اي عودتهم لمكانتهم واقبالهم إليه ﷺ عطفة البقر على اولادها. اي كان فيها انجذاب مثل ما في الأمهات حين حنت على الأولاد.
قال النووي: قال العلماء: في هذا الحديث دليل على ان فرارهم لم يكن بعيداً. وانه لم يحصل الفرار من جميعهم وإنما فتحه عليهم من في قلبه مرض من مسلمة اهل مكة المؤلفة ومشركيها الذين لم يكونوا اسلموا. وإنما كانت هزيمتهم فجاة لانصبابهم عليهم دفعة واحدة ورشقهم بالسهام. ولاختلاط اهل مكة معهم ممن لم يستقر الإيمان في قلبه وممن يتربص بالمسلمين الدوائر. وفيهم نساء وصبيان خرجوا للغنيمة، فتقدم اخفاؤهم. فلما رشقوهم بالنبل ولوا فانقلبت اولاهم على اخراهم إلى ان انزل الله سكينته على المؤمنين، كما ذكر الله تعالي في القرآن.
(والكفار) هكذا هو في النسخ. وهو بنصب الكفار. اي مع الكفار.
(والدعوة في الأنصار) هي بفتح الدال. يعنى الاستغاثة والمناداة إليهم.
(هذا حين حمي الوطيس) قال الاكثرون: هو شبه تنور يسجر فيه. ويضرب مثلا لشدة الحرب التي يشبه حرها حره. وقد قال اخرون: الوطيس هو التنور نفسه. وقال الأصمعي: هي حجارة مدورة، إذا حميت لم يقدر احد ان يطأ عليها، فيقال: الآن حمى الوطيس. وقيل: هو الضرب في الحرب. وقيل: هو الحرب الذي يطيس الناس، اي يدقهم. قالوا: وهذه اللفظة من فصيح الكلام وبديعه الذي لم يسمع من احد قبل النبي ﷺ.
(فمازالت ارى حدهم كليلا) اي مازلت ارى قوتهم ضعيفة.

هزمهم الله.

قال: وكأني أنظر إلى النبي ﷺ يركض خلفهم على بغلته.

* تشفي بعض العرب وضعفاء الإيمان

ولما انهزم المسلمون تكلم بعض جفاة الأعراب، ومن كانوا حديثي عهد بالإسلام بما ينم عن التشفي والشماتة، فقال كلدة بن الحنبل – وهو أخ لصفوان بن أمية لأمه – الا بطل السحر اليوم!!

فقال له صفوان: وكان لا يزال مشركا في المدة التي جعل له فيها الرسول الخيار اسكت، فض الله فاك، فوالله لأن يربني – يملكني – رجل من قريش أحب إليّ من أن يربني رجل من هوازن.

ومر رجل قرشي بصفوان بن أمية فقال له: أبشر بهزيمة محمد وأصحابه فوالله لا يجبرونها أبداً فزجره أمية وقال: تبشرني بظهور الأعراب؟!

وقال عكرمة بن أبي جهل لهذا الرجل: الأمر ليس بيدك، الأمر بيد الله ليس إلى محمد منه شيء، إن أديل عليه اليوم فإن العاقبة له غداً!! فقال سهيل ابن عمرو: والله إن عهدك بخلافه لحديث، فقال عكرمة: يا أبا يزيد إنا كنا على غير شيء، وعقولنا ذاهبة نعبد حجراً لا يضر ولا ينفع!! وقال ابوسفيان بن حرب: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر. وقد أكذب الله كل هذه الأماني، وكانت العاقبة للرسول ﷺ والمؤمنين.

وكان مبعثها حداثة عهدهم بالإسلام، فلما تمكن الإسلام في قلوبهم كانو خير حملة له.

* نصر الله ومدده للمسلمين

قال تعالى ﴿لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حُنين إذ أعجبتكم كثرتُكُم فلم تُغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رَحُبَت ثم وليتم مدبرين، ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين، ثم يتوب الله من

بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم﴾[1].

* مطاردة العدو المنهزم

لم يثبت المشركون طويلاً في هذه الجولة الثانية من القتال، ففروا في نهاية اليوم مخلفين وراءهم كثيراً من القتلى والأموال[2] وكان الرسول ﷺ قد أمر بتعقب الفارين وجزهم[3] لكسر شوكتهم حتى لا يجتمعوا للحرب مرة أخرى، ولذا عندما فرغ من حنين بعث أبا عامر - عبيد بن سليم بن حضار الأسلمي - على جيش إلى أوطاس[4] لقتال الكفار الذين عليهم دريد بن الصمة، فجالدهم أبوعامر حتى استشهد، وطلب من أبي موسى الأشعري الذي خلفه في القيادة أن يبلغ الرسول ﷺ سلامه، وأن يطلب منه أن يستغفر له، فأكمل الأشعري المهمة وهزم الله على يديه الأعداء، وبلغ رسالة أبي عامر فدعا الرسول ﷺ لأبي عامر[5].

لقد انجلت المعركة عن نصر مبين للمسلمين، ومقتل وجرح عدد كبير من هوازن وثقيف، فقد رُوِي أن قتلى بني مالك من ثقيف قد بلغ سبعين قتيلاً[6].

ولم يقتل من الأحلاف سوى رجلين، أحدهما من بني غيرة والآخر من بني كبة[7] وقتل بأوطاس من بني مالك ثلاثمائة ومعهم دريد بن الصمة، وقتل خلق كثير من بنى نصر بن معاوية ثم من بني رئاب، حيث استحر فيهم القتل

---

(١) سورة التوبة آية ٢٥ - ٢٧.

(٢) السيرة النبوية - ابن هشام ١٨٣/٤ - ١٨٤ بإسناد حسن.

(٣) أخرجه البزار في كشف الأستار ٣٤٩/٢ وقال الهيثمي في المجمع ١٨١/٦ رواه البزار ورجاله ثقات.

(٤) أوطاس: واد في ديار هوازن - كما في معجم البلدان ٢٨١/١.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة أوطاس ١٥٧١/٤ (ح/٤٠٦٨). وأخرجه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي موسى ١٩٤٣/٤ (ح/٢٤٩٨).

(٦) كشف الأستار ٣٤٦/٢ - ٣٤٧، قال الهيثمي في المجمع ١٧٨/٦ رواه البزار، وفيه علي بن عاصم وهو ضعيف لكثرة غلطه وتماديه فيه، وقد وثق، وبقية رجاله ثقات.

(٧) رواه البيهقي في الدلائل ١٣٨/٥ ونسبه إلى البخاري في التاريخ الكبير عن أبي عاصم، وفيه أن من قتل من أهل الطائف يوم حنين مثل من قتل يوم بدر. وأهل الطائف هم ثقيف. وقتلى بدر من المشركين كانوا سبعين كما مرَّ ذلك في مكانه - وذكره ابن إسحاق، معلقاً - ابن هشام ١٣٢/٤ ورواه من طريق الطبري في التاريخ ٧٨/٣ بإسناد معضل، لأن يعقوب بن عتبة من صغار التابعين.

حتى قال عبدالله بن قيس وكان مسلماً: يا رسول الله، هلكت بنو رئاب، فقال رسول الله ﷺ (اللهم اجبر مصيبتهم)(١).

وعندما لجأ المشركون إلى أوطاس ولحق بهم المسلمون، قتل أبوعامر وحده تسعة أخوة منهم قبل أن يستشهد، وقتل أبوموسى الأشعري أخوين من بني جشم بن معاوية(٢). وقتل أبوطلحة وحده يوم حنين عشرين رجلاً من المشركين وأخذ سلبهم لأن رسول الله ﷺ قد أباح سلب المشرك لقاتله(٣).

* أمر الغنائم وكيفية تقسيم رسول الله ﷺ لها

وعاد رسول الله ﷺ إلى الجعرانة. وفيها السبي والغنائم التي أخذت من هوازن في غزوة حنين فقسم السبي هناك. ثم قدم عليه وفد من هوازن مسلمين، وسألوه أن يردَّ إليهم أموالهم وسبيهم، فقال لهم رسول الله ﷺ: (معي من ترون، وأحبُّ الحديث إليَّ أصدقه، فاختاروا إحدى الطائفتين: إما السبي وإما المال، وقد كنت استأنيت بكم - أي أخرت قسم السبي والغنائم أملاً إسلامكم -).

وكان النبي ﷺ قد أنظرهم بضع عشرة ليلة حين رجع من الطائف.

فقالوا: يا رسول الله خيرتنا بين أحسابنا وأموالنا فالحسب أحب إلينا فقام رسول الله ﷺ في المسلمين فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال: (أما بعد فإن إخوانكم قد جاءوا تائبين، وإني رأيت أن أردَّ إليهم سبيهم، فمن أحب منكم أن يطيِّب ذلك فليفعل، ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول ما يفيء علينا فليفعل)(٤).

فنادى الناس جميعاً: قد طيبنا ذلك يا رسول الله. فقال عليه الصلاة والسلام: إنا لا ندري من أذن منكم في ذلك ممن لم يأذن، فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم، فرجع الناس فكلمهم عرفاؤهم، ثم رجعوا إلى رسول الله

(١) السيرة النبوية - ابن هشام ١٣٣/٤. عن ابن اسحاق معلقاً، والطبقات ١٥٢/٢ معلقاً.
(٢) السيرة النبوية - ابن هشام ١٣٣/٤. وابن سعد في الطبقات ١٥٢/٢ معلقاً.
(٣) السيرة النبوية - ابن هشام، بإسناد منقطع ١٤٢/٤.
(٤) أي بأن يرد السبي بشرط عوضه فيما بعد.

ﷺ فأخبروه أنهم قد طيبوا وأذنوا[1] فأعيد إلى هوازن سباياهم. وسأل رسول الله ﷺ وفد هوازن - فيما رواه ابن إسحاق - عن مالك بن عوف ما فعل؟

فقالوا بالطائف مع ثقيف، فقال لهم: (أخبروه أنه إن أتى مسلماً رددت عليه أهله وماله وأعطيته مائة من الإبل) فأخبر مالك بذلك، فجاء يلحق برسول الله ﷺ حتى أدركه فيما بين الجعرانة ومكة، فردَّ عليه أهله وماله وأعطاه مائة من الإبل، وأسلم فحسن إسلامه[2].

وخص النبي ﷺ المؤلفة قلوبهم - وهم أهل مكة - بمزيد من الغنائم والأعطيات يتألف قلوبهم على الإسلام، فوجد بعض الأنصار في نفوسهم من ذلك وقالوا: يغفر الله لرسول الله ﷺ يُعطى قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم![3].

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأرسل إلى الأنصار فاجتمعوا في مكان أعدَّلهم، ولم يدع معهم أحداً غيرهم ثم قام فيهم، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: (يا معشر الأنصار: ما قالة بلغتني عنكم؟ ألم أتكم ضلالاً فهداكم الله بي، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي، وكنتم عالة فأغناكم الله بي).

كلما قال لهم من ذلك شيئاً قالوا بلى، الله ورسوله أمن وأفضل، ثم قال: ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟ قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ولرسوله المن والفضل.

فقال ﷺ : (أما والله لو شئتم لقلتم، فلصَدقتم ولصُدقتم: أتيتنا مكذباً فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فآسيناك) فصاحوا: بل المن علينا لله ورسوله.

ثم تابع رسول الله ﷺ قائلاً: (أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب ويوم حنين ١٥٦٩/٤ (ح/٤٠٦٤) وغيره.

(٢) السيرة النبوية - ابن هشام - ١٨٧/٤ وقال في مجمع الزوائد ١٨٩/٦ رواه الطبراني ورجاله ثقات، وانظر الاصابة ٣٥٢/٣.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب المغازي باب ويوم حنين ١٥٧٤/٤ (ح/٤٠٧٦ - ٤٠٧٩) وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم ٧٣٣/٢ (ح/١٠٥٩).

من أجل لعاعة(١) من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم! ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعون برسول الله إلى رحالكم؟ فوالله لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به. والذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار، وإن سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً، لسلكت شعب الأنصار، وإنكم ستلقون أثرة من بعدي فاصبروا حتى تلقوني على الحوض، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار).

فبكى القوم حتى اخضلت لحاهم، وقالوا رضينا بالله ورسوله قسماً ونصيباً(٢).

وتبعه ﷺ ناس من الأعراب يسألونه مزيداً من العطاء، حتى اضطروه إلى سمرة تعلق بها رداؤه، فالتفت إليهم قائلاً: (أعطوني ردائي أيها الناس فوالله أن لو كان لكم بعدد شجر تهامة نعماً لقسمته عليكم، ثم لا تجدونني بخيلاً ولا كذوباً ولا جبانا(٣) أيها الناس والله مالي من فيئكم إلا الخمس والخمس مردود عليكم)(٤).

وأدركه أعرابي فجذب الرسول ﷺ جذبة شديدة من برده، وكان عليه برد نجراني غليظ، حتى أثرت حاشية الرداء في صفحة عنقه وقال له، مُر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه فضحك، ثم أمر له بعطاء(٥).

قال ابن إسحاق: ثم خرج رسول الله ﷺ من الجعرانة معتمراً فلما فرغ، انصرف راجعاً إلى المدينة، واستخلف على مكة عتاب بن أسيد.

---

(١) اللعاعة: بقلة خضراء تستهوي العين، شبه بها الدنيا..

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة الطائف ١٥٧٤/٤ (ح/٤٠٧٥) وأخرجه مسلم – وتقدم في الذي قبله – .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد، باب الشجاعة في الحرب ١٠٣٨/٣ (ح/٢٦٦٦).

(٤) أخرجه أبوداود ١٤٢/٣ (ح/٢٦٩٤) وأحمد ١٨٤/٢، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٨٧/٦ – ١٨٨ ورجال أحمد ثقات.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الخمس، باب ما كان النبي ﷺ يعطي المؤلفة قلوبهم ١١٤٨/٣ (ح/٢٩٨٠).

* الدروس والعبـر

أولاً : يبتعد المؤمن عن الكبر والإعجاب بالنفس، فإن مرض النفس بالإعجاب قاتل لها، فلا يُغتر بكثرة العَدد والعُدد.

ثانياً: يهتم المسلمون بتربية من يدخل الإسلام على العلم والتطبيق، لأنه إن ترك فإنه يكون سبباً في خلل الصف المسلم، وداعية إلى الهزيمة وعدم الثبات الذي يحتاجه الإسلام في مواجهة أعدائه.

ثالثاً: يثبت في ميدان الجهاد ويلبى داعي الله من تربى في أحضان الإسلام وتطبيقاته، فهم القاعدة الصلبة التي يقف عليها الإسلام في مواجهته لأعدائه، يضحون بأنفسهم في سبيله.

رابعاً: يعلم المسلم أنّ وعد الله تعالى لهذه الأمة بالنصر والتمكين إذا تمسكت بدينها تصوراً وتطبيقاً، ولم يعدها بذلك إذا كثر عددها أو عُددها. فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله.

خامساً: يجب الاهتمام بالإيمان الحق، وبمتطلبات الإيمان العملية والقولية وتربية الأجيال على ذلك فهو ضمانة الاستمرار لهذه الأمة.

سادساً: تتميز هذه الأمة بتصورها القائم على التوحيد المطلق لله تعالى، فلا تُقلد الانحراف في أي جانب من جوانبه الإعتقادية أو التشريعية.

سابعاً: يعلم المؤمن أن أشجع الناس هو رسول الله ﷺ، فهو النبي لا كذب هو ابن عبدالمطلب.

ثامناً: يعالج المؤمن حالات الضعف أو الخطأ بالإيمان وإثارته في النفوس فهو العلاج الناجح لكل أمراض النفوس إذا دخلت بشاشته القلوب واستقر فيها.

غزوة تبوك (العُسرة)

* تسميتها

وقد سمّاها النبي ﷺ تبوكاً.

عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (... إنكم ستأتون غداً إن شاء الله عين تبوك، وإنكم لن تأتوها حتى يضحى النهار، فمن جاءها منكم فلا يمس من مائها شيئاً حتى آتي)[1].

ووصفها الله بأنها غزوة العسرة لما حصل فيها من ضيق النفقة، وشدة المشقة.

قال تعالى ﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة.. الآية ﴾[2].

فتكون التسمية بتبوك للمكان الذي كانت فيه، والتسمية بالعُسرة بالحال الذي كان عليه المسلمون – والله أعلم –.

* تاريخ الغزوة :

قال ابن حجر رحمه الله:

«.. غزوة تبوك كانت في شهر رجب سنة تسع قبل حجة الوداع بلا خلاف»[3].

* سبب الغزوة

رسالة الإسلام إلى الناس كافة، وعلى المسلمين أن يبلغوا تلك الرسالة حتى تُقام حجة الله على الخلق، والناس بعد تبليغهم أحرار في اختيار الدين الذي يريدون (لا إكراه في الدين). لذا كان الجهاد في إيصال تلك الدعوة إلى

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب في معجزات النبي ﷺ ١٧٨٤/٤ (ح/٧٠٦).
(٢) سورة التوبة آية ١١٧.
(٣) فتح الباري ١١١/٧.

الناس، فإذا وضعت الموانع والحواجز بين الناس وبين حرية الاختيار، وجب على المسلمين أن يزيلوا تلك الموانع والحواجز ليحرروا الإنسان فيختار.

لذا كان الجهاد تحريراً للإنسان وإعادة لإنسانيته التي يريد أصحاب الحواجز مصادرتها - كما تقدم سابقاً -

قال ابن كثير رحمه الله[1]:

فعزم رسول الله ﷺ على قتال الروم، لأنهم أقرب الناس إليه، وأولى الناس بالدعوة إلى الحق لقربهم إلى الإسلام وأهله، وقد قال تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين ﴾[2].

* بيان المقصد

كان من سنته ﷺ في غزواته وفي السرايا التي يبعثها أن يكتم الجهة التي ينطلق إليها، إلا غزوة تبوك فإنه أعلم الناس بها[3]. وذلك لأن الظروف المحيطة بهذه الغزوة اقتضت هذا الإعلان.

فقد كانت الأجواء حارة جداً في فصل الصيف، والسفر في الصحراء وبين الجبال، يحتاج إلى عزيمة وصبر، وقدرة على التحمل.

وكانت الثمار قد أينعت وحان قطافها، والمزارع مرتبط بزرعه وثمره وأرضه، يصعب عليه أن يُفارقه وقد رأى مظاهر النضج بادية عليه.

والعدو قوي يملك العدد الكبير، والعُدد الكثيرة فهو دولة كبيرة واضحة.

* دعوة النبي ﷺ للإنفاق

حث النبي ﷺ على الإنفاق على جيش المسلمين، فكانت صور العطاء والبذل والإنفاق في أعلى درجاتها. إليك أمثلة منها:

---

(١) البداية والنهاية ٣/٥ وتفسير القرآن ٩٨/٥.

(٢) سورة التوبة آية ١٢٣.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب حديث كعب بن مالك ١٦٠٣/٤ (ح/٤١٥٦).

- قال ﷺ (من جهز جيش العسرة فله الجنة)[1].

فجهزه عثمان بن عفان رضي الله عنه، وكان مقدار ذلك ألف دينار، فلما وضعها بين يدي النبي ﷺ قال (ما ضرّ ابن عفان ما عمل بعد اليوم)[2].

- شارك الجميع في الإنفاق حتى إن أبا عقيل تصدق بنصف صاع من تمر، وجاء آخر بأكثر منه[3].

*** النفقة تُؤخر الركب**

لم تتوفر النفقة لبعض الصحابة فكانت سبباً في عدم مشاركتهم في الغزوة.

- جاء البكاؤون إلى النبي ﷺ يطلبون منه ما يخرجون عليه في هذه الغزوة، فلم يجد ما يحملهم عليه.

- وطلب الأشعريون فلم يجدوا ما يطلبون، إلا أن النبي ﷺ في آخر الأمر أعطاهم بعض الإبل بعد توفرها من الصدقات[4].

وفي هؤلاء وأمثالهم نزل قوله تعالى: ﴿ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حَرَجٌ إذا نصحوا لله ورسوله ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم، ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قُلتَ لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حَزَناً ألا يجدو ما ينفقون﴾[5].

وهؤلاء الذين تخلفوا بعذر في المدينة، قال فيهم رسول الله ﷺ ما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ رجع من غزوة تبوك فقال: (إن بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيراً، ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم)

(١) أخرجه البخاري، كتاب الوصايا، باب إذا وقف أرضاً ١٠٢١/٣ (ح/٢٦٢٦).
(٢) أخرجه أحمد في المسند ٦٣/٥ وسنده حسن، والحاكم في المستدرك ١٠٢/٣ وصححه ووافقه الذهبي.
(٣) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب الذين يلمزون المطوعين ١٧١٥/٤ (ح/٤٣٩١) وأخرجه مسلم، كتاب الزكاة، باب الحمل بأجرة يتصدق بها ٧٠٦/٢ (ح/١٠١٨).
(٤) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة تبوك ١٦٠٢/٤ (ح/٤١٥٣).
(٥) سورة التوبة آيات ٩١ - ٩٢، وانظر القصة في المسند ٣٩٨/٤ بسند صحيح.

قالوا يا رسول الله، وهم بالمدينة، قال: (وهم بالمدينة، حبسهم العذر)[1].

* إعلان النفير في المدينة

استجاب المؤمنون لنداء الجهاد، فسارعوا بالتوجه مع رسول الله ﷺ طلباً لأجر الجهاد، واستجابة لنداء رب العباد، قال تعالى: ﴿انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلك خير لكم إن كنتم تعلمون﴾[2].

فهم لا يفرحون بالدنيا وظلالها ونعيمها، بل يؤثرون الآخرة عليها وما عند الله خير وأبقى، وهذا دأب المؤمن فى كل حين، بخلاف المنافق الذى يصدق فيه قول الله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفرُوا في سبيل الله اثَّاقَلْتُمْ إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاعُ الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك ولكن بَعُدَتْ عليهم الشُقّةُ وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يُهلِكُونَ أنفُسَهُم والله يعلم إنهم لكاذبون﴾[4].

* طلب النبي ﷺ من علي أن يخلفه في أهله

فعن مصعب بن سعد عن أبيه أن رسول الله ﷺ خرج إلى تبوك واستخلف علياً، فقال: أتخلفني في الصبيان والنساء؟

قال: (ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه ليس نبي بعدي)[5].

* متأخر يلحق بالركب

وهذا أبوخيثمة الأنصاري يقول: تخلفت عن رسول الله ﷺ فدخلت

(١) أخرجه البخارى، كتاب المغازي، باب نزول النبي ﷺ الحجر ١٦١٠/٤ (ح/٤١٦١).

(٢) سورة التوبة آية ٤١.

(٣) سورة التوبة آية ٣٨.

(٤) سورة التوبة آية ٤٢.

(٥) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة تبوك ١٦٠٢/٤ (ح/٤١٥٤) وأخرجه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل علي رضي الله عنه ١٨٧٠/٤ (ح/٢٤٠٤).

حائطاً، فرأيت عريشاً قد رُشَّ بالماء، ورأيت زوجتيّ، فقلت: ما هذا بإنصاف رسول الله ﷺ في السموم والحرور وأنا في الظل والنعيم، فقمت إلى ناضح لي، وتمرات فخرجت، فلما طلعت على العسكر فرآني الناس.

قال النبي ﷺ (كن أبا خيثمة فجئت، فدعا لي)[1].

*** الوصول إلى تبوك**

ووصل النبي ﷺ إلى تبوك، ولم يقع قتال مع الروم، فلم يلق المسلمون الروم، ولا القبائل العربية المساندة لهم من المتنصرين، وآثر آخرون الصلح على الجزية، وقد مكث النبي ﷺ عشرين ليلة في تبوك [2]. ثم عاد إلى المدينة.

*** دور المنافقين في غزوة تبوك**

لقد أعلن المنافقون عن معارضتهم، وأبانوا عن موقفهم في هذه الغزوة أكثر من أي موقف من المواقف الماضية، إذ كانوا يتخفون ويدارون ويتأولون. لذا كانت المواقف واضحة بينة.

فقد مارسوا ما يأتي

- الحرب النفسية ضد الإعداد للغزوة

لقد ثبطوا الهمم بأن الجو شديد الحرارة، والطريق طويلة.

قال تعالى **﴿ ... وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشدُّ حراً لو كانوا يفقهون ﴾**[3].

وقاموا بلمز المنفقين في سبيل الله، فمن كان تبرعه وصدقته قليلة قالوا: إن الله لغني عن صدقة هذا. ومن كانت صدقته وتبرعه كبيراً قالوا: ما جاء بهذا إلا رياء.

قال تعالى: **﴿الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات**

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب التوبة، باب حديث توبة كعب ٢١٢٢/٤ (ح/٢٧٦٩).

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٢٩٥/٣، والبيهقي في السنن ١٥٢/٣ ورجاله ثقات.

(٣) سورة التوبة آية ٨١.

والذين لا يجدون إلا جُهْدَهُم فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب اليم ﴾[1].

وأخذوا يتقاعسون ويترددون ويطلبون الإذن بكل عذر وأمام كل مسمى.

قال تعالى: ﴿ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾[2].

وقد عاتب الله نبيه على قبول أعذار المتخلفين منهم فقال تعالى ﴿عفا الله عنك لِمَ أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين ﴾[3].

وقد ذكر تخلف المنافقين في المدينة كعب بن مالك رضي الله عنه في قصة تخلفه فقال: «.. فكنت إذا خرجت في الناس ... أحزنني أني لا أرى إلا رجلاً مغموصاً بنفاق، أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء»[4].

- استهزاؤهم بالرسول ﷺ والمؤمنين

عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رجلاً قال في مجلس في غزوة تبوك: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء، أرغب بطوناً، ولا أكذب السناً، ولا أجبن عند اللقاء. فقال رجل في المجلس: كذبت، ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله ﷺ فبلغ ذلك النبي ﷺ ونزل القرآن، قال ابن عمر: فأنا رأيته متعلقاً بحقب ناقة رسول الله ﷺ تنكبه الحجارة، وهو يقول: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب، ورسول الله ﷺ يقول: (أبالله وأياته ورسوله كنتم تستهزئون، لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم).

ويقول الله تعالى تعقيباً على ما صدر من هذا الرجل ﴿ولئن سألتهم ليقولُن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله و آياته ورسوله كنتم تستهزئون، لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم إن نعف عن طائفة منكم نُعَذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين ﴾[5].

---

(١) سورة التوبة آية ٧٩.
(٢) سورة التوبة آية ٤٩.
(٣) سورة التوبة آية ٤٣.
(٤) سيأتي ذكر الحديث وتخريجه بعد قليل.
(٥) سورة التوبة آيات ٦٥ – ٦٦.

إن أصح ما روي في تفسير هذه الآية أن الذي عُفِيَ عنه هو محشي بن حمير الأشجعي، وذلك أنه أنكر منهم بعض ما سمع[1].

* وفي الطريق معجزة

شكا الصحابة رضى الله عنهم إلى النبي ﷺ ما برواحلهم من جهد فأمر أن يمروا بها عليه عند مكان ضيق، فأخذ ينفخها ويقول: (اللهم احمل عليها في سبيلك إنك تحمل على القوي والضعيف وعلى الرطب واليابس في البر والحر)، فما بلغوا المدينة حتى جعلت تنازعهم أزمتها، فقال الراوي فضالة ابن عبيد الأنصاري: هذه دعوة النبي ﷺ على القوي والضعيف، فما بال الرطب واليابس فلما قدمنا الشام غزونا غزوة قبرص في البحر، فلما رأينا السفن في البحر وما يدخل فيها عرفت دعوة النبي ﷺ[2].

* محاولة المنافقين اغتيال النبي ﷺ

وفى طريق العودة إلى المدينة حاول المنافقون الإعتداء على النبى ﷺ

عن أبى الطفيل رضى الله عنه قال: لما أقبل رسول الله من غزوة تبوك أمر منادياً فنادى (إن رسول الله آخذ بالعقبة فلا يأخذها أحد).

فبينما رسول الله ﷺ يقوده حذيفة ويسوقه عمار، إذ أقبل رهط متلثمون على الرواحل، فغشوا عماراً، وهو يسوق برسول الله ﷺ، وأقبل عمار يضرب وجوه الرواحل، فقال رسول الله ﷺ لحذيفة (قد ، قد) حتى هبط رسول الله ﷺ من الوادي، فلما هبط ورجع عمار قال (يا عمار هل عرفت القوم؟) قال قد عرفت عامة الرواحل، والقوم ملثمون.

فقال هل تدرى ما أرادوا؟ قال الله ورسوله أعلم قال (أرادوا أن ينفروا برسول الله ويطرحوه)[3].

---

(١) أخرجه ابن أبى حاتم ٤/٦٤، انظر صحيح السيرة، للعلي/٤٨١.

(٢) أخرجه أحمد فى المسند ٦/٢٠ وسنده جيد.

(٣) أخرجه أحمد فى المسند ٥/٤٥٣ ورجاله ثقات، قال الهيثمي فى مجمع الزوائد ٦/١٩٥ رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

* العودة إلى المدينة

وبعد تلك المدة التي قضاها النبي ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم في تبوك قرر العودة إلى المدينة المنورة.

ولما اقترب الجيش في عودته من المدينة خرج الصبيان إلى ثنية الوداع يتلقونه، ويقولون:

طلع البدر علينا   من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا   ما دعا لله داع[(١)]

ودخل النبي ﷺ إلى المدينة، فقصد المسجد فصلى فيه ركعتين، ثم جلس للناس.

* ومسجد الضرار موقف

لقد بنى المنافقون مسجداً قبل غزوة تبوك ليجتمعوا فيه مكايدة للمسلمين ومضرة بهم، وزعموا أنهم بنوه للتوسعة على المسلمين، ولمنفعتهم.

وقد أرادوا به أن يكون مكاناً يتآمرون فيه بعيداً عن أعين المسلمين وتفريقاً لجماعة المسلمين.

وطلبوا من رسول الله ﷺ أن يأتي إلى المسجد فيصلي فيه فوعدهم النبي ﷺ مرجعه من تبوك.

وعند عودته نزل عليه قوله تعالى فيه:

﴿ والذين اتخذوا مسجداً ضِراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل وليَحلِفُنَّ إن أردنا إلا الحُسنى والله يشهد إنهم لكاذبون، لا تَقُمْ فيه أبداً لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحقُّ أن تقوم فيه فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يُحب المُطَّهرين ﴾[(٢)].

فلما نزل عليه ذلك، أرسل من يُحرقه ويُزيله.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب كتاب النبي ﷺ إلى كسرى ١٦١٠/٤ (ح/٤١٦٤) ولم يذكر الأبيات، ورجح ابن حجر أنها قيلت في استقباله مرجعه من غزوة تبوك، انظر فتح الباري ١٩١/٦.

(٢) سورة التوبة آيات ١٠٧ – ١٠٨.

* المتخلفون عن غزوة تبوك

وقصة التخلف يرويها أحد المتخلفين وهو كعب بن مالك رضي الله عنه أوردها كما جاءت عنه، فهي أتم عبرة، وأقوى عبارة.

قال ابن شهاب: فأخبرني عبدالرحمن بن عبدالله بن كعب بن مالك، أن عبدالله بن كعب كان قائد كعب من بنيه، حين عمي. قال: سمعت كعب بن مالك يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، قال كعب بن مالك: لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها قط، إلا في غزوة تبوك غير أني قد تخلفت في غزوة بدر، ولم يعاتب أحداً تخلف عنه، إنما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون عير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم، على غير ميعاد، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة[1]، حين تواثقنا على الإسلام[2]، وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر اذكر[3] في الناس منها، وكان من خبري حين تخلفت عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزوة.

والله! ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة، فغزاها رسول الله ﷺ في حر شديد. واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً[4]، واستقبل عدواً كثيراً، فَجَلا للمسلمين امرهم[5] ليتأهبوا أُهْبَةَ غزوهم[6] فأخبرهم بوجههم[7] الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير، ولا يجمعهم كتاب حافظ (يريد بذلك، الديوان) قال كعب: فقلَّ رجل يريد أن يتغيب[8]، إلا يظن أن ذلك

---

(١) (ليلة العقبة) هي الليلة التى بايع رسول الله ﷺ الانصار فيها على الإسلام. وان يؤووه وينصروه. وهى العقبة التى فى طرف منى، التى يضاف إليها جمرة العقبة. وكانت بيعة العقبة مرتين فى سنتين. فى السنة الأولى كانوا اثني عشر، وفى الثانية سبعين. كلهم من الأنصار رضى الله عنهم.

(٢) (تواثقنا على الإسلام) اى تبايعنا عليه وتعاهدنا.

(٣) (وإن كانت بدر اذكر) اى اشهر عند الناس بالفضيلة.

(٤) (ومفازاً) اي برية طويلة قليلة الماء، يخاف فيها الهلاك.

(٥) (فجلا للمسلمين امرهم) اى كشفه وبينه واوضحه، وعرّفهم ذلك على وجهه من غير تورية. يقال: جلوت الشيء كشفته.

(٦) (ليتاهبوا اهبة غزوهم) اى ليستعدوا بما يحتاجون إليه فى سفرهم ذلك.

(٧) (فاخبرهم بوجههم) اى بمقصدهم.

(٨) (فقل رجل يريد ان يتغيب ... الخ) قال القاضي: هكذا هو فى جميع نسخ مسلم. وصوابه: إلاّ يظن ان ذلك سيخفى له. بزيادة إلا، وكذا رواه البخاريّ.

سيخفى له، ما لم ينزل فيه وحي من الله عز وجل. وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال، فأنا إليها أصعر[١]. فتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه، وطفقت أغدو لكي أتجهز معهم، فأرجع ولم أقض شيئاً، وأقول في نفسي: أنا قادر على ذلك، إذا أردت. فلم يزل ذلك يتمادي بي حتى استمر بالناس الجد، فأصبح رسول الله ﷺ غادياً والمسلمون معه، ولم أقض من جهازي شيئاً، ثم غدوت فرجعت ولم أَقْضِ شيئاً، فلم يزل ذلك يتمادي بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو[٢]. فهممت أن أرتحل فأدركهم، فياليتني فعلت، ثم لم يُقَدَّرْ ذلك لي، فطفقت إذا خرجت في الناس، بعد خروج رسول الله ﷺ يحزنني أني لا أرى لى أسوة، إلا رجلاً مغموصاً عليه في النفاق[٣]. أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء، ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوكاً[٤] فقال: وهو جالس في القوم بتبوك (ما فعل كعب بن مالك؟) قال رجل من بني سلمة: يا رسول الله حبسه برداه والنظر في عِطْفَيْه[٥]. فقال له معاذ بن جبل بئس ما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً، فسكت رسول الله ﷺ. فبينما هو على ذلك رأى رجلاً مُبَيِّضاً[٦] يزول به السراب[٧] فقال رسول الله ﷺ (كن أبا خيثمة[٨])، فإذا هو أبوخيثمة الأنصاري، وهو الذي تصدق بصاع التمرحين لمزه المنافقون[٩].

---

(١) (فأنا إليها أصعر) أى أمْيَل.

(٢) (وتفارط الغزو) أى تقدم الغزاة وسبقوا وفاتوا.

(٣) (مغموصاً عليه في النفاق) أى مُتَّهمًا به.

(٤) (وحتى بلغ تبوكاً) هو فى أكثر النسخ: تبوكاً، بالنصب، وكذا هو فى نسخ البخاريّ. وكأنه صرفها لإرادة الموقع، دون البقعة.

(٥) (والنظر فى عطفيه) أى جانبيه. وهو إشارة إلى إعجابه بنفسه ولباسه.

(٦) (مبيِّضاً) هو لابس البياض. ويقال: هم المبيِّضة والمسوِّدة، أى لابسو البياض والسواد.

(٧) (يزول به السراب) أى يتحرك وينهض. والسراب هو ما يظهر للإنسان فى الهواجر، فى البرارى، كأنه ماء.

(٨) (كن أبا خيثمة) قيل: معناه أنت أبوخيثمة. قال ثعلب: العرب تقول: كن زيدا، أى أنت زيد. قال القاضى عياض: والأشبه عندى أن كن هنا للتحقق والوجود. أى لتوجد، يا هذا الشخص أباخيثمة حقيقة. وهذا الذى قاله القاضى هو الصواب. وهو معنى قول صاحب التحرير تقديره اللهم اجعله أبا خيثمة.

(٩) (لمزه المنافقون) أى عابوه واحتقروه.

فقال كعب بن مالك فلما بلغني أن رسول الله ﷺ قد توجه قافلاً[١] من تبوك حضرني بثي[٢]. فطفقت أتذكر الكذب وأقول: بم أخرج من سخطه غداً؟ وأستعين على ذلك كل ذي رأي من أهلي، فلما قيل لي: إن رسول الله ﷺ قد أظلَّ قادماً[٣]، زاح[٤] عني الباطل، حتى عرفت أني لن أنجو منه بشيء أبداً فأجمعت صدقه[٥]. وصَبَّحَ رسول الله ﷺ قادماً، وكان إذا قدم من سفر، بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه، ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً، فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله حتى جئت فلما سلمت، تبسَّمَ تبسُّمَ المغْضب ثم قال: (تعال) فجئت أمشي حتى جلست بين يديه، فقال لي (ما خلفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟) قال قلت: يا رسول الله، إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا، لرأيتُ أني سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أعطيت جَدَلاً[٦]. ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني، ليُوشِكَنَّ[٧] الله أن يُسخطك علي ولئن حدثتك حديث صدق تجد علي فيه[٨]، إني لأرجو فيه عُقبى الله[٩]. والله ما كان لي عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك. قال رسول الله ﷺ (أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضي الله فيك) فقمت، وثار رجال من بني سلمة فاتبعوني، فقالوا لي والله ما علمناك أذنبت ذنباً قبل هذا لقد عجزت في أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر منه المخلفون، فقد كان كافيك ذنبك، استغفار رسول الله ﷺ لك.

---

(١) (توجه قافلاً) أى راجعاً.
(٢) (حضرنى بثى) هو أشد الحزن.
(٣) (أظل قادماً) أى أقبل ودنا قدومه كأنه ألقى عليَّ ظلَّه.
(٤) (زاح) أى زال.
(٥) (فأجمعت صدقه) أى عزمت عليه. يقال: أجمع أمره وعلى أمره، وعزم عليه، بمعنى واحد.
(٦) (أعطيت جدلاً) أى فصاحة وقوة فى الكلام وبراعة، بحيث أخرج عن عهدة ما ينسب إلىَّ، إذا أردت.
(٧) (ليوشكن) أى ليسرعن.
(٨) (تجد علىَّ فيه) أى تغضب.
(٩) (إنى لأرجو فيه عقبى الله) أى أن يعقبنى خيراً، وأن يثيبنى عليه.

قال: فوالله مازالوا يؤنبونني[١] حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله ﷺ فأكذب نفسي قال ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي من أحد؟ قالوا: نعم، لقيه معك رجلان، قالا مثل ما قلت، فقيل لهما مثل ما قيل لك، قال قلت: من هما؟ قالوا: مرارة بن ربيعة العامري[٢]، وهلال بن أمية الواقفي، قال فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدراً فيهما أسوة، قال فمضيت حين ذكروهما لي.

قال ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة[٣]، من بين من تخلف عنه، قال: فاجتنبنا الناس، وقال: تغيروا لنا حتى تنكرت لي في نفسي الأرض، فما هي بالأرض التي أعرف[٤]. فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباي فاستكانا[٥] وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم[٦]. فكنت أخرج فأشهد الصلاة وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه، وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرك شفتيه برد السلام، أم لا؟ ثم أصلي قريباً منه وأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إليَّ وإذا التفت نحوه أعرض عني، حتى إذا طال ذلك عليَّ من جفوة المسلمين، مشيت حتى تسورت[٧] جدار حائط أبي قتادة، وهو ابن عمي، وأحب الناس إليَّ فسلمت عليه، فوالله ما ردَّ عليَّ السلام فقلت له: يا أبا قتادة أنشدك بالله[٨]! هل تعلمن أني أحب الله ورسوله؟ قال فسكت، فعدت فناشدته فسكت فعدت فناشدته، فقال: الله ورسوله أعلم ففاضت عيناي، وتوليت حتى تسورت الجدار.

---

(١) (يؤنبوننى) اى يلوموننى اشد اللوم.

(٢) (العامرى) هكذا هو فى جميع نسخ مسلم: العامرىّ. وأنكره العلماء وقالوا: هو غلط إنما صوابه العَمْرىّ. من بنى عمرو بن عوف. وكذا ذكره البخارىّ. وكذا نسبه محمد بن إسحق وابن عبدالبر، وغيرهما من الائمة. قال القاضى: هو الصواب.

(٣) (ايها الثلاثةُ) قال القاضى: هو بالرفع، وموضعه نصب على الاختصاص، قال سيبويه، نقلا عن العرب: اللهم اغفر لنا، ايَّها العصابة، وهذا مثله.

(٤) (فما هى بالأرض التى اعرف) معناه: تغيَّر علىَّ كل شىء. حتى الأرض، فإنها توحشت علىَّ وصارت كانها ارض لم اعرفها، بتوحشها علىَّ.

(٥) (فاستكانا) اى خضعا.

(٦) (اشب القومَ وأجلدهم) اى اصغرهم سنا وأقواهم.

(٧) (حتى تسورت) معنى تسورته علوته وصعدت سوره، وهو أعلاه.

(٨) (انشدك بالله) اى اسالك بالله، وأصله من النشيد، وهو الصوت.

فبينا أنا أمشي في سوق المدينة، إذا نبطيٌ من نبط أهل الشام[١]، ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدل على كعب بن مالك، قال فطفق الناس يشيرون له إليّ حتى جاءني فدفع إليّ كتاباً من ملك غسان، وكنت كاتباً فقرأته فإذا فيه: أما بعد، فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك. ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة[٢]. فالحق بنا نواسك[٣]. قال فقلت حين قرأتها: وهذه أيضاً من البلاء، فتيامت[٤] بها التنور فسجرتها[٥] بها، حتى إذا مضت أربعون من الخمسين، واستلبث الوحي[٦]، إذا رسول رسول الله ﷺ يأتيني فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك، قال فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: لا بل اعتزلها، فلا تقربنها، قال فأرسل إلى صاحبي بمثل ذلك، قال فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر، قال فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت له: يا رسول الله: إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ قال: (لا، ولكن لا يقربنك) فقالت: إنه. والله ما به حركة إلى شيء، والله مازال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا. قال فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك؟ فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه، قال فقلت: لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ،وما يدريني ماذا يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها، وأنا رجل شاب، قال فلبثت بذلك عشر ليال، فكمل لنا خمسون ليلة من حيث نُهي عن كلامنا، قال ثم صليت صلاة الفجر صباح خمسين ليلة، على ظهر بيت من بيوتنا، فبينا أنا جالس على الحال الذي ذكر الله عزوجل منا، قد ضاقت عليّ نفسي وضاقت عليّ الأرض بما رحبت[١]، سمعت صوت

---

(١) (نبطى من نبط أهل الشام) يقال: النبط والأنباط والنبيط، وهم فلاحو العجم.

(٢) (مضيعة) فيها لغتان: إحداهما مَضِيعة، والثانية مَضْيَعة، اى موضع وحال يضيع فيه حقك.

(٣) (نواسك) وفى بعض النسخ: نواسيك، بزيادة ياء. وهو صحيح، اى ونحن نواسيك، وقطعه عن جواب الأمر. ومعناه نشاركك فيما عندنا.

(٤) (فتيامت) هكذا هو فى جميع النسخ ببلادنا، وهى لغة فى تيممت. ومعناها قصدت.

(٥) (فسجرتها) اى احرقتها. وانث الضمير لانه اراد معنى الكتاب، وهو الصحيفة.

(٦) (واستلبث الوحى) اى ابطأ.

صارخ أوفى على سلع[٢] يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك. أبشر، قال فخررت ساجداً وعرفت أن قد جاء الفرج.

قال فآذن رسول الله ﷺ الناس[٣] بتوبة الله علينا، حين صلى صلاة الفجر فذهب الناس يبشروننا فذهب قبل صاحبي مبشرون، وركض رجل إليَّ فرساً، وسعى ساع من أسلم قبلي، وأوفى الجبل، فكان الصوت أسرع من الفرس، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني فنزعت له ثوبيَّ فكسوتهما إياه ببشارته، والله ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما فانطلقت أتامم[٤] رسول الله ﷺ يتلقاني الناس فوجاً فوجاً[٥]، يهنئوني بالتوبة ويقولون: لتهنك توبة الله عليك، حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله ﷺ جالس في المسجد، وحوله الناس، فقام طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنأني والله ما قام رجل من المهاجرين غيره.

قال فكان كعب لا ينساها لطلحة.

قال كعب: فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال، وهو يبرق وجهه من السرور ويقول (أبشر بخير يوم مرَّ عليك منذ ولدتك أمك) قال فقلت: أمن عندك؟ يا رسول الله أم من عند الله؟ فقال: (لا بل من عند الله)، وكان رسول الله إذا سُرَّ استنار وجهه، كأن وجهه قطعة قمر، قال وكنا نعرف ذلك.

قال فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله ﷺ فقال رسول الله ﷺ (امسك بعض مالك، فهو خير لك) قال فقلت: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر، قال وقلت: يا رسول الله إن الله إنما أنجاني بالصدق، وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقاً ما بقيت، قال فوالله ما علمت أن أحداً من المسلمين أبلاه الله في صدق

---

(١) (وضاقت عليَّ الأرض بما رحبت) أى بما اتسعت. ومعناه: ضاقت عليَّ الأرض مع أنها متسعة. والرحب السعة.

(٢) (أوفى على سلع) أى صعده وارتفع عليه. وسلْع جبل بالمدينة معروف.

(٣) (فآذن .. الناس) أى أعلمهم.

(٤) (أتامم) أى أقصد.

(٥) (فوجاً فوجاً) الفوج الجماعة.

الحديث، منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا، أحسن مما أبلاني الله به، والله ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي.

قال: فأنزل الله عزوجل: ﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العُسرة من بعدما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم، وعلى الثلاثة الذين خُلِّفُوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحُبت وضاقت عليهم انفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم، يا أيها الذين آمنوا اتقو الله وكونوا مع الصادقين﴾[1].

قال كعب: والله ما أنعم الله عليّ من نعمة قط، بعد إذ هداني الله للإسلام أعظم في نفسي، من صدقي رسول الله ﷺ أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا. إن الله قال: للذين كذبوا حين انزل الوحي شر ما قال لأحد، قال الله ﴿سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتُعرضوا عنهم فاعرضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاءً بما كانوا يكسبون، يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين﴾[2].

قال كعب: كنا خلفنا أيها الثلاثة، عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه، فبذلك قال الله عزوجل: (وعلى الثلاثة الذين خلفوا) وليس الذي ذكر الله مما خلفنا تخلفنا عن الغزو، وإنما هو تخليفه إيانا، وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه[3].

---

(١) سورة التوبة آيات ١١٧ – ١١٩.

(٢) سورة التوبة آيات ٩٥ – ٩٦.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب حديث كعب ١٦٠٣/٤ (ح/٤١٥٦) وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه ٢١٢٠/٤ (ح/٢٧٦٩) واللفظ له والتعليقات لمحمد فؤاد عبدالباقي بموضعه من صحيح مسلم.

* **الدروس والعبـر**

أولاً : يجاهد المؤمن أعداء الله ويقاتلهم حتى تكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، فإما الإسلام وإما الجزية والخضوع لنُظم المجتمع المسلم.

ثانياً: يوصل المؤمن دعوته إلى الناس جميعاً، ويحررهم من الحواجز والموانع التي تحول بينهم وبين دعوة الله.

ثالثاً: يعمل المؤمن أن تكون الأرض لله، وأن يكون البشر عبيداً لله وحده، لا عبيداً لأمثالهم من البشر من الطواغيت.

رابعاً: يبدأ المؤمن بجهاد من يليه من الكفار فيدعوهم إلى الإسلام أو الجزية أو يقاتلهم حتى يحكم الله بينه وبينهم.

خامساً: ينفق المؤمن في سبيل دعوته ودينه، لأن الدعوات وإن توفر لها الرجال لحملها فلابد من توفر المال والنفقة حتى تبلغ متطلباتها وتتحقق أهدافها، فالمال هو عصب الحياة.

سادساً: يُرسخ المؤمن تربيته على الإيمان بالله ورسوله ﷺ لتعطي تلك التربية أثراً ومردوداً طيباً في نفسه وممارسته في الحياة.

سابعاً: يصدق المؤمن ولا يكذب، فإن وقع في خطيئة تاب إلى الله ورجع إليه ليغفر له ذنبه، ويطلب منه التجاوز عن سيئاته، فهو الغفور التواب الرحيم.

ثامناً: يصبر المؤمن على الأذى والابتلاء إذا نزل به فلا يجزع ولا يحزن وذلك دليل على ثباته وعدم تأثره بالتيارات القوية مهما كان مصدرها.

تاسعاً: يطمع الكافرون في إيمان المؤمن، ويستغلون الفرص في إغوائه ويبذلون الجهود في جره إلى صفوفهم.

عاشراً: يطيع المؤمن الأوامر التي تتوجه إليه ويلتزم بها فلا يتجاوز ولا يحتال بل ينفذ طلباً للأجر من الله تعالى.

الحادي عشر: يبتعد المؤمن عن الكافرين ويهرب منهم فكراً وممارسة فهو متميز في كل شيء عنهم. وإذا رأى تقربهم إليه فليعلم أنها فتنة تريده فعليه الابتعاد عنها وعن أهلها وليحذر منها.

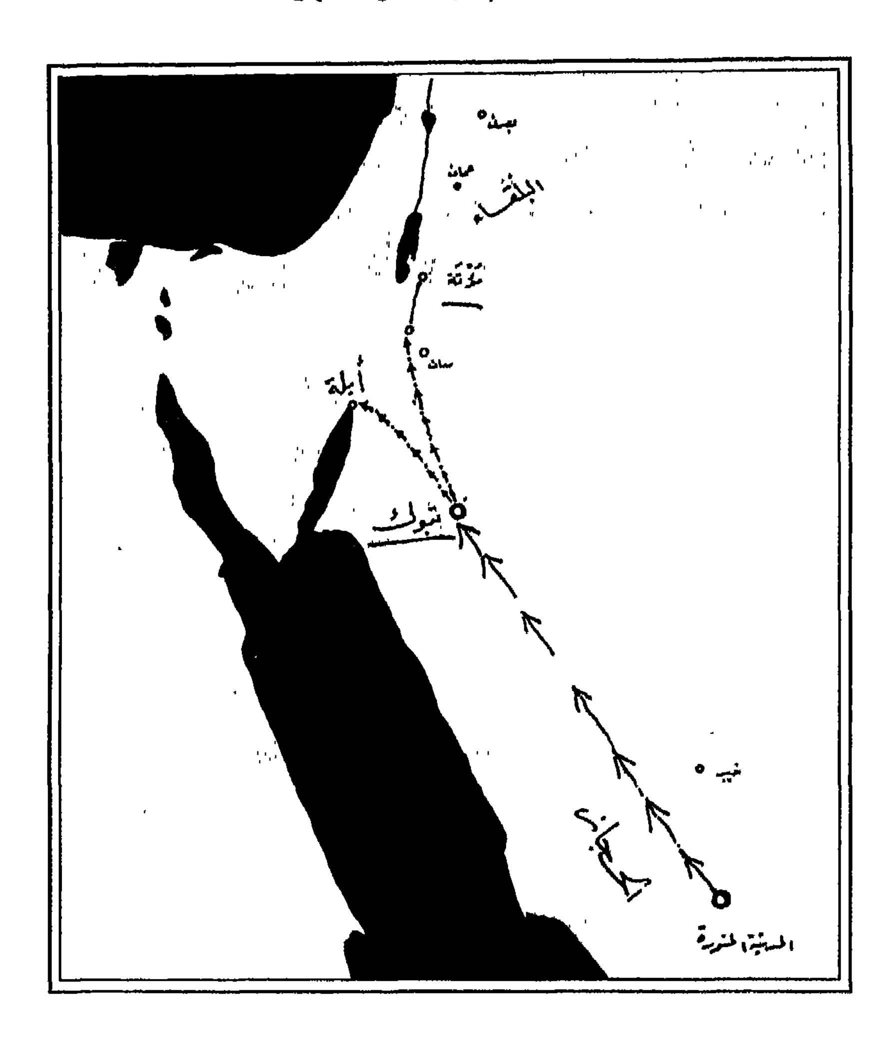
الثاني عشر: يثبت أصحاب الإيمان على مبادئهم فلا يبيعونها رخيصة في سوق المزايدات، بخلاف غيرهم من أصحاب الشعارات الذين يبيعونها بأبخس الأثمان.

الثالث عشر: يحاول المنافقون النيل من الدعوة مبدءاً ودعاة، ويبحثون عن الوسائل والأساليب المثبطة للهمم، المعطلة للقيم، المميعة للمواقف، المبعثرة للطاقات.

الرابع عشر: يتخذ المنافقون أماكن كثيرة تحت مسميات شتى يحاربون من خلالها الإسلام، ويرصدون بها الدعوة ورجالها.

الخامس عشر: يعلم المؤمن أن كل موقف معارضة لدعوة الله وتعطيل مسيرتها هو مسجد ضرار، لأن مسجد الضرار ليس تراباً وجذوع نخل تمّ هدمها في المدينة، ولكنه موقف وفهم يتكرر بتكرره في كل زمن وحين – والله المستعان.

الطريق إلى غزوة تبوك



* حجة الوداع

أعلن النبي ﷺ للناس في السنة العاشرة من الهجرة النبوية الشريفة عزمه على الحج فمن أراد مرافقته فليفعل، وكان حجه الأول.

وقد تم الإعلان في السنة التي قبلها أن لا يحج بعد العام التاسع مشرك لذا كان الحج مع الرسول ﷺ خاصاً بالموحدين الذين لا يعبدون إلاّ الله تعالى.

خرج النبي ﷺ من المدينة لخمس بقين من ذي القعدة[1] وخرج معه الناس وقد قال لهم (لتأخذوا عني مناسككم)[2] فكانت حجته تطبيقاً عملياً لمنسك الحج للمسلمين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ولما كان يوم عرفة نزل عليه قوله تعالى ﴿ .... **اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا .... الآية** ﴾[3].

وقد حج معه جمع غفير من الناس، اختلف في تقدير عددهم قيل مائة ألف أو يزيدون قليلا[4].

وفي عرفات خطب النبي ﷺ خطبة اشتملت على أساسيات الدين. أورد بعضاً منها

(أيها الناس اسمعوا قولي، فإني لا أدري لعلي لا القاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً.

أيها الناس: إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا، وكحرمة شهركم هذا، وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم وقد بلغت.

فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها، وإن كل رباً موضوع ولكن لكم رؤوس أموالكم، لا تَظلمون، قضى الله أنه لا ربا، وإن ربا

---

(١) فتح الباري ١٠٤/٨، والسيرة النبوية – ابن هشام – ٢٧٢/٤.
(٢) أخرجه مسلم، كتاب الحج، باب استحباب رمي جمرة العقبة ٩٤٣/٢ (ح/١٢٩٧).
(٣) سورة المائدة آية ٣.
(٤) المختصر في علوم الحديث – من قول أبي زرعة الرازي ٢١٢.

العباس ابن عبدالمطلب موضوع كله، وإن كل دم كان في الجاهلية موضوع، وإن أول دمائكم أضع دم ربيعة بن عبدالحارث بن عبدالمطلب - كان مسترضعاً في بني ليث فقتلته هذيل - فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية.

أما بعد: فإن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه أبداً، ولكنه إن يُطع فيما سوى ذلك فقد رضي به، مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم.

أيها الناس: **﴿إنما النسيء زيادة في الكفر يُضَلُّ به الذين كفروا يُحلونه عاماً ويُحرمونه عاماً ليُواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله ..... الآية﴾**(1) ويحرموا ما أحلَّ الله وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله أثنا عشر منها أربعة حرم ثلاثة متوالية ورجب الذي بين جمادى وشعبان.

أما بعد: أيها الناس: فإن لكم على نسائكم حقاً، ولهن عليكم حقاً. لكم عليهن أن لا يوطئن فُرشَكُمْ أحداً تكرهونه، وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبينة. فإن فعلن، فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع، وتضربوهن ضرباً غير مبرِّح، فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف.

فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهنَ بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فاعقلوا أيها الناس قولي، فإني قد بلغت.

وإني قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً، أمراً بيناً، كتاب الله وسنة نبيه.

أيها الناس: اسمعوا قولي واعقلوه، تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم، وأن المسلمين أخوة، فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه، فلا تظلمنَّ أنفسكم، اللهم هل بلغت؟

قالوا: اللهم نعم، فقال النبي ﷺ اللهم فاشهد)(2).

---

(1) سورة التوبة آية ٣٧.
(2) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ ٨٨٦/٢ - ٨٩٠ (ح/١٢١٨).

وقد اشتملت هذه الخطبة على الأمور التالية:

- إعلان الوداع للدنيا.
- بيان الحرمات.
- أداء الأمانات.
- إنهاء معاملات الجاهلية وأعرافها.
- التحذير من الشيطان وفتنته.
- مصدر التحليل والتحريم إنما هو الله.
- بيان التصور في معاملة المرأة.
- الناس سواسية كأسنان المشط.
- القرآن العظيم والسنة النبوية الشريفة ضمانة بقاء لهذه الأمة إن تمسكت بهما.

بعض نتائج حياة النبي ﷺ

أولاً: بلغً الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وتركها على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلاً هالك.

ثانياً: رأى ثمرة دعوته وكفاحه وجهاده.

ثالثاً: وصل الإسلام إلى كافة جزيرة العرب ودخل الناس فى دين الله أفواجا..

رابعاً: تطهرت الجزيرة العربية من الشرك والأصنام وعبادة غير الله تعالى فصارت موحدة..

خامساً: رأى قناعات الصحابة رضوان الله عليهم بالإسلام وارتقاؤهم بالإسلام قولاً وعملاً.

سادساً: أقام الدولة المسلمة في المدينة وسائر الجزيرة.

سابعاً: بدأ بالاتجاه شرقاً للفرس وشمالاً للروم.

ثامناً: وضع هذه الأمة في موقع الأستاذية للبشرية علماً وعملاً.

تاسعاً: أنهى التبعية الفكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية لقوى الظلم الكافر من اليهود والنصارى والمجوس.

عاشراً: أنهى وجود اليهود والنصارى وسلطانهم من جزيرة العرب.

إلى
الرفيق الأعلى

مرض النبي ﷺ ووفاته

* بداية المرض

بدأ المرض بالنبي ﷺ وكان يدور على نسائه كعادته فلما اشتد المرض طلب منهن الإذن بأن يُمّرض في بيت عائشة رضي الله عنهن جميعاً.

فعن عائشة رضي الله عنها قالت:

لما ثقل رسول الله ﷺ واشتد به وجعه استأذن أزواجه أن يُمّرض في بيتي، فأذن له[(١)].

وعنها رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ وهو صحيح يقول: إنه لم يُقبض نبي قط حتى يرى مقعده من الجنة، ثم يحيا - أو يخيّر -

فلما اشتكى وحضره القبض ورأسه على فخذ عائشة، غُشي عليه، فلما أفاق شخص بصره نحو سقف البيت ثم قال: اللهم في الرفيق الأعلى، فقلت إذاً لا يختارنا.

فعرفت أنه حديثه الذي كان يحدثنا وهو صحيح[(٢)].

* الإشارة إلى رحيله

وقد أشار ﷺ إلى رحيله بإشارات أدركها بعض الصحابة رضوان الله عليهم فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ جلس على المنبر فقال (عبد خيّره الله بين أن يؤتيه زهرة الدنيا، وبين ما عنده، فاختار ما عنده). فبكى أبوبكر، فقال: فديناك بآبائنا وأمهاتنا، قال فكان رسول الله ﷺ هو المخيّر، وكان أبوبكر أعلمنا به.

وقال رسول الله ﷺ (إن أمن الناس عليّ في ماله وصحبته أبوبكر، ولو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبابكر خليلاً، ولكن أخوة الإسلام، لا تبقين

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته ٤/١٦٢٠ (ح/٨١٩٤) ومسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب استخلاف الإمام ٣١٢/١ (ح/٤١٨).

(٢) تقدم قبله.

خوخة[1] إلا خوخة أبي بكر)[2].

*** خطبته أثناء فترة المرض**

أحسَّ ﷺ بخفة المرض فخرج إلى الناس وجلس على المنبر وخطب الناس. وكان مما قاله لهم

- التحذير من اتخاذ قبور الأنبياء مساجد.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ في مرضه الذي لم يقم منه (لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد).

قالت عائشة: لولا ذلك لأبرز قبره، خشي أن يتخذ مسجداً.

- الوصية بالأنصار[3]

فهم أولى بالوصية فهم أنصار الله ورسوله ﷺ ضحوا بكل شيء في سبيل هذه الدعوة المباركة.

عن أنس رضي الله عنه قال: مر أبوبكر والعباس رضي الله عنهما بمجلس من مجالس الأنصار وهم يبكون، فقال: ما يُبكيكم؟ قالوا: ذكرنا مجلس النبي ﷺ منا، فدخل على النبي ﷺ فأخبره بذلك، قال فخرج النبي ﷺ وقد عصب على رأسه حاشية برد، قال فصعد المنبر، ولم يصعده بعد ذلك اليوم، فحمدالله وأثنى عليه ثم قال: (أوصيكم بالأنصار، فإنهم كرشي وعيبتي، وقد قضوا الذي عليهم وبقي الذي لهم، فاقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم).

عن ابن عباس رضي الله عنهما يقول خرج رسول الله ﷺ وعليه ملحفة متعطفاً بها على منكبيه، وعليه عصابة دسماء، حتى جلس على المنبر فحمدالله وأثنى عليه ثم قال: (أما بعد أيها الناس إن الناس يكثرون ويقل الأنصار حتى

---

(١) خوخة - الباب الصغير، اى سدوا ابوابكم المفضية إلى المسجد إلاّ باب ابي بكر.

(٢) اخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل ابي بكر رضي الله عنه ١٨٥٤/٤ (ح/٢٣٨٢).

(٣) اخرجه البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ اقبلوا من محسنهم ١٣٨٣/٣ (ح/٣٥٨٨ - ٣٥٨٩ - ٣٥٩٠).

يكونوا كالملح في الطعام، فمن ولي منكم أمراً يضر فيه أحداً أو ينفعه، فليقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم).

- أمره أبابكر أن يصلي بالناس

قال ﷺ: (مروا أبابكر أن يصلي بالناس).

فقالت عائشة: يا رسول الله إن أبابكر رجل أسيف - أي رقيق - وإنه متى ما يقم مقامك لا يسمع الناس، فلو أمرت عمر، فقال: (مروا أبا بكر أن يصلي) فقالت عائشة لحفصة قولي له إن أبا بكر رجل اسيف وإنه متى يقم مقامك لا يسمع الناس، فلو أمرت عمراً. فقال: (إنكن لأنتن صواحب يوسف مروا أبا بكر أن يصلي بالناس).

قالت عائشة: لقد راجعت رسول الله ﷺ في ذلك، وما حملني على كثرة مراجعته إلا أنه لم يقع في قلبي أن يحب الناس بعده رجلاً قام مقامه أبداً، ولا كنت أرى أنه لن يقوم أحد مقامه إلا تشاءم الناس به، فأردت أن يعدل رسول الله ﷺ عن أبي بكر[1].

* خروجه أثناء مرضه وصلاته بالناس

عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال (ضعوا لي ماء في المخضب[2]) ففعلنا، فاغتسل ثم ذهب لينوء[3] فأغمى عليه[4] ثم أفاق فقال (أصلى الناس؟) قلنا: لا، وهم ينتظرونك، يا رسول الله، فقال: (ضعوا لي ماء في المخضب) ففعلنا، فاغتسل، ثم ذهب لينوء فأغمى عليه، ثم أفاق.

فقال: (أصلى الناس؟) قلنا: لا، وهم ينتظرونك يا رسول الله، فقال: (ضعوا لي ماء في المخضب) ففعلنا فاغتسل، ثم ذهب لينوء فأغمى عليه، ثم أفاق، فقال: (أصلى الناس؟) فقلنا: لا، وهم ينتظرونك، يا رسول الله، قالت

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأذان، باب الرجل يأتم بالإمام ٢٥١/١ (ح/٦٨١) وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب استخلاف الإمام ٣١٣/١ (ح/٤١٨).

(٢) (المخضب) إناء نحو المركن الذي يغسل فيه.

(٣) (لينوء) أي يقوم وينهض.

(٤) (فاغمي عليه) أي أصابه الإغماء، وهو الغشي.

والناس عُكُوف[1] في المسجد ينتظرون رسول الله ﷺ لصلاة العشاء الآخرة قالت فأرسل رسول الله ﷺ إلى أبي بكر، أن يصلي بالناس فأتاه الرسول فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تصلي بالناس، فقال أبو بكر، وكان رجلاً رقيقاً: يا عمر: صل بالناس، قال فقال عمر: أنت أحق بذلك، قالت فصلى بهم أبوبكر تلك الأيام، ثم إن رسول الله ﷺ وجد من نفسه خفة فخرج بين رجلين، أحدهما العباس ورجل آخر، لصلاة الظهر، وأبوبكر يصلي بالناس فلما رآه أبوبكر ذهب ليتأخر، فأومأ إليه النبي ﷺ أن لا يتأخر، وقال لهما (أجلساني إلى جنبه) فأجلساه إلى جنب أبي بكر، وكان أبوبكر يصلي وهو قائم بصلاة النبي ﷺ والناس يصلون بصلاة أبي بكر، والنبي ﷺ قاعد.

قال عبيد الله: فدخلت على عبدالله بن عباس فقلت له: الا أعرض عليك ما حدثتني عائشة عن مرض رسول الله ﷺ ؟ فقال: هات[2] فعرضت حديثها عليه فما أنكر منه شيئاً، غير أنه قال: أسمت لك الرجل الذي كان مع العباس؟ قلت لا، قال: هو علي[3].

* مساررته فاطمة ابنته رضى الله عنها

عن عائشة رضي الله عنها قالت:

(دعا النبي ﷺ فاطمة عليها السلام في شكواه الذي قُبض فيه، فسارّها بشيء، فبكت، ثم دعاها فسارها بشيء فضحكت.

فسألناها عن ذلك:

فقالت: سارّني النبي ﷺ أنه يُقبض في وجعه الذي توفي فيه فبكيت، ثم سارّني فأخبرني أني أولُ أهله يتبعه فضحكت)[4].

---

(١) (عكوف) اى مجتمعون منتظرون خروج النبي ﷺ.

(٢) اي اعرض عليّ.

(٣) اخرجه البخاري، كتاب الاذان، باب إنما جعل الإمام ليؤتم به ٢٤٣/١ (ح/٦٥٥) ومسلم بالموضع السابق ٣١٣/١ (ح/٤١٨).
وكانت رضي الله عنها واجدة على علي لما بلغها من قوله حين استشاره النبي ﷺ في حادث الإفك أنه قال: النساء سواها كثير.

(٤) اخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ١٦١٢/٤ (ح/٤١٧٠).

* نظرته الأخيرة للمؤمنين

عن أنس بن مالك رضي الله عنه

«أن المسلمين بينا هم في صلاة الفجر من يوم الإثنين، وأبوبكر يصلي لهم، لم يفجأهم إلا رسول الله ﷺ وقد كشف عن ستر حجرة عائشة، فنظر إليهم وهم في صفوف الصلاة، ثم تبسم يضحك، فنكص أبوبكر على عقبيه ليصل الصف، وظن أن رسول الله ﷺ يريد أن يخرج إلى الصلاة.

فقال أنس: وهمَّ المسلمون أن يفتتنوا في صلاتهم فرحاً برسول الله ﷺ فأشار إليهم بيده رسول الله ﷺ أن أتموا صلاتكم ثم دخل الحجرة وأرخى الستر» (1).

* سكرات الموت

عن عائشة رضي الله عنها قالت

مات النبي ﷺ وإنه لبين حاقنتي وذاقنتي، فلا أكره شدة الموت لأحد أبداً بعد النبي ﷺ.

- عن عائشة رضي الله عنها قالت

(... وأن الله جمع بين ريقي وريقه عند الموت دخل عليَّ عبدالرحمن(2) وبيده السواك، وأنا مسندة النبي ﷺ فرأيته ينظر إليه، وعرفت أنه يحب السواك، فقلت: آخذه لك؟ فأشار برأسه أن نعم.

فتناوله فاشتدَّ عليه، وقلت ألينه لك؟ فأشار برأسه أن نعم، فلينته فأمرَّه(3).

... فجعل يدخل يديه في الماء فيمسح بهما وجهه يقول: لا إله إلا الله، إن للموت سكرات).

---

(1) أخرجه البخاري بالموضع السابق ١٦١٦/٤ (ح/٤١٨٣) وأخرجه مسلم ٣١٥/١ (ح/٤١٩).
(2) عبدالرحمن بن أبي بكر رضي الله عنه.
(3) أخرجه البخاري بالموضع السابق ١٦١٣/٤ (ح/٤١٧٤).

وعن أنس رضي الله عنه قال

«لما ثقل النبي ﷺ جعل يتغشاه. فقالت فاطمة عليها السلام: واكرب أبتاه.

فقال لها: ليس على أبيك كربٌ بعد اليوم، فلما مات.

قالت: يا أبتاه أجاب رباً دعاه، يا أبتاه من جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه إلى جبريل ننعاه.

فلما دُفن قالت فاطمة عليها السلام.

يا أنس، أطابت نفوسكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب[١].

* وقع خبر الموت على الناس

وعندما سمع الناس بخبر وفاة رسول الله ﷺ أصابت الكثير منهم الدهشة، حتى إن عمر رضي الله عنه وقف بين الناس يقول: إن رسول الله ﷺ لم يمت، ولكن ربه أرسل إليه كما أرسل إلى موسى فمكث عن قومه أربعين ليلة، والله إني لأرجو أن يعيش رسول الله ﷺ حتى يقطع أيدي رجال من المنافقين وألسنتهم يزعمون أو قال: يقولون إن رسول الله ﷺ قد مات[٢].

وعن عائشة رضى الله عنها أن أبابكر رضي الله عنه أقبل على فرس من مسكنه بالسنح، حتى نزل فدخل المسجد، فلم يكلم الناس، حتى دخل على عائشة. فتيمم رسول الله ﷺ وهو مغشى بثوب حبره. فكشف عن وجهه، ثم أكب عليه، فقبله وبكى، ثم قال: بأبي أنت وأمي والله لا يجمع الله عليك موتتين أما الموتة التي كتبت عليك فقد متها[٣].

قال الزهري وحدثني أبوأسامة عن عبدالله بن عباس: «أن أبابكر خرج وعمر يكلم الناس، فقال: اجلس يا عمر فأبى عمر أن يجلس، فاقبل الناس إليه

---

(١) أخرجه البخاري بالموضع السابق ١٦١٣/٤ (ح/٤١٧٤).
(٢) أخرجه البخاري بموضعه ١٦١٩/٤ (ح/٤١٩٣).
(٣) أخرجه البخاري بموضعه ١٦١٨/٤ (ح/٤١٨٧).

وتركوا عمر، فقال أبوبكر: أما بعد من كان منكم يعبد محمداً ﷺ فإن محمداً ﷺ قد مات، ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حي لا يموت، قال الله تعالى ﴿**وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين**﴾[1].

وقال: والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبوبكر فتلقاها منه الناس كلهم، فلم أسمع بشراً من الناس إلا يتلوها فأخبرني سعيد بن المسيب أن عمر قال: والله ما هو إلا أن سمعت أبابكر تلاها فعقرت حتى ما تقلني رجلاي، وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها، علمت أن النبي ﷺ قد مات»[2].

*** تجهيزه للدفن**

وفي اليوم التالي لوفاة النبي ﷺ الثلاثاء[3] غسلوا رسول الله ﷺ في ثيابه، غسله العباس وعلي والفضل وقثم أبناء العباس وشقران مولى رسول الله ﷺ وأسامة ثم كفنوه في ثلاثة أثواب بيض سحولية من كرسف، ليس فيها قميص ولا عمامة[5].

عن عائشة رضي الله عنها قالت:

«إن رسول الله ﷺ توفي وهو ابن ثلاث وستين»[6].

ثم حفروا له قبراً في حجرة عائشة فى المكان الذى قبض فيه، لقوله ﷺ «ما قبض الله نبياً إلا فى الموضع الذى يحب أن يدفن فيه»[7].

ثم صلوا عليه فرادي[8].

---

(١) سورة آل عمران آية ١٤٤.

(٢) أخرجه البخاري بالموضع السابق ١٦١٨/٤ (ح/٤١٨٧).

(٣) السيرة النبوية – ابن هشام – ٤١٦/٤.

(٤) السيرة النبوية – ابن هشام – ٤١٥/٤.

(٥) أخرجه البخاري، كتاب الجنائز، باب الثياب البيض للكفن ٤٢٥/١ (ح/١٢٠٥) ومسلم فى كتاب الجنائز، باب فى كفن الميت ٦٤٩/٢ (ح/٩٤١).

(٦) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب وفاة النبي ﷺ ١٦٢٠/٤ (ح/٤١٩٦).

(٧) الموطأ ٢٣١/١ وابن ماجه في السنن كتاب الجنائز ٥٢١/١ (ح/١٦٢٨)

(٨) البداية والنهاية ٢٩٩/٥ وقال: «وهذا الصنيع وهو صلاتهم عليه فرادى أمر مجمع عليه خلاف فيه».

* **الدروس والعبر**

أولاً : يتعظ المؤمن بما يُذكّره الآخرة فكفى بالموت واعظاً، فإن الدنيا بما فيها زائلة عنه أو زائل عنها.

ثانياً: يعلم المؤمن أن الموت حق، وأنها آجال مكتوبة وأعمار محدودة، لذا يُسارع إلى الخيرات، ويبتعد عن المنكرات.

ثالثاً: يستشعر المؤمن العبودية لله تعالى فيخضع له وينقاد لأن المآل إليه جل وعلا فهو يجزي على الحسنات ويُعاقب على السيئات.

رابعاً: يُصلي المؤمن على محمد ﷺ ويكثر من ذلك فهذا الخير الذي يعيشه إنما كان من خلال دعوة محمد ﷺ وتبليغه لهذه الدعوة.

خامساً: يحب المؤمن أنصار وأصحاب رسول الله ﷺ جميعاً، وينزلهم في نفسه منزلة عظيمة لوصية رسول الله ﷺ بهم، ويترضى عليهم.

سادساً: يبتعد المؤمن عن مظاهر الشرك وعبادة غير الله، لأنه علم أن اليهود والنصارى ليسوا على شيء فقد حرفوا دينهم وضلوا الطريق المستقيم.

سابعاً: لا يعترض المؤمن على أمر الله أو أمر رسوله ﷺ فلا يقدم بين يديه وليس له إلا أن يُسلم ويطيع فذلك هو الخير العظيم.

ثامناً: يدعو المؤمن ربه أن يخفف عنه من سكرات الموت، ويسأله الثبات على الدين والحق.

تاسعاً: يحزن المؤمن على فقد من يحب ولكنه لا يقول ولا يفعل إلا ما يرضي الرب جل وعلا.

عاشراً: يُرسخ المؤمن إيمانه بالعلم واليقين بأن الله حق وأن الموت حق، فلا جزع ولا هلع ولا يفقد صوابه بل هو الثابت الصابر المحتسب.

أمهات المؤمنين

أمهات المؤمنين رضوان الله عليهن

تزوج رسول الله ﷺ خمس عشرة امرأة دخل بثلاث عشرة منهن واجتمع عنده منهن إحدى عشرة وقبض عن تسع. فأما اثنتان منهن فأفسدتهما النساء فطلقهما، وذاك أن النساء قلن لإحداهما: إذا دنا منك فتمنعي فتمنعت فطلقها. وأما الأخرى فلما مات إبراهيم قالت: لو كان نبياً ما مات ابنه فطلقها. منهن خمس من قريش: عائشة وحفصة وأم سلمة وأم حبيبة وسودة ومن غير قريش: ميمونة الهلالية وجويرية الخزاعية وزينب بنت جحش الأسدية وصفية الخيبرية. وهؤلاء التسع هن اللاتي قبض عنهن.

* خديجة بنت خويلد رضي الله عنها

عمل النبي ﷺ في تجارة خديجة حيث كانت من أثرياء مكة فرحل إلى اليمن والشام في تلك التجارة، وقد حقق ربحاً طيباً جعل خديجة تلتفت إلى أمانته وصدقه[1].

فعرضت نفسها عليه بواسطة صديقتها نفيسة بنت منبه حيث عرضت عليه ذلك فوافق ﷺ وكلم أعمامه فخطبوها له من عمها عمرو بن أسد أو خويلد بن أسد[2].

وقد تزوجها وعمره خمس وعشرون سنة وعمرها أربعون سنة[3]

وهى أول زوجات النبي ﷺ ولم يتزوج غيرها إلا بعد موتها رضي الله عنها.

وقد أنجبت له ذكرين هما القاسم وعبدالله وأربع بنات هن أم كلثوم وفاطمة ورقية وزينب[4] فأما القاسم وعبدالله فماتا قبل الإسلام. وأدركت

---

(١) المصنف ٣١٩/٥ – ٣٢١ والطبقات الكبرى ١٥٥/١ – ١٥٧ والسيرة النبوية لابن هشام ٢٤٤/١.

(٢) السيرة النبوية – ابن هشام – ٢٠٣/١ – والطبقات ١٢٩/١ – ١٣٢.

(٣) قال ابن إسحاق كان سنها ثمان وعشرين سنة – انظر مستدرك الحاكم ١٨٢/٣ – وانظر الطبقات الكبرى ١٧/٨.

(٤) المعجم الكبير للطبراني ٣٩٧/٢٢.

البنات الإسلام وأسلمن[1].

ثناء النبي ﷺ على خديجة عظيماً ومحبته لها كبيرة ومواقفها نحوه مشهورة فهي أول من آمن به ﷺ وكانت سبباً في تطمينه وتثبيته عندما جاءه الوحي ورجع خائفاً مرتعداً[2].

توفيت رضي الله عنها قبل هجرة النبي ﷺ إلى المدينة بثلاث سنين. وعمرها خمس وستون سنة[3].

* سودة بنت زمعة بن قيس رضى الله عنها

كانت من المؤمنات المهاجرات في سبيل الله فقد هاجرت إلى الحبشة مع زوجها السكران بن عمرو ابن عم أبيها فأغضب ذلك أهلها. وعندما عادت مع زوجها من هجرتها توفى زوجها السكران، وقيل توفى عنها في الحبشة. وتركها من غير عائل فخشي الرسول ﷺ أن يبطش بها قومها وكانوا أشداء وأعداء الداء للإسلام وأراد أن يجزيها على إسلامها ومصابها خيراً فلم يجد غير أن يتزوجها في رمضان سنة عشر من النبوة بعد وفاة خديجة رضي الله عنها بلا خلاف، والراجح زواجه بها في شوال بعد عائشة[4].

* عائشة بنت أبي بكر رضى الله عنها

كانت لأبي بكر رضي الله عنه مكانة عظيمة في قلب النبي ﷺ لما كان له من مواقف في سبيل الله في أدق اللحظات وأحرجها من مسيرة الدعوة، فلعلَّ الرسول ﷺ أراد أن يكرم صاحبه الوفي الأمين، ويوثق عرى المحبه بينه وبين أخيه في الإسلام أبى بكر، وذلك برباط المصاهرة فتزوج من ابنته عائشة. وكانت عائشة رضي الله عنها صغيرة السن عندما عقد عليها الرسول ﷺ في شوال من السنة العاشرة للبعثة النبوية، ولم يدخل بها إلا في شوال من السنة

---

(١) فتح الباري ١٤/٢٩١ والبداية والنهاية ٢/٣١٨ - ٣١٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه باب بدء الوحي ١/٤ (ح/٣) وأخرجه مسلم، كتاب الإيمان باب بدء الوحي ١/١٤١ (ح/١٦٠).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب تزويج عائشة ٣/١٤١٥ (ح/٣٦٨٣) وفتح الباري ٧/٢٢٤.

(٤) انظر البداية ٣/١٤٩.

الثانية للهجرة. قالت عائشة رضي الله عنها «تزوجني رسول الله ﷺ متوفى خديجة قبل الهجرة وأنا بنت ست وأدخلت عليه وأنا ابنة تسع سنين.....»[1] وفى رواية تزوجها وهي ابنة سبع.

ولقد رأى رسول الله ﷺ فى المنام – ورؤيا الأنبياء حق – أن رجلاً يحملها إليه فى قطعة من جيد الحرير، فيقول: (هذه امرأتك فيراها فيقول: إن كان هذا من عند الله يمضه)[2].

ولم يتزوج رسول الله ﷺ بكراً غيرها.

ومن يقف على سيرة هذه السيدة العظيمة تأخذه الدهشة لذكائها وفطنتها وغزارة علمها وفقهها وسمو أخلاقها، وسيعلم حينها لماذا كانت بتلك المكانة الكبيرة عند رسول الله ﷺ.

* حفصة بنت عمر بن الخطاب رضى الله عنها

لقد توفي عنها زوجها خنيس بن حذافة السهمي المهاجري البدري صاحب الهجرتين – الحبشة والمدينة – إذ أصابته جراحة يوم أحد فمات منها وروي أنه توفى بعد بدر[3] وتزوجها رسول الله ﷺ للحكمة ذاتها التى تزوج من أجلها عائشة وسودة رضي الله عنهما إضافة إلى حزنها الشديد على زوجها المجاهد وحزن عمر لحزنها، فعرض زواجها على حبيبيه أبى بكر وعثمان لعلّ فى الاقتران بهما مواساة لها وإخراجها من أحزانها. فأعتذر عثمان بحجة عدم حاجته فى النساء، وسكت أبوبكر، ولذا وجد عمر فى نفسه عليه اكثر مما وجد على عثمان، وما لبث ليالي حتى خطبها رسول الله ﷺ ولقيه أبوبكر وأوضح له سبب سكوته، وهو أن الرسول ﷺ كان قد ذكرها فكره إفشاء سر رسول الله ﷺ وقال: «لو تركها رسول الله ﷺ قبلتها»[4]

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب تزويج النبي ﷺ عائشة ١٤١٥/٣ (ح/٣٦٨٣).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب النكاح. باب تزويج الأب البكر الصغيرة ١٠٣٩/٢ (ح/١٤٢٢–١٤٢٣).

(٣) أخرجه البخاري فى صحيحه، كتاب النكاح، باب عرض الإنسان ابنته ١٩١٨/٥ (ح/٤٨٣٠).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب عرض الإنسان ابنته أو أخته على أهل الخير ١٩٦٨/٥ (ح/٤٨٣٠).

وفي هذا دليل على أن الرسول ﷺ كان يشعر بما تعانيه حفصة من تأيم فأراد أن يواسيها ويواسي أباها لمكانته عنده.

وروي أن الرسول ﷺ طلقها ثم راجعها. ودخل عليها عمر وهي تبكي فقال: ما يبكيك؟ لعلّ رسول الله ﷺ طلقك؟ إن النبي ﷺ طلقك وراجعك من أجلي، والله لئن كان طلقك مرة أخرى لاكلمتك كلمة أبداً[1].

وعندما طلقها الرسول ﷺ أتاه جبريل عليه السلام فقال له: (راجع حفصة فإنها صوامة قوامة، وإنها زوجتك في الجنة)[2].

وفي هذه الأحاديث ما يكفي للدلالة على حكمة زواج الرسول ﷺ من حفصة.

* زينب بنت خزيمة الهلالية رضي الله عنها

كانت زوجة للطفيل بن الحارث بن عبدالمطلب بن عبد مناف، فطلقها، وقيل كانت عند جهم بن عمرو بن الحارث فتزوجها بعده عبيدة بن الحارث، فقتل ببدر شهيداً، وقيل كانت تحت عبدالله بن جحش، وقتل عنها يوم أحد شهيداً،[3] وكانت تدعى أم المساكين في الجاهلية لرحمتها إياهم ورقتها عليهم. فقد روى الزبير بن بكار أن الرسول ﷺ عندما تزوجها أولم عليها جزوراً، فكثر المساكين، فتركهم الناس والطعام.

وهي أخت أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها لأمها، هند بنت عوف بن الحارث بن حماطة الحميرية.

إن امرأة تعاقب عليها هذا العدد من الأزواج منهم شهيدان، وما عرف عنها من الصلاح والرأفة على المساكين، لجديرة بأن تحظى بعطف الرسول ﷺ وتقديره لظروفها، ولم يكن هناك من تكريمه لها إلا بالزواج منها فتزوجها الرسول ﷺ في رمضان على رأس واحد وثلاثين شهراً من الهجرة فمكثت

---

(١) الفتح الرباني ٢٢/١٣٠ - ١٣١ ومجمع الزوائد ٤/٢٣٣ وقال رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.

(٢) الفتح الرباني ٢٢/١٣١.

(٣) الإصابة ٤/٣١٥، والاستيعاب ٤/٣١٣.

عنده ثمانية أشهر، وتوفيت في آخر شهر ربيع الأول على رأس تسعة وثلاثين شهراً من الهجرة. ولم يمت من أزواجه في حياته ﷺ غيرها وغير خديجة بنت خويلد[1].

*** أم سلمة – هند بنت أبي أمية – المخزومية رضى الله عنها**

لقد حفظ التاريخ لهذه السيدة ذكراً مجيداً إذ كانت من شهيرات المؤمنات العاملات وراء صفوف المجاهدين في غزوة أحد، وكان لها رأي سديد في قصتها مع النبي ﷺ يوم الحديبية. ومن أبرز مجاهداتها أنها هاجرت إلى الحبشة مع زوجها أبى سلمة عبدالله بن عبد الأسد ابن عمة النبي ﷺ، وأنها عانت فى رحلتها إلى المدينة مهاجرة كما مرَّ ذكره سابقاً وكان لزوجها بلاء حسن يوم أحد حتى جرح جرحاً كبيراً اندمل بعد فترة ثم عاوده واشتد عليه ألمه وكان سبباً في وفاته.

لقد مات رضي الله عنه وخلف وراءه أربعة من الأولاد هم: زينب وسلمة وعمر ودرة. وقد حرص الرسول ﷺ على مواساتها عملياً بأن يكرمها بضمها إلى نسائه، والقيام بأمرها لأنها من المهاجرات، ولم يكن لها أهل بالمدينة غير أبنائها.

ورُوي عنها انها قالت: أتانى أبوسلمة يوماً من عند رسول الله ﷺ بقول: فسررت به قال: لا تصيب أحداً من المسلمين مصيبة فيسترجع عند مصيبته ثم يقول: اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيراً منها، إلا فُعِلَ ذلك به. قالت أم سلمة: فحفظت ذلك منه فلما توفي أبوسلمة استرجعت وقلت: اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيراً منه، ثم رجعت إلى نفسي قلت: من أين لي خير من أبي سلمة؟ فلما انقضت عدتي استأذن عليَّ رسول الله ﷺ وأذنت له.... فخطبنى إلى نفسي فلما فرغ من مقالته قلت: يا رسول الله ما بي أن لا تكون بك الرغبة في، ولكني امرأة فيَّ غيرة شديدة، فأخاف أن ترى مني شيئاً يعذبني الله به وأنا امرأة دخلت في السن، وأنا ذات عيال.

فقال: (أما ما ذكرت من الغيرة فسوف يذهبها الله عزوجل منك، وأما ما

(١) الإصابة ٣١٥/٤، والاستيعاب ٣١٢/٤.

ذكرت من السن فقد أصابني مثل الذي أصابك، وأما ما ذكرت من العيال فإنما عيالك عيالي).

قالت: فقد سلمت لرسول الله ﷺ فتزوجها رسول الله ﷺ فقالت: فقد أبدلني الله بأبي سلمة خيراً منه رسول الله ﷺ(١).

وكان زواج الرسول ﷺ بها في شوال سنة أربع(٢).

* جويرية بنت الحارث المصطلقية رضى الله عنها

لقد سبق الكلام عن قصة زواجها في غزوة بني المصطلق.

وقد أراد الرسول ﷺ إكرام هذا الصنف من النساء الأسيرات فسوّى بينهن وبين الحرائر وضرب للناس أصدق الأمثال على سماحة الإسلام، فأزال من الأذهان ما كان قد علق بها من احتقار للإماء واتخاذهن فقط للبيع أو للخدمة، وحرمن من نعمة العتق إلا بالمكاتبة وشراء أنفسهن من مالكهن.

فتعلم المسلمون من هذه الزيجة كيفية صيانة سيدات الأسر الكريمة بين قومها، ورحمة عزيز قوم ذل، وغني قوم افتقر، وقد زخر التاريخ الإسلامي بعد هذا بالسبايا اللائى تزوجهن أسيادهن من الخلفاء والأمراء والسادة والكبراء وأنجبن الخلفاء والأمراء والقادة العظماء والعلماء وتأمل في ذلك تاريخ خلفاء بني العباس ترى ذلك واضحاً جلياً.

* زينب بنت جحش رضى الله عنها

هي ابنة عمة الرسول ﷺ أميمة. وقد زوجها الرسول ﷺ لمولاه زيد بن حارثة رضى الله عنه، الذي أعتقه وتبناه إلى أن أبطل الله عادة التبني ومنزل في قصة زواجها من زيد رضي الله عنه ثم الرسول ﷺ قوله تعالى ﴿ **وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتُخفي في نفسك ما الله مُبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد**

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ما يقال عند المصيبة ٦٣٢/٢-٦٣٣ (ح/٩١٨-٩١٩).

(٢) الطبقات الكبرى ٨٧/٨.

منها وَطَرًا زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولا ﴾(1).

فقد روى البخاري أن زيداً جاء يشكو زوجته، فجعل النبي ﷺ يقول: (اتق الله وأمسك عليك زوجك) قالت عائشة: لو كان رسول الله ﷺ كاتماً شيئاً لكتم هذه.

فكانت زينب تفخر على أزواج النبي ﷺ تقول زوجكن أهاليكن، وزوجني الله من فوق سبع سماوات(2).

لقد كان زواج الرسول ﷺ منها لهلال ذي القعدة من العام الخامس الهجري، وهي بنت خمس وثلاثين لحكمة وهي إبطال عادة التبني كما هو واضح من آية سورة الأحزاب المذكورة.

وخلاصة ما ورد في تفسير هذه الآية: أن الذي كان يخفيه النبي ﷺ هو إخبار الله إياه أنها ستصير زوجته. والذي كان يحمله على إخفاء ذلك خشية قول الناس: تزوج امرأة ابنه(3).

وأراد الله إبطال ما كان أهل الجاهلية عليه من أحكام التبني وليس أبلغ في إبطاله من تزوج امرأة الذي يدعى ابناً، ووقع ذلك أمام المسلمين ليكون أدعى لقبولهم(4).

* ريحانة بنت زيد بن عمرو بن خنافة رضي الله عنها

قيل: ومن أزواجه ريحانة بنت عمرو النضرية وقيل القرظية.

سبيت يوم غزوة بني قريظة فاصطفاها رسول الله ﷺ لنفسه فأعتقها وتزوجها ثم طلقها ثم راجعها.

---

(1) سورة الأحزاب آية 37، وأخرج البخاري القصة في صحيحه، كتاب التفسير، باب «وتخفي في نفسك ما الله مبديه» 4/1797 (ح/4509).

(2) أخرجه البخاري أيضاً، كتاب التوحيد، باب «وكان عرشه على الماء....» 6/2699 (ح/6984 - 6985).

(3) أخرجه الترمذي 3/92 - صحيح الجامع من قول ابن عمر ما كنا ندعو زيد بن حارثة إلا زيد ابن محمد حتى نزل قوله تعالى (ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله) الأحزاب/5.

(4) تفسير ابن كثير 6/420 - 421.

وقالت طائفة: بل كانت أمته وكان يطؤها بملك اليمين. فهي معدودة عندهم في السراري واختلفوا في تاريخ وفاتها، هل كان قبل الرسول ﷺ أم بعده؟ ولم يرجحوا قولاً على آخر. والذي يظهر أنها ماتت في حياة الرسول ﷺ لقوة أسانيد القائلين بهذا. وهو ما جزم به ابن عبدالبر رحمه الله تعالى(١).

* أم حبيبة رملة بنت أبى سفيان بن حرب رضى الله عنها

هاجرت أم حبيبة مع زوجها عبيد الله بن جحش الأسدي إلى الحبشة ولما تنصرّ زوجها فارقها.

وعندما علم الرسول ﷺ بارتداد زوجها وثباتها على الإسلام أرسل عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي ليخطبها له، فزوجها إياه بصفته وكيلاً عن النبي ﷺ فوكلت هي خالد بن سعيد بن العاص ابن عم أبيها. وبعث بها النجاشي إلى المدينة مع شرحبيل بن حسنة وكان مهرها وجهازها من عند النجاشي(٢).

وكان ذلك سنة سبع، وكان لها بضع وثلاثون سنة. ولدت لابن جحش ابنته حبيبة قيل بالحبشة وقيل بمكة.

وحكمة هذا الزواج لا تخفى على أحد يعلم ثبات هذه السيدة على دينها عندما ارتد زوجها بالحبشة، وموقف والدها من الدعوة الإسلامية وقيادته لكل حروب قريش ضد المسلمين ما عدا غزوة بدر، لأنه كان صاحب القافلة التي جعلها الله سبباً في تلك الغزوة. ففي زواجه منها مواساة لها في مصيبتها في زوجها وغربتها، وقطع الطريق أمام شماتة الأعداء، وفيه تخفيف من غلواء عداوة قومها بني أمية للإسلام ونبي الإسلام، وقد حرص الرسول ﷺ على ذلك كما هو واضح من موقفه من أبي سفيان يوم فتح مكة وعند تقسيم غنائم حنين وغيرها من المواقف إلى أن هداهم الله إلى الإسلام فأصبحوا قوة وعزة ونصرة للإسلام في مستقبل أيامه.

---

(١) الاستيعاب ٣١٠/٤.

(٢) الفتح الرباني ١٣٣/٢٢، والسيرة النبوية - ابن هشام - ٣٨٩/٤.

* صفية بنت حيي بن أخطب النضرية رضى الله عنها

عندما افتتح المسلمون خيبر سُبيت النساء. منهن صفية فاشتراها الرسول ﷺ من دحية حيث وقعت في سهمه، فأعتقها رسول الله ﷺ وتزوجها[1]. ودخل عليها في طريق العودة إلى المدينة وتطوع لحراسته في تلك الليلة أبوأيوب الأنصارى خوفاً منه على الرسول ﷺ أن تغدر به[2] ولكن اتضح أنه لم يكن في قلبها يومذاك أي حقد على الرسول ﷺ لأنها آمنت بالرسول ﷺ من أول وهلة يوم اصطفاها له أصحابه يوم خيبر أو يوم اشتراها من دحية.

ومن أدلة ذلك أن الرسول ﷺ عندما أراد أن يدخل عليها وهم على بعد ستة أميال من خيبر أبت عليه، وعندما وصل إلى الصهباء على بعد بريد من خيبر وافقت، فسألها عن سبب الامتناع في المرة الأولى فقالت خشيت عليك من قرب اليهود، فزادها ذلك عنده محبة. وقال لها الرسول ﷺ (لم يزل أبوك من أشد يهود لي عداوة حتى قتله الله) فقالت: يا رسول الله إن الله يقول في كتابه العزيز «ولا تزر وازرة وزر أخرى» فقال لها رسول الله ﷺ (اختاري فإن اخترت الإسلام أمسكتك لنفسي، وإن اخترت اليهودية فعسى أن أعتقك فتلحقي بقومك) فقالت «يا رسول الله لقد هويت الإسلام وصدقت بك قبل أن تدعوني حيث صرت إلى رحلك وما في اليهودية أرب ومالي فيها والد ولا أخ وخيرتني الكفر والإسلام فالله ورسوله أحب إلي من العتق وأن أرجع إلى قومي» فأمسكها رسول الله ﷺ لنفسه.

كانت أمها إحدى نساء بني قينقاع فتزوجها سلام بن مشكم النضري ثم فارقها فتزوجها كنانة بن أبي الحقيق فقتل يوم خيبر. ولم يسمع النبي ﷺ ذاكراً أباها بحرف مما تكره.

لقد كان في زواج الرسول ﷺ منها ذات الحكمة من زواجه من جويرية فهي ابنة زعيم من زعماء اليهود مات هو وزوجها وأخوها في صراعهم ضد الرسول ﷺ فكان لابد من إكرامها لمكانها عند اليهود.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر ١٥٣٩/٤ (ح/٣٩٦٥) وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر ١٥٣٩/٤ (ح/٣٩٦٥).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢٨/٤ وصححه ووافقه الذهبي.

ودل هذا الزواج على أن تهمة العنصرية ضد اليهود لم تكن واردة في قاموس الرسول ﷺ السياسي والاجتماعي وليفهم اليهود أن قضيتهم مع الرسول ﷺ والمسلمين ليست قضية عنصرية كما أشاعوا.

عاشت صفية رضي الله عنها في بيت النبوة معززة مكرمة. وكان الرسول ﷺ يلقنها الحجج عندما يقع بينها وبين بعض بقية نسائه ما يقع بين الضرائر. فقد أخرج الترمذي من طريق أنس قال: بلغ صفية أن حفصة قالت: بنت يهودي فبكت. فدخل عليها النبي ﷺ وهى تبكى فقال (مايبكيك؟) قالت: قالت لي حفصة إني ابنة يهودي فقال النبي ﷺ (وإنك لابنة نبي وإن عمك لنبي وإنك لتحت نبي ففيم تفخر عليك) ثم قال: (اتقي الله يا حفصة)(١).

وهجر الرسول ﷺ زينب بنت جحش ثلاثة شهور لأنها عيرت صفية باليهودية.

ولما رفع الرسول ﷺ عنها الهجران أهدته جارية لها فرحاً بهذا العفو وندماً على تلك الزلة(٢). وكان ذلك في حجة الوداع كما يفهم من سياق القصة في هذا الحديث الصحيح وفى غيره من الأحاديث.

ميمونة بنت الحارث الهلالية رضى الله عنها

رغبٌ الرسول ﷺ في الزواج منها ما عرف عنها من الصلاح والتقوى فقد قالت عائشة عنها «..... أما إنها كانت من أتقانا لله وأوصلنا للرحم»(٣).

وقال رسول الله ﷺ عنها وعن أخواتها: (الأخوات مؤمنات ميمونة وأم الفضل وأسماء)(٤).

وكان عمه العباس حريصاً على أن يقترن الرسول ﷺ بها فقد قال له يا رسول الله تأيمت ميمونة بنت الحارث.. هل لك في أن تتزوجها؟(٥) ولا شك أن

---

(١) صحيح جامع الترمذي ٣/٢٤٤ – ٢٤٥.
(٢) الفتح الرباني ٢٢/١٤٤ وقال الساعاتي لم اقف عليه لغير أحمد وسنده جيد .
(٣) الإصابة ٤/٤١٣، وصحح ابن حجر إسناده.
(٤) الإصابة ٤/٤١٢، وصحح ابن حجر إسناده.
(٥) الاستيعاب ٤/٤٠٧.

العباس رضي الله عنه كان من أعرف الناس بها لأنها أخت زوجه أم الفضل.

وامرأة هذا شأنها لجديرة بأن يضمها الرسول ﷺ إلى بيت النبوة مواساة لها لفقدها زوجها واعترافاً منه بفضلها وتحبيباً لقومها في الإسلام.

* السراري:

لم يتسر رسول الله ﷺ بغير مارية القبطية أم ولده إبراهيم، وجارية أخرى أصابها في بعض السبي، وجارية وهبتها له زينب بنت جحش وريحانة بنت زيد التي اختلف في أمرها. والراجح أنه كان يطؤها بملك اليمين. وروي أن الرسول ﷺ قال عن مارية عندما ولدت له إبراهيم: (أعتقها ولدها) ولو أراد الرسول ﷺ أن تكون له الاف الجواري والسراري لما انتقص من حقه في مجتمع كان لا يرى بأساً من التعدد في الزوجات واتخاذ السراري متى ما تيسر له ذلك مادياً وجسدياً. وما سمعنا أن اليهود والنصارى قد جعلوا من كثرة زوجات وسراري سليمان عليه السلام قضية كما فعلوا مع تعدد الزوجات عند الرسول ﷺ .... ولا شك أن الغرض الباطل هو المحرك لهذه القضية في زماننا هذا...[1]

حكمة هذا التعدد

وخلاصة القول: إن أمهات المؤمنين اللاتي توفي عنهن رسول الله ﷺ كن معلمات ومفتيات لنساء الأمة الإسلامية ورجالها في القضايا النسائية والأحكام الشرعية والآداب الزوجية والحكم النبوية، وكن قدوة صالحة في الخير والبر والإحسان كما كان الرسول ﷺ المثل الأعلى في حسن الخلق وطيب العشرة مع نسائه. فقد عاشرهن بالمعروف وعدل بينهن وعلمهن الأحكام الشرعية الخاصة بالنساء.

وسياسة النبي ﷺ في تعدد الزوجات هي السياسة الرشيدة التي اقتضتها ظروف الدعوة الإسلامية في ذلك الوقت، ومن الصعب أن تقوم زوجة واحدة بمهام تبليغ تلك الأحكام إلى الناس.

ولم يكن هناك ما يغريهن بالبقاء في بيت الرسول ﷺ سوى هذه المهمة

---

(١) انظر في ذلك: - البداية والنهاية ٥/٣٤١ - ٣٤٤، وزاد المعاد ١/١١٤ وغيرهم.

الجليلة، لأن الأخبار قد تواترت لتقطع بأن زوجات الرسول ﷺ كن يعشن في شظف من العيش إلى الحد الذي طالبنه فيه بزيادة النفقة عليهن فخيرهن الرسول ﷺ بين الطلاق وبين قبول هذه المعيشة الصعبة معه. وذلك في قصة طويلة وثابتة بنص القرآن كما في قوله تعالى: ﴿ يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تُردنَ الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلاً، وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً ﴾[1].

ويلحظ أن من بين زوجات الرسول ﷺ الصغيرة التي ماتزال تلعب مع أترابها بلعب الأطفال، والمسنة، وابنة عدو لدود، وابنة صديق حميم، ومنهن من كانت تشغل نفسها بتربية الأيتام، ومنهن من تميزت على غيرها بكثرة الصيام والقيام .... إنهن نماذج لأفراد الإنسانية ومن خلالهن قدم رسول الله ﷺ للمسلمين تشريعاً فريداً في كيفية التعامل السليم مع كل نموذج من هذه النماذج البشرية. وعندما انتقل الرسول ﷺ إلى المدينة لم يكن أمر العداء قاصراً على قريش بل تعداها إلى غيرها من قبائل العرب. فاقتضت الحكمة أن يجمد الرسول ﷺ بعض أطراف هذا العداء وذلك بالإصهار إلى قبائل شتى لأن أعراف العرب كانت تقضى بأن يحمي أهل المرأة زوج امرأتهم كما تفيد ذلك لغتهم إذ يسمون أنفسهم بالأحماء - من الحماية - .

ولما كانت هذه المصلحة يمكن أن تستغل استغلالاً سيئاً نظراً لأن الأمور الجنسية تتبعها النفوس اللاهثة فقد جعل الله تعالى ذلك التعدد بتلك الكيفية خاصاً برسول الله ﷺ وحدد عدد الزوجات لغيره بأربع زوجات كحد أقصى. والله أعلم[2].

---

(١) سورة الأحزاب آية ٢٨ - ٢٩.

(٢) زوجات النبي ﷺ الطاهرات، والحكمة من تعددهن محمد محمود الصواف رحمه الله تعالى وانظر - قراءة جديدة للسيرة النبوية - محمد رواس قلعة جي - وانظر السيرة النبوية من مصادرها الأصلية - والسيرة النبوية في ضوء الكتاب والسنة وغيرهم.

الخاتمــة

الحمدلله أولاً وآخراً، أحمده على نعمة التمام فبنعمته تتم الصالحات واطلبه الكمال فهو واهب الخير للعباد، سبحانه أكرمنا بالعلم، ونسأله العلم والعمل به.

فأرنا اللهم الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا اللهم الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه.

هذا تمام الحديث عن أحب الخلق، وأكمل البشر محمد ﷺ تتجلى في الحديث عنه صفاته وجهده وجهاده.

وإذا اعتاد المؤلفون أن يختموا قولهم بخاتمة فخاتمة قولي في سيرة محمد ﷺ أنه النبي لا كذب، بلَّغَ الرسالة، وأدّى الأمانة، ونصح الأمة، وتركها على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك.

لقد كانت تلك السيرة هي أسمى قصة تُتلى، وأكمل عبرة تُقدم، وأعظم قدوة تُقتدى.

لقد رأينا سيدنا محمداً ﷺ من خلال سيرته العطرة الكريمة، وكان مما رأيناه مجامع صفات الرسالة، عقلاً عظيماً، والتزاماً كاملاً بما يدعو إليه وجهداً في تبليغ الحق الذي أكرمه الله به، مُشهداً الخلق في موقف عام يوم حجة الوداع بأنه قد بَلَّغَ. وأمر من سمع أن يبلغ.

ورأينا تحملاً كبيراً لما واجهه من مشقات الطريق، وعقبات الأداء.

وخاتمة القول: أن قصة السيرة النبوية لا ينبغي أن تبقى في حياة المسلمين – وخاصة في هذا العصر الذى يحاول أعداء الإسلام أن يجتثوا الهوية الإسلامية من الناس – قصة تُتلى في المناسبات، أو تُردد في اللقاءات والجلسات والاحتفالات، بل ينبغي أن تكون نبراساً وهداية واضحة للدور الذي أدته إبان إيجاد الأمة في أول نشأتها ووجودها، حتى تُعاد صياغة الأمة مرة

أخرى على ذلك المنهج النبوي في التربية والبناء للإنسان في هذه الحياة.

سائلاً الله أن يتقبل الجهد، وأن يعفو عن الزلل والخطأ والنقص والتقصير. ونسأله أن يحشرنا في زمرة سيدنا محمد ﷺ فالمرء مع من يحب.

اللهم إني أشهدك أني أحب سيدي محمداً ﷺ وأصحابه الكرام البررة رضي الله عنهم فهو أحب إليّ من نفسي وولدي وأهلي ومالي. اللهم فاشهد.

كما اطلب ممن يقرأ كتابي هذا أن يدعو لي ولوالدي بالرحمة والمغفرة والفوز بالجنة والنجاة من النار، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

المؤلف

الفهارس والمراجع

فهرس الكتاب

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

المراجع والمصادر

(١) القرآن العظيم.

(٢) إتحاف المهرة بأطراف العشرة، مخطوط مصور ابن حجر سيأتي ذكره

(٣) إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، محمد ناصر الدين الألباني طبع المكتب الإسلامي/ بيروت ١٩٧٩م.

(٤) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، أبوعمر يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبدالبر (٤٦٣هـ)، مطبوع بحاشية الإصابة مصر/ ١٩١٠م.

(٥) الإصابة في تمييز الصحابة، احمد بن على بن محمد الكناني – المشهور بابن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ) ط/مصر (١٩١٠م) وتصوير لبنان.

(٦) البداية والنهاية، أبوالفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي (٧٧٤هـ) تحقيق محمد عبدالعزيز النجار. ط/مصر. الفجالة الجديدة.

(٧) تاريخ خليفة بن خياط العصفرى (٤٦٣هـ) بتحقيق أكرم العمرى ط/دار طيبة الرياض ١٩٨٥م.

(٨) تاريخ دمشق، على بن الحسن بن هبة الله بن عساكر الدمشقي (١٧٥هـ) قسم السيرة، تحقيق نشاط غزاوى. ط/ مجمع اللغة العربية، دمشق ١٩٨٤م.

(٩) تاريخ الرسل والملوك، أبوجعفر محمد بن جرير الطبري (٣١٠هـ) ط/ دار المعارف، مصر.

(١٠) تحفة الأحوذى شرح جامع الترمذى، محمد عبدالرحمن بن عبدالرحيم المباركفورى (١٢٣٥هـ) ط/ السلفية، المدينة المنورة.

(١١) تفسير القران العظيم – ابن كثير/ تقدم – تحقيق محمد إبراهيم البنا وزميليه ط/ كتاب الشعب، مصر (١٩٧١م).

(١٢) تقريب التهذيب – ابن حجر/ تقدم – تحقيق عبدالوهاب عبداللطيف ط/دار الكتاب العربي، مصر.

(١٣) تهذيب تاريخ دمشق، ابوالقاسم الحسن بن عساكر ترتيب عبدالقادر علوان ط/دار المسيرة بيروت ١٩٧٩م.
(١٤) جامع البيان عن تأويل القرآن - الطبري/ تقدم - ط/ دار المعارف مصر.
(١٥) جامع الترمذى، محمد بن عيسى بن سورة الترمذى أبوعيسى (٢٧٩هـ) بتحقيق احمد شاكر ط/ دار إحياء التراث.
(١٦) دلائل النبوة أبونعيم احمد بن عبدالله الأصفهانى (٤٣٠هـ) تحقيق الدكتور محمد رواس قلعه جى وعبدالبر عباس ط/دار النفائس، لبنان الثانية ١٩٨٦م.
(١٧) دلائل النبوة احمد بن الحسين بن على البيهقى (٤٥٨هـ). تحقيق الدكتور عبدالمعطى قلعه جى ط/دار الكتب العلمية، بيروت (١٩٨٥م).
(١٨) الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام. أبوالقاسم عبدالرحمن بن عبدالله بن احمد بن أبى الحسين الخثعمى السهيلى (٥٨١هـ) ط/ دار المعرفة، لبنان ١٩٧٨م.
(١٩) الرسول القائد، اللواء محمود شيث خطاب ط/مصر.
(٢٠) الرسول ، سعيد حوى الطبعة الثانية/ لبنان.
(٢١) زاد المعاد في هدى خير العباد، أبو عبدالله محمد بن أبى بكر ابن قيم الجوزية (٧٥٢هـ) تحقيق آل الارناؤوط. ط/ مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٨٦م.
(٢٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة - الألباني - تقدم ط/ المكتب الإسلامي - بيروت.
(٢٣) سنن أبى داود، سليمان بن الأشعث السجستانى (٢٧٥هـ) إعداد عبيد الدعاس الطبعة الأولى ١٩٦٩م.
(٢٤) سنن ابن ماجة، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزوينى (٢٧٥هـ) تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ط/ دار الفكر العربي، بيروت ١٩٧٥م.
(٢٥) السنن الكبرى - البيهقى - تقدم، ط/ دائرة المعارف، الهند ١٩٢٥م.

(٢٦) سنن النسائي، أبوعبدالرحمن احمد بن شعيب النسائي (٣٠٣هـ) بتحقيق عبدالفتاح أبو غدة ط/ دار البشائر.
(٢٧) سير أعلام النبلاء، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن احمد بن عثمان (٧٤٨هـ) ط/ مؤسسة الرسالة.
(٢٨) السيرة النبوية - ابن كثير - تحقيق: مصطفى عبدالواحد ط/السفية مصر - تقدم.
(٢٩) السيرة النبوية دروس وعبر د. مصطفى السباعي. ط/ مؤسسة الرسالة.
(٣٠) السيرة النبوية، ابن هشام، أبو محمد عبدالملك بن هشام بن أيوب الحميرى (٢١٨هـ) تحقيق الدكتور همام سعيد وزميله. ط/ مكتبة المنار الأردن ١٩٨٨م ونسخة بتحقيق السقا ونسخة بتحقيق الهراس.
(٣١) السير والمغازى، ابن إسحاق محمد بن إسحاق بن يسار المطلبى (١٥١هـ) ط/ الأولى ١٩٧٨م.
(٣٢) السيرة النبوية في ضوء الكتاب والسنة، الدكتور محمد محمد أبوشهبة ط/ دار القلم، دمشق ١٩٨٨م.
(٣٣) السيرة النبوية الصحيحة، الدكتور اكرم ضياء العمرى، ط/ مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة ونسخة طبع قطر مركز السنة والسيرة.
(٣٤) السيرة الذهبية، أو صحيح السيرة النبوية، محمد بن رزق بن طرهونى ط/ دار ابن تيمية، القاهرة، الأولى ١٤١٠هـ.
(٣٥) السيرة النبوية في مصادرها الأصلية، الدكتور مهدي رزق الله احمد ط/ مركز الملك فيصل، الرياض، الأولى ١٩٩٢م.
(٣٦) السيرة، أبوحاتم محمد بن حبان بن احمد البستى (٣٥٤هـ).
(٣٧) شرح النووي على مسلم، أبوزكريا محي الدين يحيى بن شرف النووي (٦٧٦هـ) ط/ دار الفكر بيروت.
(٣٨) صحيح البخاري، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري (٢٥٦هـ)

بتحقيق الدكتور مصطفى البغا، ط/ دار علوم القرآن، عجمان، الإمارات العربية المتحدة.

(٣٩) صحيح جامع الترمذى - الألباني - تقدم. ط/ مكتب التربية العربي الأولى ١٩٨٨م.

(٤٠) صحيح مسلم، أبوالحسين مسلم بن الحجاج القشيرى النيسابورى (٢٦١هـ) بتحقيق محمد فؤاد عبدالباقي ط/ مصر.

(٤١) الطبقات الكبرى، محمد بن سعد بن منيع البصري (٢٣٠هـ) ط/ دار صادر، بيروت ١٩٦٨م.

(٤٢) كشف الأستار عن زوائد البزار، أبوبكر نور الدين على بن أبى بكر بن سليمان الهيثمى (٧٠٨هـ) ط/ مؤسسة الرسالة الأولى ١٩٧٩م.

(٤٣) لسان العرب، ابن منظور محمد بن مكرم بن على الأنصارى الأفريقي (١١٧هـ) نشر دار صادر، بيروت.

(٤٤) فتح الباري - ابن حجر - تقدم. ط/ السلفية/ مصر، وطبعة الحلبي بمصر.

(٤٥) الفتح الرباني لترتيب مسند احمد بن حنبل الشيباني، احمد بن عبدالرحمن البنا الساعاتي، ط/ دار الشهاب، القاهرة.

(٤٦) فقه السيرة الدكتور محمد سعيد رمضان البوطى. ط/ دار الفكر دمشق.

(٤٧) فقه السيرة، محمد الغزالى، ط/ قطر.

(٤٨) في ظلال القران، سيد قطب، ط/ لبنان، السابعة.

(٤٩) مباحث في علوم القرآن، مناع خليل القطان، ط/ مؤسسة الرسالة.

(٥٠) المجتمع المدني في عهد النبوة، الدكتور أكرم العمرى، ط/ عام ١٩٨٤م.

(٥١) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد - الهيثمى - تقدم. ط/ دار الكتاب، بيروت الثانية ١٩٦٧م.

(٥٢) المحلى، أبو محمد على بن احمد بن سعد بن حزم (٤٥٦هـ) ط/ مصر ١٩٧٠م.

(٥٣) مختصر سنن أبى داود، المنذرى.

(٥٤) المختصر في علوم الحديث، الدكتور محمد عجاج الخطيب، ط/ مؤسسة الرسالة.

(٥٥) مرويات غزوة بدر، الدكتور احمد محمد العليمى، رسالة ماجستير مقدمة إلى الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة ط/ مكتبة طيبة، الأولى ١٩٨٠م.

(٥٦) مرويات غزوة خيبر، عوض احمد سلطان الشهري رسالة ماجستير مقدمة إلى الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة، غير منشورة.

(٥٧) المستدرك على الصحيحين، الحاكم محمد بن عبدالله بن محمد النيسابورى (٤٠٥هـ) ط/ حيدر آباد الدكن، الهند ١٣٤١هـ.

(٥٨) المسند، أبو عبدالله احمد بن محمد بن حنبل (٢٤١هـ) ط/ المكتب الإسلامي عام ١٩٧٨م، وطبع مصر بتحقيق احمد محمد شاكر ١٩٤٦م.

(٥٩) المصنف، عبدالرزاق بن همام بن نافع أبوبكر الصنعانى (٢١١هـ) بتحقيق حبيب الرحمن الأعظمى، ط/ المكتب الإسلامي، الأولى ١٩٧٥م.

(٦٠) المعجم الكبير، أبوالقاسم سليمان بن احمد الطبرانى (٣٦٠هـ) بتحقيق مجدي عبدالمجيد السلفى، نشر وزارة الأوقاف العراقية (١٩٧٧م).

(٦١) معجم البلدان، الحموي ياقوت بن عبدالله الرومي البغدادي (٦٢٦هـ) ط/ دار صادر، بيروت ١٩٥٦م.

(٦٢) المغازى، محمد بن عمر بن واقد الواقدى (٢٠٧هـ) بتحقيق مارسدان جونس، ط/ مؤسسة الأعلمى للمطبوعات، بيروت ١٩٦٤م.

(٦٣) المغنى في الضعفاء – الذهبي – تقدم. بتحقيق الدكتور نور الدين عنز.

(٦٤) المغنى، ابن قدامة عبدالله بن احمد بن محمد المقدسى (٦٢٠هـ) ط/ الرياض عام ١٩٨١م.

(٦٥) موارد الضمآن إلى زوائد بن حبان – الهيثمى – تقدم. بتحقيق محمد عبدالرزاق حمزة. ط/ دار مكتبة الهلال، بيروت.

(٦٦) المواهب اللدنية. احمد بن محمد ابن أبى بكر شهاب الدين (٩٣٢هـ) ط/ دار الطباعة الأميرية، مصر ١٨٦١م.

(٦٧) الموطأ، الإمام مالك بن أنس، بترتيب محمد فؤاد عبدالباقي، ط/ الحلبي، مصر عام ١٣٧٠هـ.

(٦٨) ميزان الاعتدال – الذهبي – تقدم، بتحقيق على محمد البجاوى، ط/ الحلبي، مصر ١٩٦٢م.

(٦٩) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، أبوالسعادات المبارك بن محمد الجزيرى (٦٠٦هـ) بتحقيق طاهر احمد، ومحمود الطناجى. ط/ الحلبي، مصر.

وغيرهـــا

[تم بحمد الله]